ماجد عبد الله الشمس

الحضارة والميثولوجيا في العراق القديم



بحوث ودراسات

الأسطورة - أصل النوروز - البستنة



الحضارة والميثولوجيا

في

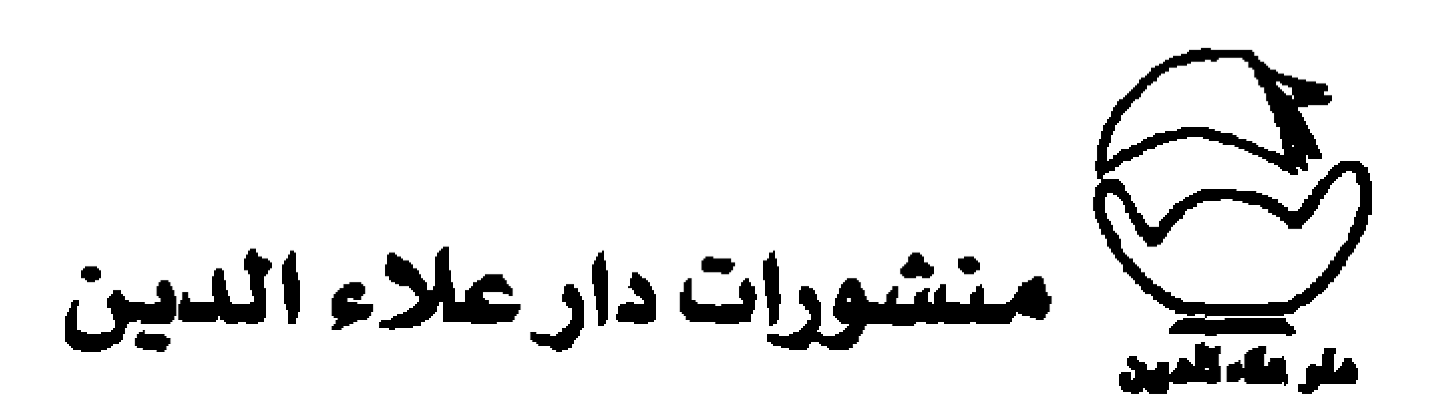
العراق القديم

ماجد عبد الله الشمس

الحضارة والميثولوجيا
في
العراق القديم

بحوث ودراسات

الأسطورة، أصل النوروز، البستنة



منشورات دار علاء الدين

• **الحضارة والميثولوجيا في العراق القديم**
بحوث ودراسات الأسطورة، أصل النوروز، البستنة

• **تأليف: ماجد عبد الله الشمس.**

• الطبعة الأولى ٢٠٠٣.عدد النسخ /١٠٠٠/ نسخة.

• **هيئة التحرير في دار علاء الدين.**

- الإدارة والإشراف العام: م. زويا ميخائيلينكو.
- التدقيق اللغوي: صالح جاد الله شقير.
- الغلاف: م. محمد طه.
- المتابعة الفنية والإخراج:
  - أسامة رحمـــة.

• يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية ، دمشق، ص.ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١ ، فاكس: ٥٦١٣٢٤١

الكتاب الأول

أعياد الربيع في العراق القديم وأصل النوروز

المقدمة

من الأمور المبهجة أن يقدم الباحث عناصر مسرة في تاريخنا الحضاري. وليس هناك أجمل من استقصاء صفحات مشرقة تتحدث عن التفاؤل والخير.

الربيع ذلك الفصل البديع، الذي تكتسي الأرض ببساط أخضر موشى بالورود العبقة بحلوله. وصفحات هذا البحث الذي بين يدي القارئ تخص تلك الأيام الخالدة البحث عن الجمال وما يبهج النفس عبر ستة آلاف عام من نتاجنا الحضاري. تلك الومضة التي احتضنها أبناء وطننا العربي ولا سيما أقوام العراق القديم والحديث من سومريين وبابليين وآشوريين وأكراد وعرب قبل الإسلام نقلوها إلى أرجاء العالم لروعتها وجميل فلسفتها.

لقد ناقشت السطور المقدمة إلى القارئ كيفية انتقال الاحتفال بأيام الربيع من العراق وسورية ولبنان ومصر إلى شعوب عديدة كاليونانيين والفرس، موضحة بأنه لا علاقة للأقوام المقتبسة لتلك الاحتفالات بوضع أسسها وبهذا تكون هذه السطور قد منحت أبناء وطننا العربي أحقية ابتكار التقاويم وما يخصها ويرتبط بها من أعياد ومناسبات.

إن بحث أيام الربيع في ستة فصول يمنح القارئ على اختلاف ثقافته وأصوله القومية، الحجة والدليل الواضح في ارتباط تلك الأيام الجميلة بماضينا الحضاري. هذه السطور نقدمها إلى من أحب الحضارة، أحب الخير، أحب البناء، وجعل الحقيقة ميزان حكمه على الأمور. وإذا كنا قد أثبتنا بما طرحناه عن مضاء أبناء وطننا في خلق أسس الحضارة العالمية فإنها حقيقة تبعث الثقة بأنفسهم لقيادة الإنسانية من جديد إلى ما تصبوا إليه من سلام ووفاق بعد أن قادها أشرار العالم إلى مزالق التفرقة والعنصرية تتبعها مآسي الحروب والدمار كسماسرة أراذل للجشع والسلاح.

فيا مرحباً بكل ربيع يحل بيننا باعثاً للآمال والابتسامة الدائمة بين البشر.

الباحث

الفصل الأول

كلمة في الحضارة

الإنسان ذلك المخلوق المجهول الذي لا تقل مجهولية وجوده عن مجهولية وجود الكون بأسره. ومنذ بدأ يعي وجوده ككائن له خصائصه، عبر مسيرة عدة ملايين من السنين من التطور العضوي والفكري، أخذ يحاور نفسه عن سرّ وجوده في هذا الكون العجيب المليء بالمفاجآت والألغاز، سيما وأنه لم يكن ليعلم من أمر قوانينه الفيزيائية والكيميائية شيئاً.

عندما ينعم الباحث نظره في قصة التاريخ يرى أمامه سؤالاً ملخصه:

متى بدأت الحضارة؟ وفي أي حقبة من الزمن ظهر مخلوق بمواصفات معينة نطلق عليه مصطلح "إنسان"؟

يرتبط كل من السؤالين المطروحين ببعضهما، وذلك لأن مقياس الحضارة يتمثل بما تركه الإنسان من مواد ملموسة. وكما نعلم من مقاييس علماء الإنسان يسمى المخلوق إنساناً ما دام متمكناً من السيطرة على بعض المواد ليصنع منها آلة. وهذا يعني أنه امتلك سيطرة العقل الواعي على اليد وتدريب اليد لصناعة الآلة. ومن البديهي أنه قبل تمكنه من صناعة الآلة كان يستخدم الأحجار والعظام والخشب كما يعثر عليها في الطبيعة، وأنه كان ينتقي الصالح منها ويعني هذا الأمر أن محاولته لصناعة آلة مناسبة جاءت متأخرة. ويرجع بعض المختصين أمر صناعة الإنسان لأبسط الآلات إلى نحو نصف مليون عام أو يزيد. إلا أن هناك آلات صنعها الإنسان ومع ذلك لا يمكن تمييزها عن تلك التي كان يلتقطها من الأرض. ومما تجدر الإشارة إليه أن الآثاريين عثروا على أقدم إنسان بتنجانيقا في كينيا بأفريقية يعود لنحو مليوني عام، وقد وجد المنقبون مع الهياكل العظمية المتحجرة آلات بدائية سمجة.

مما نستخلصه من دراسة آلات الإنسان القديم، إننا كلما أوغلنا في أغوار الماضي لنتتبع صناعتها نرى أن التطور كان بطيئاً جداً، وقد أحتاج تطوير آلة واحدة إلى مئات الآلاف من السنين، إلا أننا حينما نأتي إلى حقب أحدث نشاهد أن التطور في صناعتها يكون أسرع عموماً من الحقب الأسبق لها. فعلى سبيل المثال احتاجت الفأس اليدوية إلى زهاء الربع مليون عام لتتطور إلى شكل أفضل، كما أنها كانت آلة فريدة في الاستعمال. وفي خلال الفترة التي انتشر فيها إنسان "نياندرتال" في أماكن عديدة من آسيا وأوروبة وإفريقيا منذ نحو (١٢٠,٠٠٠ سنة) حصل تطور ملحوظ في صناعة الآلات وتعددت أشكالها كظهور المقاشط ورؤوس الرماح. وفي شمالي العراق وجدنا في كهف شانيدار وأماكن أخرى أحسن الأمثلة لهياكل هذا الإنسان إضافة إلى آلات جيدة الصنع. وإذا كانت الفترات التي تكلمنا عنها بإيجاز تقع ضمن ما يسمى بالعصر الحجري القديم الأسفل. فإن الفترة التالية للموستيرية، التي عاش فيها إنسان نياندرتال، سميت بالعصر الحجري القديم الأعلى (٤٠,٠٠٠ – ١٢,٠٠٠ سنة).

إن إلقاء بعض الضوء على حضارة العصر الحجري القديم الأعلى هو من الأهمية بمكان، فإذا كانت هناك تقسيمات أوروبية ومميزات خاصة للآلات التي صنعت في أوروبة فإن الحضارة البرادوستية المعاصرة لها، والتي تطورت في شمالي العراق، كالأنصال، والمقاشط، والمثاقب والسكاكين فاقت مثيلتها في فرنسا، علماً بأن تلك الآلات كانت تصنع من الحجر المسمى بالصوان وكذلك من حجر الأوبسيديان الزجاجي البركاني.

لا يقتصر أمر حضارة العصر الحجري القديم الأعلى على جودة آلاتها وتعدد أنواعها ودقة حجمها، بل على ما رافقها من تطوير في المعتقدات الدينية وبروز عناصر أساسية لها استمرت إلى يومنا هذا، ولا تقتصر الإشارة إلى المعتقدات كأمر مجرد له مضمون خيالي لا حدود له، بل لكونها عناصر أثرت فيما نحن بصدده لبحث مفاهيم الأعياد ومسوغات قيامها.

لقد لاحظ المختصون وجود رسوم عديدة في كهوف ومأوي صخرية في شمالي أفريقية وجنوبي أوروبة تعود إلى العصر القديم الأعلى ظهرت منذ مطلع هذا العصر في الفترة المسماة بالأورغنيشية، واختفت بالسلوترية، التي تلتها ثم عادت فانتعشت بشكل

يجلب الانتباه خلال الفترة الأخيرة، إي المجدلينية (١٨٠٠٠ – ١٢,٠٠٠ سنة) وقد دفعت الجودة البالغة لبعض الرسوم القديمة إلى أن يعدها علماء الإنسان والآثار أعمالاً حديثة مزورة أول الأمر.

لاحظ المختصون وجود سمات معينة في رسوم الكهوف، منها إنها لا ترسم في بداية ومداخل الكهوف بل في الأماكن البعيدة والخطرة، بل وحتى في السقوف أيضاً، وهو ما حدا بافتراض استعمال المشاعل والسلالم في إنجازها. أما الموضوعات التي ركز عليها الفنانون القدامى فتمثلت في الحيوانات التي استفاد منها اقتصادياً كالثيران والغزلان والماموث (وهو حيوان منقرض شبيه بالفيل)، إضافة إلى الماعز أما الحيوانات الأخرى والنباتات فلا وجود لها تقريباً. وإذا كان الفنانون قد مثلوا الحيوانات المرسومة بشكل جيد، باستخدام أساليب عديدة فإن رسوم البشر كانت قليلة وتخطيطية، كما عثر المختصون على بعضها وقد رسمت وعلى وجه الإنسان قناع. وكانت الرسوم تنجز بالحزوز أو بالألوان أو بهما معاً.

وإذا ما اجتزنا الحديث على الرسوم لننتقل منها إلى التماثيل الصغيرة التي سادت في ذلك العصر، نرى أن أمثلتها محدودة بالنسبة إلى الرسوم، ويبدو أن السبب في ذلك راجع إلى أنها قابلة للنقل من مكان لأخر وضياعها إضافة إلى احتمال كسرها وتلفها. ولكن هل مثلت موضوعات التماثيل عينها موضوعات الرسوم؟. الجواب: كلا.. فمعظم الدمى مثل امرأة بشكل كامل أو برأسها فقط. أما التماثيل الكاملة فيبرز فيها الثديان والورك، في حين كان الوجه يمثل دون تفاصيل. أما الرجال فتماثيلهم نادرة. وكانت المواد التي تصنع منها الدمى تتمثل بالطين والعظم والحجر والعاج أيضاً.

ما هي الأسباب وراء رسوم وتماثيل الكهوف؟

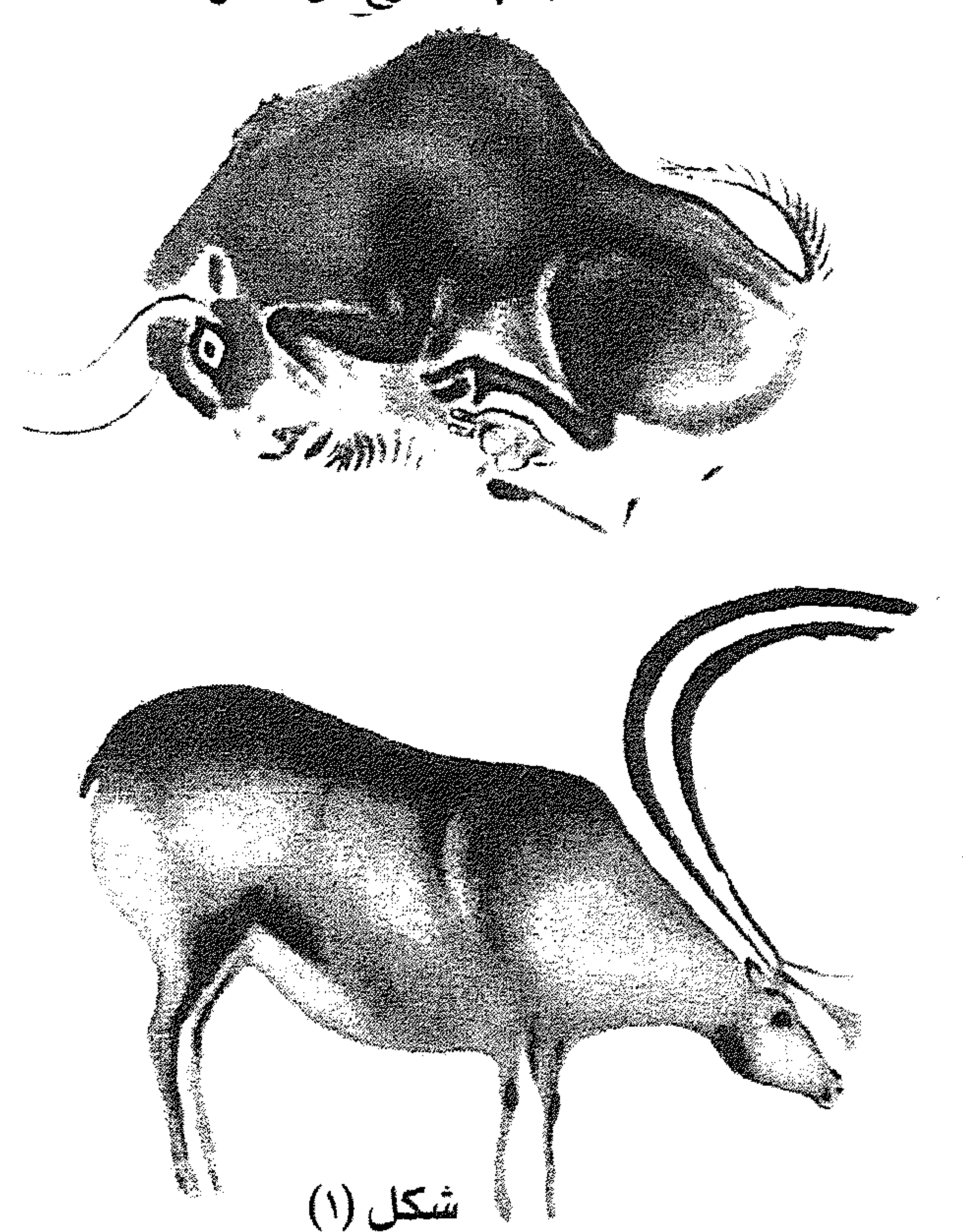
تعرفنا من السطور السابقة على بعض خصائص الرسوم والتماثيل ولم نتطرق إلى الأسباب الكامنة وراء تمثيلها.

عندما نتذكر بأن الرسوم المنجزة كانت تمثل الحيوانات التي استفاد منها الإنسان اقتصادياً، وإن النبات لم يكن يمثل، وأنها كانت تنجز في أماكن نائية عن مدخل الكهف وفي السقوف، نعلم بأن الغاية من عملها لم تكن فنية صرفه. ويمكن

أن نضيف ملاحظات أخرى عليها هو العثور على بعض الحفر على الرسوم بتأثير رؤوس رماح وجهت إليها، ويبدو أن ذلك ربما تم في رقصات سحرية، أضف إلى ذلك أن بعض السهام شوهدت مصوبة إلى أجساد بعض الحيوانات والدم ينزف منها كجزء من مشهد الصيد.

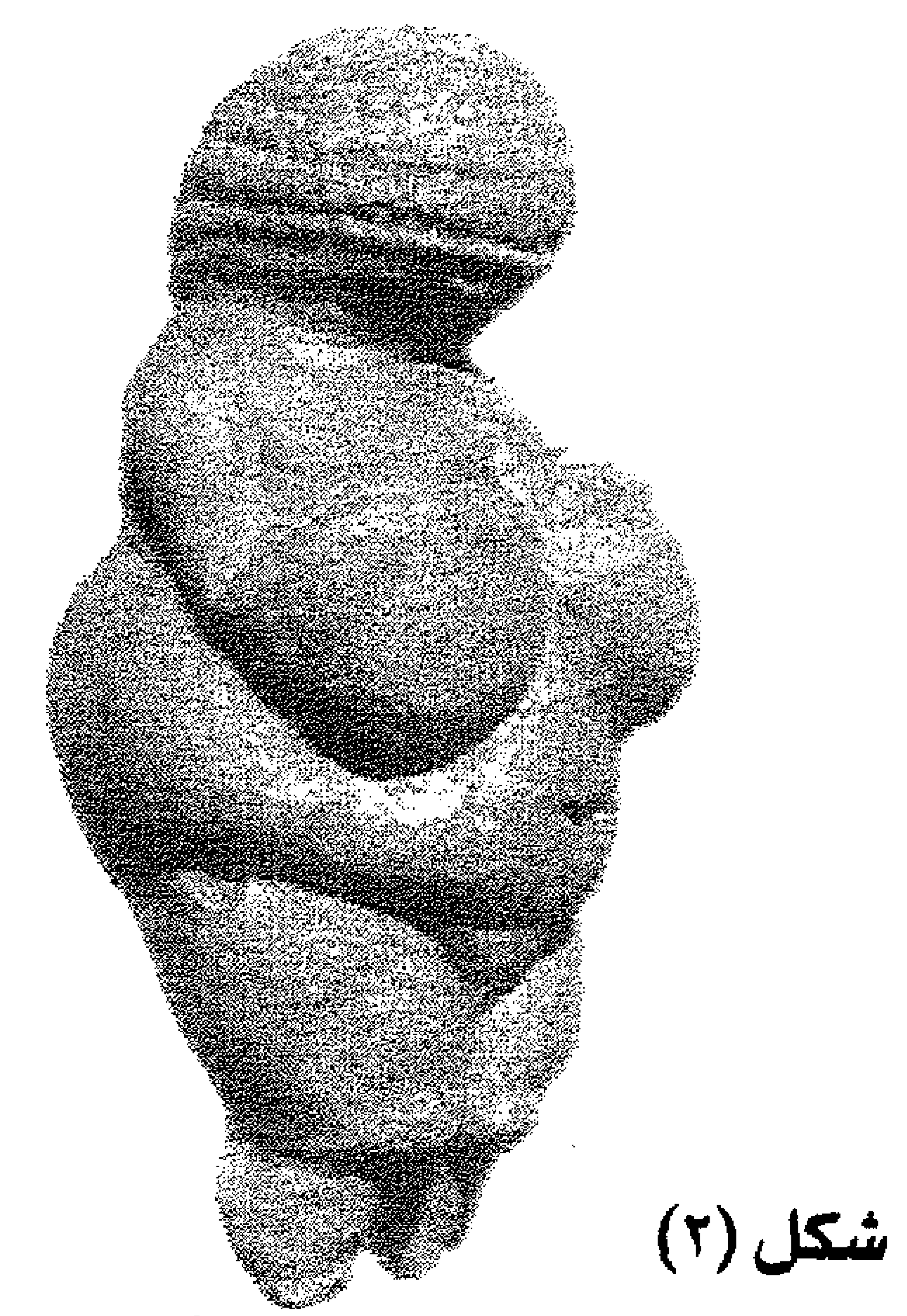
إذاً نستخلص مما سبق أن هناك غاية عقائدية واقتصادية من وراء تلك الرسوم والأعمال الفنية المشكلة. وعندما نوغل في تقصي أمر تلك العقائد نراها تتلخص في المبدأ الذي يطلق عليه العلماء اسم "السحر الانجذابي" أو "التعاطفي" الذي كان الأساس في معظم المعتقدات والطقوس التالية.

على أي حال، لم تكن الكتابة قد عرفت في عهود الكهوف، لذا فإننا حينما ننوي تقصي أسرار مجتمع قديم فإننا نلجأ إلى طريقة أخرى تقودنا إلى مقارنات مفيدة، فالمجتمعات المتأخرة حالياً ميدان خصب لهذا النوع من المقارنات.



شكل (١)

رسمان من رسوم الكهوف: الأعلى باللون والحزوز والأسفل باللون فقط. من العصر الحجري القديم الأعلى



شكل (٢)

تمثال صغير بوضع أمامي وجانبي، لآلهة أم من الفترة الأورغنيشية قبل نحو (٣٠,٠٠٠ سنة)، لاحظ التركيز على الصدر والبطن والورك بما يمثل الاهتمام بعناصر الإخصاب

لنأتِ إلى مثال يوضح لنا وجهة نظر بعض المجتمعات البدائية في إفريقيا أو الهنود الحمر والأسترالية، إذ لديها تصورات تخص الرسم. ومن تلك التجارب ما أشار إليه أحد الباحثين من أنه كان يقوم برسم مشهد في قرية وبضمنه الأبقار التي كانت أمامه، وما كان من أحد الهنود الحمر أن يعترض عليه قائلاً: "إني أعلم أن هذا الرجل قد وضع كثيراً من بقرنا الوحشي في كتابه ومنذ ذلك الوقت ذهبت عنّا أبقارنا"[١]!!. وهذا يشير إلى أن الإنسان البدائي لم يكن يميز بين صورة الشيء والشيء نفسه. كما أن هناك قبائل لا توافق أن يطأ شخص ظل شخص أخر على اعتباره أنه حامل لخصائصه. وبالتالي فإن الحالة الأخيرة تدلنا على أن الرسم ما هو إلا ظل الشيء وما يعمل عليه من تأثير سحري سيجعل التأثير نفسه يمتد إلى الشيء نفسه وبالتحديد إلى الحيوان الذي ينوي اصطياده، كما في أمثلة الكهوف. ومن الأمور التي لاحظها بعض الآثاريين أن أشخاصاً في الماضي تناولوا طعام بعض الحيوانات وغرسوا رؤوس رماح في عظامها، وذلك لأن التأثير على جزء من الحيوان يعني إمكان صيده في الحقل[٢]. ومن الواضح أن الإنسان كان يدرك بأن حيواناً واحداً بإمكانه أن يولد أجيالاً لا نهاية لها من الحيوان، من ثم فإن التأثير في عظام أحدها يعني إمكان التأثير على أخرى. أي أن التأثير على

الحيوان كان يتم بطريقتي الرسم أو على جزء منه، ضمن مبدأ السحر الانجذابي ضمن منطلق واحد. إلا أن التأثير على الأشكال والرسوم كان الأكثر.

يسمي الأخصائيون الحقب الطويلة التي سبقت بناء القرى فترات جمع الطعام، في حين دخل الاقتصاد مرحلة أخرى عند بناء القرى في الطور المسمى بإنتاج الطعام سواء الحيواني منه أو النباتي. وما أشرنا إليه يعني أن الصيد كان عماد إنسان الماضي. ومن الواضح أن الرجال كانوا يقومون بهذا العمل بشكل خاص، وربما كان الأمر يحتاج إلى فترات طويلة، ومن ثم فإن الأطفال الناشئين كانوا يرون النساء دون الرجال عموماً، وإن المرأة كانت تقوم بالأعمال الأخرى مما يجعلها المثل الأعلى بنظر الطفل، الأمر الذي دفع المختصين إلى أن يسموا هذه الفترة بفترة سيطرة الأم. لذا يرى البعض أن وجود التماثيل الأنثوية يبرر هذه التسمية.

لقد أشرنا في السابق إلى أن الغاية من رسوم الكهوف هي ليتمكن الإنسان من صيد الحيوان في الحقل. أما غايته من عمل التماثيل فعلى العكس من ذلك إذ كان يعتمد على مبدأ الاعتزاز بالتمثال وتقديسه والعناية به لا التأثير السلبي، والتخريبي عليه كما هو الحال في الرسوم. ومن الجلي أن الإنسان لاحظ بأن الإناث هن العنصر الأساسي في إدامة الحياة وحاملات لسمات استمرارها، لذلك فإن تقديس ما يمثل المرأة يعني استمرار الحياة وإغداق الخير على المجتمع. وهذا ما يفسر الاهتمام والتأكيد على عمل الثديين ضخماً وكذا الورك والبطن لأن هذه تمثل الأجزاء المحفزة على الاستمرار في الحياة حسبما افترضوا.

نقلة مهمة إلى العصر الحجري الحديث

حين استقر الإنسان في قرى أقامها لأول مرة في العالم في شمالي العراق، استمر في عادة صنع الدمى الأنثوية من الطين بعين مواصفات دمى الكهوف.

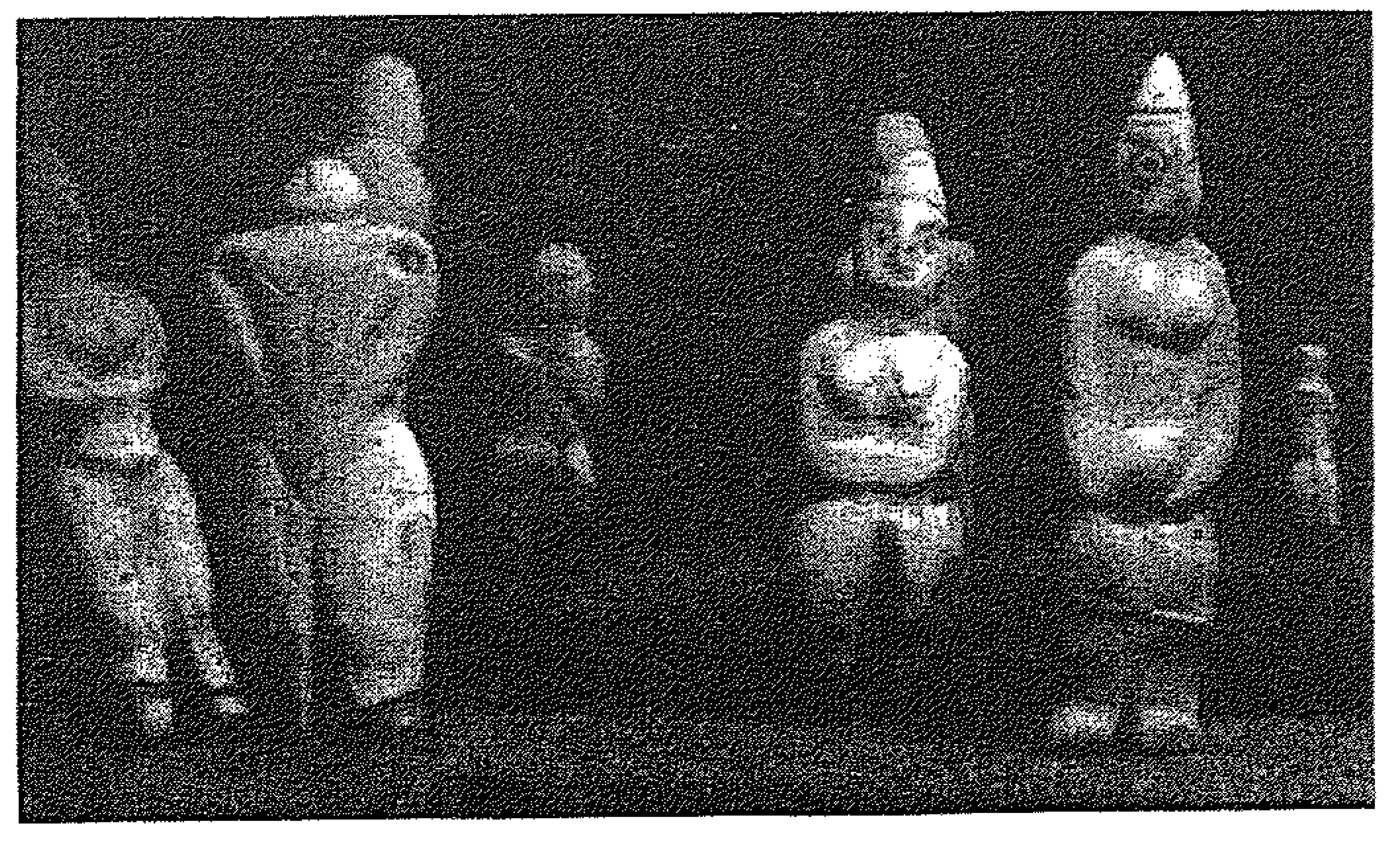
بدأ العصر الحجري الحديث في العراق قبل نحو عشرة آلاف سنة، وقد أدت تربية نماذج مختارة من الحيوان وانتخاب أصناف معينة من النباتات لزراعتها إلى استقرار الإنسان اجتماعياً واقتصادياً بشكل تدريجي. وقد خلق هذا النمط من العيش المجال أمام الإنسان للتأمل لإيجاد مخارج جديدة في فهمه للكون ولو بمواصفات بدائية ولغة بسيّطة

ساذجة. فمن الواضح أن انتقال الإنسان إلى عالم الزراعة، ثم التركيز عليها في فترات تالية، أدى إلى إيجاد مفاهيم اعتقاديه جديدة لا تخص عالم الحيوان، عماد حياته في الماضي، بل الزراعة بشكل خاص. ونحن نعلم في عالم المعتقدات أن التغيير والتحوير فيها ليس أمراً بسيطاً لأن المعتقد كثيراً ما يسير في دم الإنسان، وإن كان بعيداً عن القيم أحياناً، إلا أنه مهم ما دام يلبي حاجات الإنسان ويجعله يستمر في الثقة بنفسه أو أطماعه. لذلك كان من الممكن أن تتحول الدمى الأنثوية للنساء من مفهومها البشري لتتجسد الأرض فيها، ما دامت الأرض قد أمست عنصر إنتاج بما يبعث على الاستمرار في الحياة، وبالتالي أمست الأرض أمّه التي تؤويه. وليس غريباً أن نرى بأن العلامة الخاصة بالأم في الكتابة المصرية القديمة، هي عينها التي استخدمت للتعبير عن المدينة[٣].

بممارسة الإنسان للزراعة كانت الحاجة ملحة إلى تقويم يضبط فيه المراحل التي يمر بها الزرع ولا سيما النباتات الحولية والموسمية. لقد كان بديهياً اختياره كدليل في تقويمه، إلا أن ضبط دورة سنوية قوامها (٣٦٥) يوماً يضاف لها ربع يوم كان من الأمور الصعبة، لذلك كانت الأهلة ما استعان بها في تدبير أمور حياته أول الأمر، لأنه من السهل حساب ظهور أثني عشر هلالاً متتابعاً في أدواره المختلفة حتى صيرورته بدراً ثم انمحاقه ليظهر ثانية. وعلى أي حال، إننا نرى آثر التقويم القمري واضحاً في السنة السومرية – البابلية، فعلى الرغم من اعتماده الشمس إلا أنه يبدأ بإطلالة أول هلال في الشهر الذي كان يحدث الاعتدال فيه كبداية للربيع عبر المسيرة الحضارية لتراثنا العريق رأى سكان العراق القديم أن تقديم الخضوع والطاعة للآلهة الأرض، التي جسدوها بشكل امرأة، لا يكفي لإدامة الخير وإنعاش الزراعة وبالتالي الحيوان، فقد رأى المواطن في الماضي أن الشمس في كل يوم وعام لا تتغير، وكذا الأرض. لذا كان يتساءل عن السبب في حصول التغير في الإنتاج كل عام سواء ما يلاحظه من تغيير في كمية المطر ومناسيب مياه الأنهار أو انتشار الأوبئة. ومن الواضح أن التشكيك في قدرة الآلهة الأم (الأرض) كان مبعثاً لتوجه المواطنين القدامى إلى عبادة قوى أخرى غير الأرض، فيبدو أنهم توجهوا إلى الشمس والقمر، وحينما وجدوا ذلك لا يكفي توجهوا لعبادة كواكب سيارة أخرى كالمريخ والزهرة ثم عطارد والمشتري وزحل. ومن الواضح أن انتقال الآلهة من الأرض إلى السماء خطير ومهم، لأن منطلق الأديان التالية كان يتجه نحو عبادة آلهة خفية تسكن السماء مع

الكواكب. وكأمر طبيعي إن الذين قادوا حركة التغيير الديني لاقوا صعوبات في تغييرهم هذا. وما نراه أنه على الرغم من إيجاد تسميات ومواصفات للكواكب السيارة كآلهة فإنها جميعاً كانت "مذكراً" باستثناء الأرض والزهرة. ومن الواضح أن عبادة إله أو كوكب سيار معين كانت منزلته مختلفة من مدينة إلى أخرى، والسبب في ذلك أن اتخاذ مدينة ليكون كوكبها الدليل كان يعتمد على حسابات معقدة في عالم العقيدة التي كانت تعتمد بشكل مركز أكثر كلما طال الزمن على حسابات الفلك المرتبطة بالتنجيم. ولما كانت طباع الكواكب والأبراج مختلفة فإن علاقات المدن والأقطار مع بعضها مختلفة هي الأخرى، وإن القرانات الكوكبية سواء كانت سعداً أو نحساً تقرر الحوادث المستقبلية. ومن الواضح أن تقديم الصلوات والقرابين وأداء طقوس معينة كان فيها ما يمكن لأن يدرأ الأخطار المحدقة ببلد أو مدينة معينة ولا سيما حينما يكون هناك كسوف أو خسوف أو علاقات كوكبية غير مرغوب بها.

ومما مضى نستنتج أن الأعياد والمناسبات كانت تقوم بناءً على حسابات دقيقة وكانت الغاية منها إحداث تغييرات في احداث المقبل من الأيام أو تجنب أخطار معينة لإحلال الفال الحسن. ومن الواضح أن إحداث أثر إيجابي في عطاء الطبيعة كان الغاية الأساس لعديد من الاحتفالات والأعياد ولا سيما الاحتفال بأيام الربيع ما دامت المنطلق والبداية لسنة جديدة التي ينبغي أن يكون فيها كل شيء جيد لعكس استمرارية الخير الدائم. وفي إطلالة الربيع ما يجلب الانتباه حيث اعتدال الجو وازهار الطبيعة، وموسم ولادة كثير من الحيوان.



شكل (٣)

تماثيل صغيرة من الرخام وجدت في تل الصوان قرب سامراء وهي ذات دلالات عقائدية وتمثل نساء. (تعود لنحو ٧٠٠٠ سنة مضت)



شكل (٤)

تمثال للآلهة الأم وهي ترضع صغيرها وعلى الكتفين يظهر ما يمثل البذور، وجدت في جنوب العراق وتعود لنحو (٦٠٠٠ سنة مضت)

الهوامش

١. الباشا، حسن، تاريخ الفن في عصر الإنسان الأول، مكتبة النهضة، مصر ١٩٥٤، ص ٥١.

٢. وقد لوحظ مثل هذا التقليد في آثار الاتحاد السوفيتي. راجع:
Mongait, A. L.; Archaeolagy in USSR, Pelican Books, p. 97.

٣. مفورد، لويس، المدينة على مرّ العصور، (مترجم بإشراف د. إبراهيم نصحي)، القاهرة، ١٩٦٤، ج/١ ص/٢١.

تموز وعشتار
في الفكر العراقي القديم

تحتل أسطورة تموز وعشتار مكان الصدارة في أدب العراق القديم لما فيها من عنصر الإثارة وأحداث جميلة، الأمر الذي أدى إلى كونها نواة لقصص شبيهة في أنحاء العالم القديم. لذا فإن الفصول التالية ستعرض علينا استمرار تلك القصة لإعطائها الأبعاد الواضحة على ربط الماضي بالحاضر. وقد لا يأتي على بال الكثير منا أن شخصية "كاوه الحداد" في الفكر الكردي، إن هي صيغة واضحة لشخصية تموز العراقية القديمة.

إن هذه السطور تعرفنا على حقيقة قصة تموز وعشتار ومضمون كل فقرة مهمة فيها.

القصة:

الربيع تلك الومضة المجددة للحياة، وميقات ما يتبعه من فصول، كان المحرك الأساس لخيال الإنسان العراقي القديم لاعتبارات جمالية واقتصادية.

وإذا كنا اليوم نعرف أسباب تتابع الفصول فإن أبناء وادي الرافدين لم تكن لديهم معرفة بانحراف محور الأرض ودورانها حول الشمس، لذا تفتق خيال العراقيين الخصب ليسوغ تبادل الفصول من خلال قصة طريفة بطلاها إلهة وإله: اينانا (عشتار) ودموزي (تموز)[1]، اللذان انعكست أحداث حبهما على الأرض لتشكل الربيع وبقية الفصول.

وعلى الرغم من طرافة هذه الأسطورة وروعتها، إلا أن أياً منا قد يسأل عن أسماء واضعيها. فلا يجد لذلك جواباً.

عندما نتكلم عن أسطورة تموز وعشتار ينبغي أن لا نفكر بوجود نصوص متتابعة متكاملة سهلة القراءة أو تعود كلياً لزمن واحد. ويمكننا إدراك المصاعب إذا ما عرفنا أنهم كانوا يكتبون على الطين. فقطعة الطين الواحدة لا يمكنها أن تحوي إلا على المحدود من الأسطر تكملها قطعة أخرى. العمل إذن شائك وصعب. وكثيراً ما توجد قطع في متحف معين تكملها أخرى في متاحف متباعدة. ومن الواضح أن استمرار نسخ وتداول الأسطورة وتغير الأحداث السياسية والمستوى الاجتماعي قد ترك آثاره على القصة المثيرة التي ابدعها الفكر العراقي آنذاك. وعلى أي حال. يمكننا اليوم أن نتتبع ومضة تلك الأسطورة في حياتنا. وما احتفال إخواننا الأكراد اليوم بالنوروز (أي اليوم الجديد) إلا انعكاس لما كان يفعله العراقيون القدماء، ونستطيع أن نتلمس ذلك في التسمية السومرية (زاكموك) وكذلك الأكادية "ريش شاتي" (رأس السنة). إنه الربيع محرك المشاعر وباعث الأمل.

الاسطورة:

في الوقت الذي لا نجد فيه نصوصاً متتابعة عن أسطورة تموز وعشتار فإنه يمكن أن نضع تتابعاً لأحداثها كالآتي:

خفق قلب الراعي (دموزي) عندما رأى إينانا (عشتار، كوكب الزهرة، إلهة الحب والجمال) فما كان منه إلا أن توجه إلى "أتو" إله الشمس أخيها طالباً يدها. وإذ يقتنع "أتو" بشخصيته فإنه يحاول إقناع شقيقته باستعراض لطيف قبل إخبارها بالموضوع مباشرة[٢]. على أي حال، كانت إينانا تحب شخصاً آخر يدعى "أنكي أمدو" الذي كان يمتهن الفلاحة. وحسب رأي الإلهة الجميلة فيه من البركة والمزايا ما يجعل "المخازن تتكدس بالحبوب" أما انطباعها عن دموزي الراعي فيجسده قولها لأخيها أوتو:

أنا، لا لن أتزوج من الراعي

وثيابه الخشنة لن أرتدي

وبصوفه الخشن لن أقبل

أنا العذراء، سأتزوج من الفلاح

الفلاح الذي يزرع من النبات أنواعاً

الفلاح الذي يزرع من الحب أنواعاً

"أنكي – أمدو" أخذ يهدئ من روع دموزي وعجب لما يغضبه وبسذاجة الفلاح وكرمه، عرض على دموزي أن يرعى ماشيته في حقوله. هكذا أصبحا صديقين.

وأخبر الراعي رفيقه الجديد بما هو عازم عليه وإنه سيتزوج بإينانا وبطبية الفلاحين وعده بالحضور وبجلب ما يناسب الحفل الكريم.

ومن حقنا أن نتساءل هنا ما الذي جعل الشاعر السومري يضع شخصيتين – متناقضتين في موضوع واحد؟

يمكننا أن نتلمس الجواب في طبيعة الصراع بين خشونة البداوة التي يمثلها الراعي ولياقة الفلاح المتأقلم ضمن نطاق المدنية والذي لم تعد الومضات الآنية لتعني له مصيراً محدوداً كما هو الأمر بالنسبة لتفكير الرعاة الذين يفتشون عن مغامرات مؤقتة تفضح عما بداخلهم من قلق دائم تجاه مصيرهم في الوجود.

تتسم طبيعة المرأة بحبها للاستقرار والاحتفاظ بمن تحب. إلا أن إينانا كانت تختلف، على ما يبدو عن معظم النساء، فالنصوص السومرية والبابلية والآشورية للأسطورة توضح أنها تركت عالمها العلوي لتنزل إلى عالم رهيب، ولا علم لنا بالسبب الذي أقدمت من أجله على ذلك. ولكن ربما كان ذلك يعني أن الحياة لا تتكون من الجلوس في برج عاجي بل بتفاعل الأعلى بما هو أدنى.

إننا نفهم من الأسطورة السومرية أن عشتار كانت على علم تام بما سيجري لها وهي تهبط إلى العالم الأسفل وذلك من خلال حوارها مع وزيرها "تنشوبر".

يارسولي ذا الكلمات الصادقة
إنني نازلة الآن إلى العالم السفلي
وعندما أصل إلى العالم السفلي
فأقم علي المناحة في الخرائب
وأقرع الطبل من أجلي في قاعة المعبد
وطف من أجلي في بيوت الآلهة إلخ.

ثم تطلب الإلهة من الوزير أن يقصد معابد الآلهة العظام ليخاطبها هناك إنليل (إله الهواء)

بمدينة نفرّ، ننا (إله القمر) بمدينة اور، ثم إينكي (إله الحكمة) في مدينة اريدو، طالباً منهم حماية عشتار عند وجودها في ذلك العالم. تتجه عشتار إلى العالم الأسفل وتلتفت إلى وزيرها مؤكدة:

إلا أن تموز ينبري للدفاع عن نفسه قائلاً:

الفلاح أكثر مني! الفلاح أكثر مني!
أنكي – أمدو رجل القنوات والسدود والمحاريث
الفلاح أكثر مني ما الذي عنده أكثر مني ؟

خاطره "كان كافياً" لجعل قلب عشتار يميل إلى دموزي. لقد جعل الشاعر السومري من ذلك منطلقاً تسير منه الأمور لصالح الراعي الذي ما تلبث أن تلتقي به عشتار لقاء الأحبة!

اللقاء الساخن بين إينانا ودموزي أفاض مشاعر الإلهة بالقول:

عندما كنت أغني مع اطلالة النور
آنذاك التقي بي، آنذاك التقي بي
سيدي كولي – أنا (دموزي) التقي بي
سيدي وضع يده بيدي.

أثناء ذلك اللقاء المثير شعرت إيناناً بمرور الوقت، وتبعاً لذلك خافت تقريع أمها لها، لذا توجهت بالسؤال إلى عشيقها الجديد عن حيلة تخلصها مما هي فيه وبذكاء أجابها دموزي بذات العذر الذي تتذرع به الفتيات:

قولي لها أخذتني صديقتي معها إلى الساحة العامة
ومتعتني هناك بالموسيقى والرقص
وغنت لي أغنيتها العذبة
وفي غمرة الفرح فات عليّ الوقت
بهذا العذر واجهي أمك!!

ثم تذهب إينانا إلى والدتها لتخبرها بنبأ خطبة دموزي لها. ويبر الأخير بوعده، ويقصد دار إينانا ليدخلها بعد استعدادات خاصة.



شكل (٥)

مشهد تظهر فيه آلهة عراقية قديمة قبل ٤٣٠٠ سنة وفي الوسط يظهر (تموز) يقطع الجبال بمنشاره مشرقاً ليعلن الربيع، وإلى اليسار الآلهة عشتار ترفرف بجناحيها ويظهر إلى اليمين الإله أيا إله الماء وينبع من كتفيه نهرا دجلة والفرات. والملاحظ هنا أن تموز ظهر بمواصفات إله الشمس الذي يحيا في النهار ويموت ليلاً، أي بدورة تموزية مصغرة.

بين الطبيعة والمنطق

كان دموزي يسرح بماشيته على ضفاف النهر عندما تسوقه الأحداث للتعرف على "أنكي – أمدو" غريمه. لقد ساورت الراعي الرغبة في الاعتداء على الفلاح وبدا عليه الغضب إلا أن

أذهب يانشوبر،

ولا تهمل ما أمرتك به،

ثم تصل الإلهة إلى القصر، إلى جبل اللازورد، وكان عليها أن تجتاز سبع بوابات تطيع عند كل منها أمراً خاصاً يتعلق بما ترتدى من تاج وأساور وغيرها، بل حتى ما يسترها في الباب السابع. كما كان على إينانا في كل مرحلة ألا تعترض فتلك نواميس العالم الأسفل.

عندما تجتاز عشتار الباب الأخير تقف وجهاً لوجه أمام ملكة العالم السفلي أيرشكيكال، أختها التي كانت تجلس على العرش وأمامها قضاتها السبعة تقول الأسطورة:

"فصويت نظراتها إليها، نظرات موت ثم حولت الفتاة العليلة إلى جثة هامدة". بعدها يشرع ننشوير باستغاثة الألهة الواحد تلو الأخر حتى يصل إلى أينكي الذي يعمل ما يستطيع لإعادة الحياة إلى عشتار بطعام وماء الحياة.

عند وجودها في العالم السفلي، ولأنها إلهة الجنس فقد ألمت بالأرض أمور خطيرة. لقد "ابتعد الثور عن أنثاه" و"هجر الرجل زوجته"(٣)، هذا ما تذكره نسخة آشورية. تنهض عشتار بعد رش ماء الحياة ونثر طعام الحياة على جسدها إلا أن قضاة ايرشكيكال السبعة يضعون شرطاً لخروجها من عالمهم قائلين:

"دعها تقدم شخصاً بديلاً عنها".

ترى من سيكون البديل؟

لقد خرجت عشتار من ذلك العالم الغريب تصحبها الرهبة، والخوف من الشياطين الذين صاحبوها. وعندما أوصلوها إلى الطريق المؤدي لمدينتها تقع أعينهم على ننشوير الذين أرادوه بديلاً يأخذونه إلى عالمهم، إلا أن عشتار تعدد لهم خصائله ومحامده لمنعهم من أخذه. ثم يواصل الشياطين والآلهة مسيرتهم إلى مدينة أومّا(٤) حيث مقر الإله "شارا"، وهنا يحاول الشياطين أخذه بديلاً، إلا أن عشتار تعترض محتجة، فهي تحرص على هندامها وتسريحتها أنه "حلاً قي". يبحثون عن بديل جديد، تبدو عشتار معترضة محتجة.

لقد كان الحظ حظ تموز العاثر، فقد وجدوه عند شجرة تفاح، فأمسك به الشياطين "فلم يعد الراعي يعزف الناي ولا المزمار".

ثم يقول النص السومري:

"وهكذا أعطت إينانا المقدسة دموزي الراعي بأيديهم". وأخذ المسكين يستغيث رافعاً يديه إلى السماء صوب "أتو" إله الشمس، قائلاً:

أنا من يحمل السمن إلى بيت أمك.

أنا من يحمل الحليب إلى بيت ننكال

فحّول يدي إلى يدي أفعى

وحوّل قدمي إلى قدمي أفعى

ودعني أهرب من الشياطين ولا تدعهم يمسكونني.

إلا أن هروب دموزي المؤقت لم يكن ليغنيه عن المصير المحتم شيئاً. يقول النص السومري:

"فألقوا القبض على دموزي في الحظيرة المقدسة للأغنام".

نعم. إنها ضريبة الحب ومصير بعض العاشقين. أو ليست السعادة أمراً طارئاً في الحياة؟ إنها الهدنة لحرب جديدة دوماً.

بروح الرعاة الحساسة المترقبة كان دموزي يعلم علم اليقين أن ما من أفراح تمر دون مصير مؤلم. فكل مهنة تحدد شخصية صاحبها، فهذه أغنامه الجميلة تمرح في حقولها ولكن سرعان ما تسلم أرواحها للإنسان، وربما نستلم هذا المغزى من الشاعر السومري، على لسان دموزي، الهائم في المروج:

أقيمي المراثي، أقيمي المراثي

أيتها المروج، أقيمي المناحة، أقيمي العزاء.

ثم يقول متأسياً على الربيع:

ولتذرف عيناي الدموع على المروج مثل أمي

ولتذرف عيناي الدموع على المروج مثل أختي الصغيرة.

إسطورتان ومنطق مختلف:

لكي نعطي لأسطورة تموز وعشتار صورة ذات معالم واضحة نقارنها بقصة عراقية رفيعة هي قصة "جلجامش" بطل مدينة الوركاء (أوروك) وملكها.

إن من يمعن النظر في أسطورة تموز وعشتار يرى أنها تؤكد شخصية المرأة التي تحتل الركن الأساس في الحدث، بل إنها تسوق من تحب إلى عالم الأهوال، أما في الثانية فإن جلجامش الرجل هو العصب الفعلي، كما أن "انكيدو" زميله، هو كذلك رجل، ولا تؤدي المرأة دوراً كبيراً في الأحداث. غير أننا نفهم من تتابع الأمور أن قصة تموز وعشتار أكثر قدماً من قصة جلجامش، كما أن من يقرأ الأولى يجد أنها تتألف في الأصل من أحداث كانت متناثرة بالأصل وجمعتها الحقب التالية وألفّت بين أحداثها بما يناسب طور جمعها والنضج الذي وصل إليه المجتمع آنذاك. إن ما يمكن قوله ببساطة هو إننا نرى في شخصية عشتار امتداداً لعهد كانت المرأة فيه تتمتع بمنزلة مرموقة اعتباراً من عهود الكهوف وعهود العصر الحجري الحديث الذي بدأ في بلدنا منذ نحو عشرة آلاف سنة. إن ما تخبرنا به التنقيبات هو أن الدمى الأنثوية، دون الرجالية، هي التي قدسها الإنسان وتقرب إليها منذ عهد الكهوف، وكذا خلال العصر الحجري الحديث، الذي شهد بداية الزراعة وتدجين الحيوان وبداية الاستقرار في قرى متواضعة. في حين لا نرى للرجل أهمية مماثلة. وربما يكمن السبب في الاعتقاد بأن المرأة، والأنثى عموماً، هي العامل الأساس في استمرار الحياة. ويتبنى جملة من أهل الاختصاص رأيا مفاده أن خروج الذكور إلى الصيد وبقاء النساء وأطفالهن في الكهوف جعل من المرأة رمزاً مسيطراً مما دعا بالتالي إلى تأليهها، وما دخول تموز عالم الحدث في قصته مع عشتار إلا إشارة لولوج الرجل بصورة تدريجية في المعتقد مع عدم فقدان الألهة لمكانتها.

أما في ملحمة جلجامش فإن الرجل هو سيد الموقف كما تجسده أحداثها بل وتخبرنا به مقدمتها:

هو الذي رأى كل شيء فغني بذكره يا بلادي

وهو الذي عرف جميع الأشياء وأفاد من عبرها

وهو الحكيم العارف بكل شيء.

بعدها يأتي الشاعر السومري إلى أمر مهم يحدد لنا من خلاله بصورة تقريبية الزمن الذي عاش فيه جلجامش قبل نحو ٤٧٠٠ عام. قال الشاعر:

بنا أسوار "أوروك" وحرم "أي – أنا" المقدس والمستودع الطاهر، فأنظر في سوره الخارجي تجد شرفاته تتألق كالنحاس.

ثم تأخذنا القصة إلى استعراض مغامرات جلجامش وصديقه أنكيدو وما لقياه من مخاطر. بعد عودتهما يغتسل جلجامش ويرتدي أفخر الثياب، يقول الشاعر السومري:

رفعت عشتار الجليلة عينيها ورمقت جمال جلجامش (فنادته) "تعالى ياجلجامش وكن عريسي الذي اخترت". ثم تعدد ما ستقدمه له من الذهب واللازورد والخيول.

إن العصر الذي عاش فيه جلجامش كان عصر مدينة واضحة المعالم، اتسمت فيه سطوة الرجل ومن ثم مكانته في عالم الأسطورة. وتبعاً لذلك بدأت العبودية والاستغلال ثم الحروب التي استدعت أن يكون هناك بطل يقود مدينته ثم ليتمرد على عشتار سيدته. لقد رد جلجامش عشتار على طلب الزواج منه بالقول:

ماذا عليّ أن أعطيك لو أخذتك (زوجة)
هل سأعطيك السمن والكساء لجسدك؟
وأي أكل وشراب سأعطيك مما يليق بسمة الألوهية؟

ثم يقول:

أي خير سأناله لو أخذتك؟
أنت ما أنت إلا الموقد الذي تخمد ناره في البرد
أنت كالباب الخلفي لا يحفظ من ريح ولا عاصفة
أنت قصر يتحطم في داخله الأبطال
أنت فيل يمزق رحله
أنت قير يلوث من يحمله
أنت قربة تبلل حاملها
أنت حجر مرمر ينهار جداره
أنت حجر "يشب" يستقدم العدو ويغريه
وأنت نعل يقرص قدم منتعله.

وبعد هذا التقريع يأتي جلجامش إلى بيت القصيد فيقول:

أي من العشاق الذين اخترتهم من أحببته على الدوام؟
وأي مـــن رعاتـــك رضـــيت عنـــه دائمـــاً؟
تعـــالي أقـــص عليـــك (مآســـي عشـــاقك)
مـــن أجـــل تمـــوز حبيـــب صـــغرك (صـــباك)
قضـيت بالبكـاء والنـواح عليـه سـنة بعـد سـنة.

ثم يستمر جلجامش في تعداد من أطاحت بهم عشتار الواحد تلو الآخر ويستخلص من ذلك أنه لو أحبها لكان مصيره مثل مصيرهم.

ثم يقول الشاعر السومري:

ولما سمعت عشتار هذا استشاطت غضباً وعرجت إلى السماء،
صـــعدت عشـــتار ومثلـــت في حضـــرة أبيهـــا "آنـــو"
وفي حضـــرة أمهـــا "أنـــتم" وجـــرت دموعهـــا وقالـــت:
يـــا أبـــي إن جلجـــامش ســـبّني وعـــدد فحشـــائي وعـــاري
ففـــتح "آنـــو" فـــاه وقـــال لعشـــتار الجليلـــة:
أنـــت الـــتي تحرشـــت فجنيـــت الثمـــرة
وعـــدد جلجـــامش فحشـــاءك وعـــارك[٥]!!

ترى هل كان بإمكان جلجامش أن يتطاول على عشتار لو عاش في فترة سبقت عهده؟

زواج الربيع يصبح طقساً

ليست القصة التي تحدثنا عنها مجرد أحداث يسردها قصّاصون على مسامع الناس، لقد كانت قوام أحاسيسهم وارتباطهم بالحياة فقد أملت عليهم طقوساً شغلت بالهم عبر آلاف السنين، فلم يكن الربيع ليعني الخضرة الطاهرة والنماء المتدفق الذي

يخرج لهم من الأرض كما يخرج دموزي بالضبط، وإنما كان إلى جانب ذلك يقترن بكثير من الطقوس.

في شهر نيسان من كل عام، ومع إطلالة أول هلال كانت تبدأ المراسيم، مراسيم الزواج المقدس الذي كان يقوم به كاهن وكاهنة، أول الأمر، ثم ملك وكاهنة عندما تغير موقع الحاكم واستلم السلطتين الدينية والدنيوية.

لقد تجلى هذا الزواج بصورة خاصة في عهد سلالة أور الثالثة قبل نحو أربعة آلاف عام، وكانت الغاية من إقامة هذا الطقس السحري إحياء الأرض بعد موتها، وفي العصر البابلي الحديث، قبل أكثر من ٢٥٠٠ عام كان الإله "مردوخ" إله بابل الكبير البديل عن تموز، وكان الإله "نابو" إله مدينة بورسبا، القريبة من بابل، هو الذي يقوم بتحرير أبيه من عالم الأسر والضياع، وضمن طقوس معقدة يعثر على الإله ليعم الفرح والسرور وليحل الربيع.

السيطرة على الطبيعة كانت الغاية:

ما الذي ينبغي أن يتوفر في الأسطورة لتكون مقبولة لدى عامة الناس؟ اعتقد أنه ينبغي توفر شرطين أساسيين:

١- أن تستوعب السالف من المعتقد الذي يضم خبرات ومشاعر امتدت لآلاف السنين. وبعبارة أخرى أن تضمن استمرار القديم في الجديد.

٢- أن يسقط واضعها ذات الإنسان لتمثل الحدث.

فهل حوت قصة تموز وعشتار هاتين النقطتين؟

إن أسطورة تموز وعشتار تجمع الصراع بين المعتقدات القديمة وتوجد لها تخريجات طريفة، فلماذا تنزل الآلهة إلى العالم السفلي رغم معرفتها بمخاطره؟ ولمَ تضحي بتموز عشيقها وزوجها؟ إنه تفسير لقوة المرأة في المعتقد منذ عهود الكهوف وبداية المدينة، في حين لم يحصل الرجل على التأليه إلا بعد فترة طويلة من سيطرته على زمام الأمور، كما أسلفت، ومع ذلك بقي تموز ضعيفاً أمام سطوة عشتار. إنها تسوية بين القديم والأحدث.

إذا ما أتينا إلى الغاية السحرية من إقامة طقوس تموز ثم مردوخ ورثائه، ثم القيام بطقوس الزواج المقدس فإننا سنجد أن علم الفلك يعيننا على تفهم ذلك.

نحن نعلم أن الشمس تدخل برج الثور في شهر نيسان، ذلك البرج الذي هو واحد من اثني عشر برجاً، ولكل منها كوكبه الدليل، والزهرة هي الكوكب الدليل لبرج الثور، وكما أسلفت إن الاحتفال الرئيس يكون بظهور أول هلال خلال تلك الفترة. فالشمس والقمر، وكذا الزهرة في موقع يجعل كلا منهما يهب الحياة، ولكن يجدر بنا أيضاً أن نفهم السر في إقامة تلك الطقوس.

إن مبدأ محاكاة الشيء للحصول على قوته وفاعليته كان الغاية من وراء إقامة طقوس الزواج المقدس، فدخول الشمس برج الثور، برج عشتار (كوكب الزهرة) هو ما ينبغي الاحتفال به. ولكن هل يكفي أن يحدث ذلك في السماء؟ وما الذي ينبغي الإنسان ليستفيد منه في موقعه؟ لقد افترضوا أن على القوى المقدسة على الأرض أن تحاكي ما يحدث من اقتران علوي بين الكواكب لعكس الخير والرفاه على الأرض كما هو في السماء، فدخول الشمس برج كوكب الزهرة قران سماوي ينبغي أن يكون له ما يمثله على الأرض للاستفادة من فاعليته لإخصابها.

لقد مارست شعوب عديدة ما يطلق عليه " مبدأ المحاكاة " الذي يبرز بشكل واضح في المعتقدات الطوطمية والتي تتلخص أفكارها في اتخاذ الفرد والأسرة ثم العشيرة أو مجموعة من العشائر رمزاً معيناً نباتياً، أو أي رمز آخر. ويمكن للقبيلة التي تتخذ الديك رمزاً لها أن تحصل على قوة طوطمها في تقليد شكله الظاهري وحركاته. وبعبارة أخرى اعتقدت شعوب كثيرة أن تقليد شيء أو حدث معين يحقق ذات الشيء المرغوب الحصول عليه، وهو على أي حال، ضرب وممارسة لمبدأ السحر الإنجذابي.

تموز يمسي رمزاً

في أسطورة تموز وعشتار تفسير لمنطلقات الطبيعة ضمن مفهوم فلسفي أسقط ذات الإنسان كمحرك لأحداث الطبيعة. وهو الشرط الثاني الذي يضمن استمرار أسطورة معينة، إلا أنها لم تكن قصة تسرد في مناسبات معينة وإنما تبريرات تفاعلت مع الفكر العراقي لبضعة آلاف من السنين. فها هو شهر تموز في تقويمنا يحمل اسم عشيق عشتار إذ يمثل شهر الحر وموت الحياة، ففيه ينزل تموز إلى العالم الأسفل ليجذب الخصب والنماء إليه. وعلى أي حال، هناك فرق زمني (حوالي أسبوعين) بين تموز

الشرقي وتموز في تقويمنا. ففي التقويم الشرقي يبدأ بعد أسبوعين من بدايته في التقويم الحالي ويستمر إلى منتصف آب، وبذلك يمثل تموز الشرقي قمة الحر القاسي الذي كان يتطلب من العراقيين القيام بطقوس معينة للحفاظ فيه على توازن الطبيعة واستمرار الحياة. لقد كانوا يقيمون العزاء والحزن الجماعي لموت الإله ضمن طقوس صعبة كبداية لإنقاذه من أسره ليعود النماء مرة أخرى. ولكن كم هي الفترة التي يستغرقها بقاء تموز في عالم الأسر؟

لقد جرى نقاش طويل حول هذا الموضوع، ولأن النصوص التي وصلتنا غير كاملة فقد التبس الأمر على ذوي الاختصاص، إلا أن الجدل سرعان ما خمد، إذ إن سطرين مسماريين غيرا في الأداء. إفادة النص:

أنت (يا دموزي) لنصف السنة

وأختك (كشتن – أنا) لنصف السنة

وبموجب ذلك اقتسم دموزي فترة مكوثه في عالم الأسر مع (كشتن – أنا) أخته ستة أشهر لها وستة أشهر له، وهذا يعني أن تموز يبدأ بالخروج في نهاية كانون الأول في تقويمنا وبحلول الشتاء تبدأ الأمطار بغسل خطايا أهل الأرض وتبعث الأمل في التربة لضمان شروق كامل وإطلالة فاعلة لتموز ليحل الخير والربيع، وكان لزاماً على القدامى أن يؤدوا طقساً خاصاً بذلك يبحثون فيه عن الإله المختفي ليجدوه في مكان ما. وكما هو الحال مع إله بابل "مردوخ" بعد العثور عليه، يقوم بكتابة أقدار العام الجديد ومصيره المحتوم.

مراحل الاحتفال باعياد الربيع

لكي نعطي مادة الأعياد نظرة أكثر شمولاً ويستعين بها القارئ لفهم احتفالات الربيع الحالية (النوروز)، لابد من التطرق إلى أمر مهم يتمثل في عرض الاستعدادات الطريفة المتبعة في العراق القديم.

كما قلنا إن احتفالات الربيع كان يلازمها إجراء مراسيم الزواج المقدس وإقامة الولائم في "بيت آكيتو". ويرى البعض أن الزواج المقدس كان احتفالاً مستقلاً أول الأمر

أدمج في احتفالات الربيع. وكذا قيل على الإجراءات التي كانت تجري في "بيت أكيتو" خلال فصلي الربيع والخريف أول الأمر، ثم اقتصرت على فصل الربيع في التالي من الأيام. ومما قيل في المصطلح "آكيتو" إنه غير معروف الأصل حسب المصادر الأجنبية(٦)، إلا أن استعراض المفهوم الحرفي للكلمة "آ – كي – تي" تعني "الأرض"، أما "تي" فبمعنى "يقرب" أو "يستنزل". وبهذا يكون المعنى "محل استنزال المطر"(٧). ويبدو أن الطقوس التي كانت تجري خريفية في الأصل ما دام البذار في هذا الفصل.

وعلى أي حال، تتحدث لنا المصادر المسمارية على جانب طريف للولائم التي كانت تجري في بعضها. ومثل تلك البيوت كانت موجودة في أور والوركاء وبابل وآشور ومدن عراقية عديدة. ويبدو أنها كانت تستغل سياسياً إضافة إلى مضمونها الديني.

إن الحديث في مادة احتفالات العراق القديم طريف ومهم وسنستعرض سطوراً مركزة في ذلك ليساعدنا في إعطاء فكرة شاملة على احتفالات الربيع العراقية(٨).

كانت للعراقيين القدامى أعياد فصلية كثيرة كما يمكن استنتاجه من أسماء الأشهر، فبداية كل شهر قمري يكون العيد وكذلك الأيام (٧، ١٥) وآخر يوم من الشهر، وأهم الأعياد هو عيد رأس السنة (الاكيتو) الذي يجري فيه الزواج المقدس بين الملك ممثلاً الإله تموز وكاهنه تمثل عشتار. وترجع أهم نصوص هذا الزواج إلى عصر أور الثالثة. وكانت مراسيم الزواج تقام في المعبد وتحت إشراف الكهنة ويتم زواجهما في "الجيبارو" حيث يعد فيه للعروسين سرير من خشب الأرز مطعم باللازورد، وعند وصول الملك بموكبه إلى المعبد يأخذه الكاهن من يده إلى حجرة الكاهنة العروس وهي في أجمل حللها وزينتها ثم تنشد أغنية تدعوه إلى وصالها. ثم يتصل الملك بالكاهنة والذي هو محاكاة طقوسية لزواج ربة الخصب إينانا من تموز. وتختتم طقوس هذا الزواج باحتفال ومأدبة يقيمها الملك في القصر على شرف الكاهنة زوجته الطقسية، ثم تمر جموع الناس من أمام المنصة حيث يقف الملك معها وهي تصفق وتهتف لهما مع عزف الموسيقى.

كان عيد رأس السنة يستغرق أثني عشر يوماً (بقدر عدد أشهر السنة). ويبدأ في نيسان مع إطلالة الهلال وهو يرمز إلى الصراع بين القوى الطبيعية وانتصار العناصر المولدة للحياة في الربيع، وانتصار آلهة الخير على آلهة الخراب في الكون ممثلة في فوز

الإله مردوخ على قوى الشر التي تزعمتهم تيامة. وتتركز طقوس العيد على مراسيم تموز الذي نعرف عن موته في الصيف وإقامة الناس مواكب العزاء والمناحات والحزن الجماعي على فقده. وكانت مواكب الحزن على الإله تموز المتوفى تبدأ في الثاني من تموز، حيث تقام مراسيم البكاء وتحمل فيها المشاعل وكذلك في الأيام (٩، ١٦، ١٧) من تموز. وفي الأيام الثلاثة الأخيرة منه يجري الاحتفال بطقوس "التاكميلتو" يتم خلالها عرض ودفن طقسي لدمية تمثل تموز المتوفى، وما عيد الاكيتو إلا الاحتفال بعيد قيامه وقهره للموت في ربيع السنة الجديدة. ومما يؤسف له أن النصوص الخاصة بعيد الاكيتو غير كاملة. وكان يحيا في الوركاء وأور بالخريف والربيع وتقام احتفالاته في مكان خاص يسمى بيت الاحتفالات "الاكيتو" يقع خارج المدينة قرب قناة أو على نهر نراه في الوركاء وآشور وبابل، ولكل يوم منه مراسيم خاصة. ويظهر أن عيد "الاكيتو" كان معروفاً في أور ولجش واومّا خلال العصر الاكدي وشاع الاحتفال به في العصر البابلي القديم، وخصصت الأيام الأربعة الأولى من عيد "الاكيتو" لتقديم الأضاحي وتعيين محلات الكهنة في الحفلات وواجباتهم. ويقوم الكاهن الأعلى "الشيشكال" بوضع ثوب جديد على تمثال "مردوخ". وفي اليوم الثاني يمثل "الشيشكال" أمام مردوخ (بعد أن يسدل ستاره أمامه) ليقرأ ترتيلة مطولة في مدحه وقوته، ثم تفتح أبواب المعبد ويدخل السادن "الايريب بيتو" ومعه الكاهن المختص بتراتيل قصائد المراثي ويتبعه كاهن آخر ينشد الترانيم الدينية، ويستمر بإقامة الصلاة أمام مردوخ وزوجته حتى الصباح، وقبل خروجهم من هيكل "مردوخ" يؤدون شعائر خاصة لتاج الإله "نبو"، ثم يصلون بعدها ثلاث مرات إلى "مرودخ". وفي اليوم الثالث يؤم الكاهن الأعلى بالصلاة إلى مردوخ بالاشتراك مع بقية الكهنة. وبعد مضي ثلاث ساعات على شروق الشمس يدعو "الشيشكال" حداداً ويسلمه عدداً من المجوهرات وكمية من ذهب خزانة "مردوخ" لصنع تمثالين لاحتفالات اليوم السادس، ثم يدعو نجاراً ويعطيه قطعة من خشب الأرز، وبعدها يقدم كمية من الذهب إلى صائغ يستدعيه ويلزم أن يكون طول كل تمثال سبعة أشبار، الأول من خشب الأرز والثاني من خشب أثل وعليه أربعة درر وذهب بزنة أربعة مثاقيل. ويحمل كل تمثال في يساره ثعباناً ويرفع اليمنى بتحية للإله "نبو"، ويحمل الثاني بيسراه عقرباً، ويلبس التمثالان أردية حمراء ويتحزمان بسعفة ويوضعان حتى اليوم

السادس في بيت الإله مادان، ويقدم لهما الطعام من سفرة هذا الإله على أن يكونا جاهزين في اليوم السادس لإجراء مراسيم الغفران أمامهما. ويقدم "الشيشكال" أمام تمثال هذا الإله كل يوم قطعاً من لحوم الغنم المضحاة فيعطي الإلية إلى الحداد والصدر إلى الصائغ والفخذ للنجار والأضلاع للحائك. وتعاد مراسيم الصلاة في اليوم الرابع كالتي أديت في الثالث، ويصلي الكاهن الأعلى وهو بملابس كتانية بعد الاغتسال بماء النهر للإله "مردوخ" وزوجته قبل شروق الشمس بأكثر من ثلاث ساعات، ثم يخرج إلى فناء المعبد بانتظار ظهور نجوم خاصة مقدسة حتى يبدأ بقراءة ترتيلة خاصة. وفي مساء هذا اليوم يبدأ بقراءة أسطورة الخلق البابلية بلحن شجي مؤثر ثم يفتح باب المعبد ويدخل جميع الكهنة لتأدية ما عليهم من الطقوس الدينية ويتلوها الكهنة النادبون. وفي اليوم الخامس وبعد صلوات وقراءة تراتيل يرش المعبد بالماء والزيت المقدسين ويذبح كبش ويتلو الكاهن الرقى والتعاويذ خلال عملية مسح الجدران برأس الكبش المضحى للتخلص من أرواح الشر. ثم يرمي كاهن الرقى والقصاب رأس الكبش وجثته في النهر آخذين معهما أرواح الشر. ويعمل النجارون في هذا اليوم منصة في المعبد تسمى "السماء الذهبية" تكريماً لزيارة للإله "نبو" من بورسبا. ثم يدخل الملك إلى معبد "مردوخ" ومعه الكاهن، وعندما يقف في حضرة "مردوخ" يتركه الكاهن وحده، ثم يدخل عليه الكاهن ويخلع عنه التاج وشارات الملك ويضعها على منضدة أمام تمثال "مردوخ" ويقرأ، الملك اعترافه: "لم أذنب ياسيد البلدان ولم أكن مهملاً لألوهيتك، ولم أخرب بابل ولم أسبب لها الهوان. لم أخرب "الايزاكيلا" وأهمل مناسكه" ويجيبه الكاهن: "لا تخف ولا تحزن، إن مردوخ سيسمع صلاتك ويوسع سلطانك ويعلي من شأن ملوكيتك وينصرك على أعدائك ومناوئيك". وهنا يدنو الكاهن من الملك ويصفعه على وجهه ويفرك أذنيه ويرجع له ما انتزعه من شارات الملك بعد أن يلطمه. والمعروف أنه كلما كانت اللطمة شديدة بحيث تؤدي إلى توجّع الملك إلى الحد الذي تدمع معها عيناه كانت فالاً" حسنا للسنة القادمة وتؤدي إلى رضى "مردوخ". وفي مساء اليوم نفسه يشارك الملك في إقامة طقوس معينة في ساحة المعبد حيث تحفر حفرة في الأرض وتحضر حزمة مكونة من أربعين قصبة تربط إلى سعفة ويشدون إلى جوار الحفرة ثوراً أبيض اللون ثم يشعل الملك والكاهن النار في الحفرة بعدها ينحر الثور ثم يتلى دعاء خاص. وطيلة فترة

وجود الملك داخل المعبد يجتمع الناس في الخارج وهم في قلق وهلع حيث يعتقدون أن الإله أسير في العالم السفلي ويزداد قلقهم لتجريد الملك من صفته الرسمية حيث صار المجتمع آنذاك دونما سلطة. ويتراكض الناس في الطرقات صارخين، وربما يقفون في صحن المعبد وخارج البلدة قرب معبد "الاكيتو" وربما تروح عربة "مردوخ" وترجع خالية في طرقات المدينة حداداً، وقد تمثل تمثيلية لعشتار وهي تنوح على الإله المفقود.

يأتي الإله "نبو" في اليوم السادس من العيد لزيارة والده مع آلهة والده لتخليصه من أسره في عالم الأموات، وفعلاً يثأر "نبو" لأبيه ويخلصه من أسره. وينزل "نبو" خلال إقامته في بابل في هذا العيد بالمزار الخاص به من معبد "الايساكيلا". ثم ترد إلى بابل آلهة المدن البابلية الأخرى مثل نفر، الوركاء، كيش وكوثا إلخ. وعند نزولها من سفنها ببابل تؤخذ في موكب مهيب بشارع الموكب مارة من باب عشتار شمالاً باتجاه معبد الاكيتو برفقة الملك وهو أمام موكبها الماء المقدس. وكان الملك الآشوري خلال هذا اليوم يمثل الإله "نينورتا" الذي ينقذ آشور من أسره. وعند وصول "نبو" إلى بابل تقتل بعض الخنازير الوحشية في أحراش القصب القريبة رمزاً لقتل آلهة الفوضى والماء ثم يقطعون رؤوس التماثيل المزينة بالجواهر.

وتمثل في اليوم السابع تمثيلية حزينة تصور موت "مردوخ" وعروجه إلى السماء، حيث يجرح الإله، في هذا اليوم ثم يموت ويخرج الناس يبكون مفتشين عنه. وتسود في هذا اليوم الفوضى نتيجة فقدان الإله وتشد عربة بحصان هائج يركض في شوارع المدينة على غير هدى، ويسلم الحكم إلى أحد عامة الناس الذي يلتف حوله عدد من الأشخاص يحكم طول النهار كيفما يشاء ويظل عابثاً حتى غروب الشمس حيث ينزل عن العرش وتؤخذ منه إشارات الملك التي تعطى إلى الملك الشرعي الذي يجلس وسط تهاليل الشعب، وفي هذا تعريف للناس بأهمية الحكم المنظم وانتصار "مردوخ" على "تيامة".

تدب في اليوم الثامن الحياة ثانية في "مردوخ" ويعود معه كل شيء فتجتمع الآلهة في مخدع الآجال بمعبد "مردوخ" لتعيين إقرار السنة الجديدة. ويقف الناس خلال هذه الاحتفالات بهدوء في الخارج خشية تعكير صفو اليوم التاسع تسير تماثيل الآلهة في استعراض كبير من معبد "الايساكيلا" مارة بشارع الموكب فباب عشتار وتعبر الفرات

إلى معبد "الاكيتو". وربما كانت تجري في هذا اليوم تمثيلية تصور الحرب بين آلهة النظام والخير وأرباب الشر والخراب. يحتفل في اليوم العاشر مردوخ بالاشتراك مع الآلهة الأخرى لانتصاره وتقام وليمة خاصة بالمناسبة في معبد "الاكيتو" ويعود بعدها "مردوخ" إلى معبده للاقتران بعروسه وهو الزواج المقدس الذي يمثل فيه "مردوخ" وزوجته في المخدع بأعلى الزقورة. وفي اليوم الحادي عشر تعود الآلهة للاجتماع في معبد الايساكيلا لتأكيد آجال البشر، أما اليوم الثاني عشر فيحتفل بعودة الآلهة إلى مدنها.

الهوامش

١. "تموز" هو الاسم الأكادي أو البابلي لآله سومري هو "دموزي" ويعني أسمه "الابن الصالح". والبحث مقتطفات من مقال لكاتب البحث في مجلة آفاق عربية، العدد ١٩٨٥/٧.

٢. عبد الواحد، فاضل. عشتار ومأساة تموز، (سلسلة الكتب الحديثة –١٢)، الأسطورة مقتبسة عن المصدر المذكور.

٣. يفضل الأستاذ طه باقر استخدام تعبير "العالم الأسفل" في كتبه ومقالاته إلى جانب تعبير "العالم السفلي" أحياناً، في حين يستخدم د. فاضل عبد الواحد التعبير الأخير بشكل مطرد. أما المصطلح بالسومرية فهو "كي كورتو" وبالأكادية "شابليشو".

٤. مدينة "أماّ" هي إحدى مدن جنوب العراق وكانت لها علاقة حرب وسلام مع مملكة لكش. المجاورة لها والتي كانت "تلول الهباء" مقرراً لها. أما "أماّ" فيسمى موقعها "تل جوخة" اليوم.

٥. حول قصة جلجامش راجع: ملحمة كلكامش للأستاذ طه باقر، (سلسلة الثقافة العامة – ٨) وزارة الأعلام بغداد، ١٩٧١.

٦. *The Assyrian Dictionary (Chicago). Germany, 1964, Vol. I,Part I,p.267.*

٧. حول الموضوع يراجع رسالة الماجستير للباحثة راجحة النعيمي بعنوان: الأعياد في حضارة بلاد وادي الرافدين، بغداد /١٩٧٦.

٨. إن الفقرات الخاصة باحتفالات أيام الربيع مقتبسة عن الدكتور سامي سعيد الأحمد: المعتقدات في العراق القديم، بغداد /١٩٨٨، ص/٤٧- ٥٢.

الفصل الثالث

الربيع من نيسان إلى آذار لماذا؟

بعد استعراضنا لفقرات تتعلق باحتفالات رأس السنة العراقية قديماً لا بد وأن نستقصي حقائق أخرى تؤكد أن كلا من احتفال العراقيين منذ نحو ستة آلاف عام في أيار –نيسان، وآذار حالياً ناشئ من منطلق واحد ألا وهو فترة الاعتدال الربيعي التي يتساوى فيها الليل والنهار. وسأوضح هنا الأسباب الفلكية التي أدت إلى هذه الانتقالية من أيار –نيسان إلى آذار، وهذا الأمر يؤكد وحدة الفكر العراقي القديم والكردي الحالي.

يتصور معظم الناس الكواكب السيارة تدور ضمن نسق معين لا تحيد عنه، وإن كان هذا الأمر حسب الظاهر إلا أن الأمر ليس كذلك حقيقة، فبتقدم علم الفلك لاحظ المختصون وجود تراجع أو تقدم في سير الكواكب سببه وجود مجال جذبي عليها باتجاهات معينة من كواكب بجوارها أو بعيدة عنها، ويعرف العلماء أن تأثيرات المجال الجذبي على كوكب أو قمر لكوكب قد تسبب حتى البراكين والهزات على سطح ذلك الجرم السماوي.

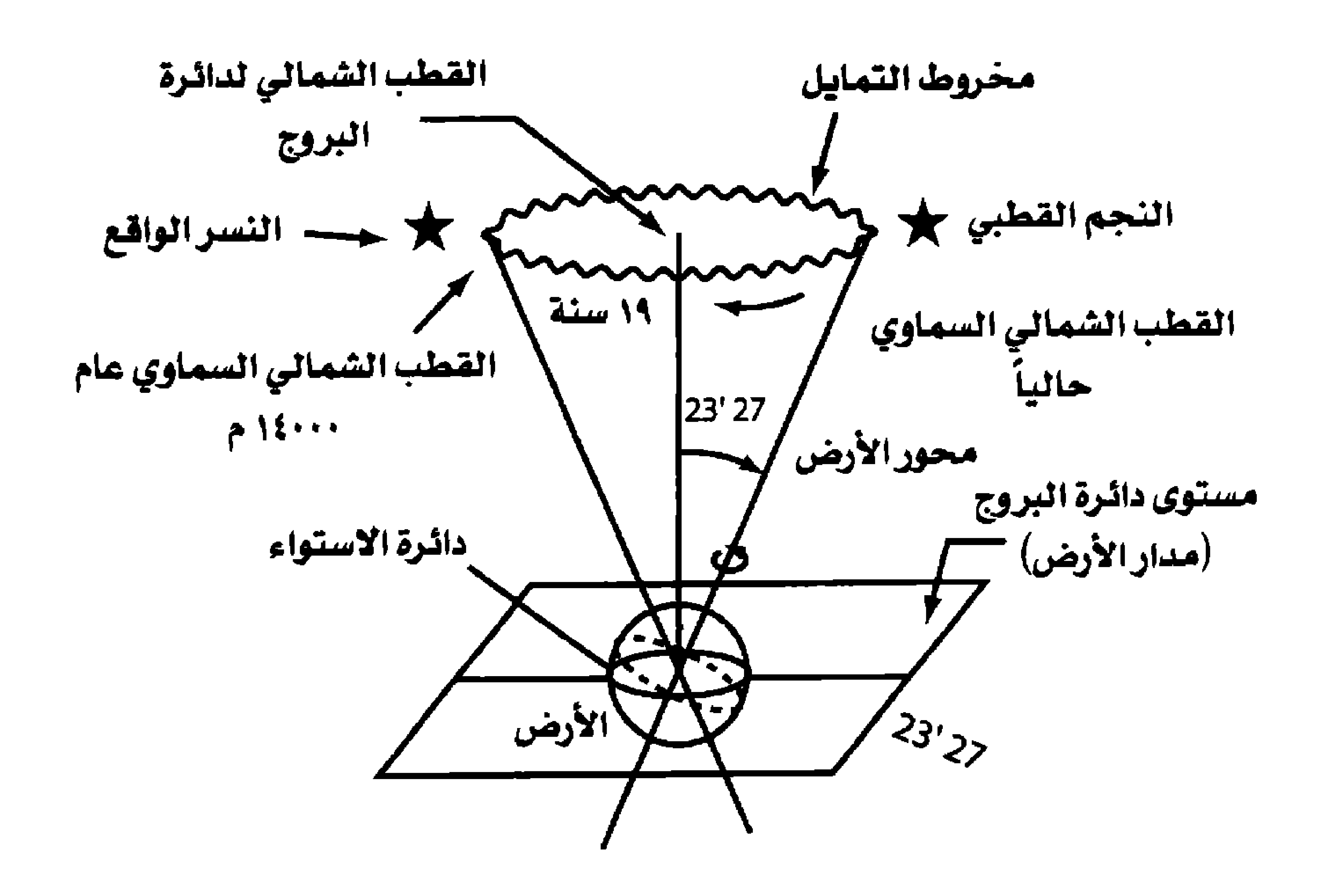
أما بالنسبة للتغير الحاصل في حركة الأرض فيرجع سببه إلى تأثير جذب القمر للأرض إضافة إلى الشمس مما يؤثر في دورانها. ومن الواضح أن هذا التأثير طفيف ولا يمكن قياسه دون أجهزة إلا عقب فترة طويلة من الزمن. وبخصوص هذه الظاهرة قال الأستاذ المرحوم فياض النجم ود. حميد مجول:

"إن المحور الأرضي ليس ثابتاً عند دوران الأرض حول الشمس كما كان يعتقد سابقاً، بل ذو حركة مخروطية مشابهة لحركة محور المصراع (كما هو موضح في

الشكل –٧) ويطلق البعض على هذه الحركة خطأ بالطواف "ظاهرة التقهقر" ومن المفضل تسميتها بالترنح. وسبب الترنح هو أن الأرض ليست كاملة التكوّر بل تمتاز ببعض التفلطح وانبعاجها عند القطبين وتفلطحها عند الاستواء، وهذا التفلطح ناتج من دوران الأرض حول محورها، إضافة إلى تأثير الجاذبية المتفاوتة الناتجة من الشمس والقمر وبعض الكواكب السيارة الأخرى على الأرض. إن الشمس تقع دائماً في مستوى دائرة البروج، أما القمر فهو ليس بعيداً عن مستوى هذه الدائرة، لذا نلاحظ أن قوى الجاذبية ستؤثر على الأرض وتحاول جعل محورها عمودياً على مستوى دائرة البروج، أي أن محصلة قوى الجاذبية وقوة الدوران للأرض حول محورها تولد قوة محورية على هذه التأثيرات وإن القوة هي المسببة للترنح، وإن الحركة المخروطية البطيئة لمحور الأرض تؤدي إلى تغير بطيء (اتجاه المحور الدوراني للأرض بمرور الزمن)". ومما قاله الباحثان:

"ولما كان موقع المحور الأرضي الدوراني يتغير في السماء فإن الاستواء السماوي سيتغير أيضاً، والنتيجة هو تغير موقع نقطتي الاعتدال الربيعي والخريفي حيث تكون الحركة بطيئة وباتجاه الغرب ضمن دائرة البروج، وقد وجد أن قيمة التحرك السنوي لنقطة الاعتدال "أي زحزحة نقطة الاعتدال" ذاتها بالنسبة إلى النجوم تعادل ٢٦ر ٥٠ ثانية قوسية، وسميت هذه الحركة بالتقهقر الاعتدالي *Procession of the Equinoxes* ولو قسم الفرق السنوي الذي يعادل ٢٦ر ٥٠ ثانية قوسين إلى ٣٦٠ درجة على دائرة البروج بالاتجاه المعاكس لحركة الشمس لوجد أن نقطة الاعتدال سوف تعود لنفس النقطة التي ابتدأ منها التحرك قبل ٢٥٨٠٠ سنة"(١) وهذا يعني أن الانتقال من برج من اثني عشر برجاً يحتاج إلى نحو (٢٢٠٠) سنة، أي بمعدل درجة واحدة كل (٧٢) سنة، علماً بأن البرج مقسم إلى (٣٠) درجة، وكان العالم البتّاني في العصر العباسي قد حسب ذلك بدرجة كل (٦٦) سنة وهو قريب من الصحيح.

إن هذه الظاهرة تفسر الانتقال من الاحتفال في أيار – نيسان في عصور فجر السلالات العراقية والفترة البابلية القديمة ثم انتقاله إلى آذار حالياً وحسب هذا التراجع فإن الربيع سيحل في (١٠) شباط بعد نحو (٢١٠٠٠) سنة لقد كان الربيع يحل والشمس في برج الثور ثم الحمل، والآن درجة واحدة في برج الحوت.



شكل (٦)

رسم تخطيطي يوضح أثر جذب الشمس والقمر وكواكب أخرى على محور الأرض

الهوامش

١. فياض النجم وحميد مجول، فيزياء الجو والفضاء، (علم الفلك ــج/٢) الموصل ١٩٨١، ص/٦١ – ٦٣.

احتفالات الربيع العراقية والشعوب الأخرى

لقد عرضنا في الفصل السابق فقرات موجزة من قصة "تموز وعشتار" وما ارتبط بهما من احتفالات الربيع وهي حقائق تؤكد بأن الاحتفاء بالربيع تقليد عراقي أصيل.

وقبل أن نعرض مادة أخرى تخص احتفالات الربيع خلال الفترة الإسلامية أرى من الأفضل أن نلم بمعلومات تلقي الضوء على احتفالات وتقاليد مماثلة لدى شعوب العالم الأخرى بغية موازنة محتوياتها ومعرفة أصولها مقارنة بالعراقية.

لنأخذ على سبيل المثال: سورية، وهي قطر مجاور للعراق، لنرى المستوى الذي كانت عنده قصة الربيع هناك.

إذا ما درسنا أسطورة الربيع في سورية نرى أنها متماثلة في العديدة من النقاط مع العراقية. لقد أطلق السوريون عموماً لقب "اذون" أو "ادون" على بطل قصة الربيع، وهو اسم يعني "السيد" أو "الرب" باللغة الكنعانية التي كانت سائدة في سورية.

وإضافة إلى ذلك سموه "تموز" أي بالاسم الذي سمي به في العراق إلى جانب تسميته "بعل". ومما تجدر الإشارة إليه أن "تموز" عرف بأسماء عديدة في العراق أيضاً. ومن يطلع على تفاصيل القصة، يرى أن بحياة "أدون" تحيا الطبيعة وبموته تموت الخضرة والحيوان.

مما تشير إليه الأسطورة السورية أن "أذون" قتله خنزير وحشي حينما كان يصطاد. ثم يأتي دور "عشتار" لتقوم بالنزول إلى العالم السفلي ليعود تموز إلى العالم الأرضي فتفيض الأرض بالعطاء والنماء من جديد. وفي لبنان كان الفينيقيون (وهم كنعانيو لبنان) يحتفلون بعيد بعث "تموز مدة سبعة أيام، في حين كان في العراق اثنا عشر يوماً.

أما الاسم الذي أطلقه كنعانيو لبنان على تموز فهو "نعمان" وذلك أنهم ربطوا به لون شقائق النعمان الحمراء، التي تتفتح في الربيع وتلبسه حلة جميلة، وبين دم تموز الذي أراقه الخنزير"(1).

وإذا أتينا إلى القطر المصري نرى أن لأسطورة موت إله وبعثه أهمية كبيرة في الفكر المصري القديم. إلا أنه لم يأتنا نص كامل لها باستثناء ما جاء في كتاب "فلوطرخس" المؤرخ اليوناني المعنون "إيزيس و أوزيريس". وتشير القصة أن " أوزيريس" كان الأب الأكبر للإله الأرض وأمه السماء "نوت" إلا أن أخاه "سيث" حسده لذا عمد إلى قتله أثر وليمة تكريمه له بوضعه في صندوق ثم رميه في دلتا النيل. ثم قاد بالصندوق المطاف إلى البحر ثم إلى ساحل مدينة "جبيل". وبعد أن فتشت زوجته "إيزيس" عنه وجدته هناك. ثم جلبت الصندوق إلى دلتا النيل، ولما علم "سيث" بذلك قطّع جسم "أوزيريس" الأمر الذي حدا "ب إيزيس" أن تقوم بدفن هذه القطع كلا على حده، باستثناء عضوه التناسلي الذي رماه أخوه في البحر. في حين تشير قصة أخرى إلى أن "إيزيس" أخذت ترفرف فوق جثة "أوزيريس" التي أمر إله الشمس بتحنيطها مما جعل الحياة تعود إليه. وبعد قيامه أصبح ملكاً على عالم الأموات"(2).

حينما نتحدث على أثر العراق ومصر في اليونان فإننا نحتاج إلى كتاب ضخم يتناول جميع المؤثرات في الميادين كافة. أما بالنسبة إلى أثر قصة "تموز" و"أوزيريس" في الفكر اليوناني فأشير مبدئياً إلى أن المؤرخ "هيرودوتس" (القرن الخامس ق.م) قد أشار إلى التشابه الواضح بين الأسطورتين. ولكن المنحازين إلى اليونان من الأوروبيين يرون في قصة "أدونيس" أو "ديونيسوس" ابتداعاً يونانياً خاصاً، وهو أمر لا تقرّه الدراسات المقارنة، لأن دراسة التفاصيل والمضمون تؤكد الأصل العراقي للأسطورة، والأكثر من ذلك أن اسم "ادونيس" و"ديونيسوس" مأخوذ عن الكنعانية "آدون" أو "آدوناي" وليس في الأمر أي أشكال. ولو راجعنا قصته الإلهة اليونانية "هيرا" لرأينا فيها عين مواصفات "عشتار" من حيث علاقتها بشخص له مواصفات تموز أي "ديونيسوس". لقد كان اليونان يخصوّن "ديونيسوس" باحتفالات الربيع، ولكن لما كانت ظروف العراق المناخية غيرها في اليونان قام اليونانيون بوضع صيغة أخرى للاحتفال.

إننا نعلم بأن أهم ما يميز حضارة اليونان مسارحها الكثيرة التي انتشرت في كل

مكان، وحتى في مدينة بابل ترك هؤلاء أحد أبنيتها خلال الفترة السلوقية اليونانية، ولكن هل تعلم بأن الباعث على نشوء هذا التقليد عراقي على الرغم من أن قطرنا بعيد عنهم؟

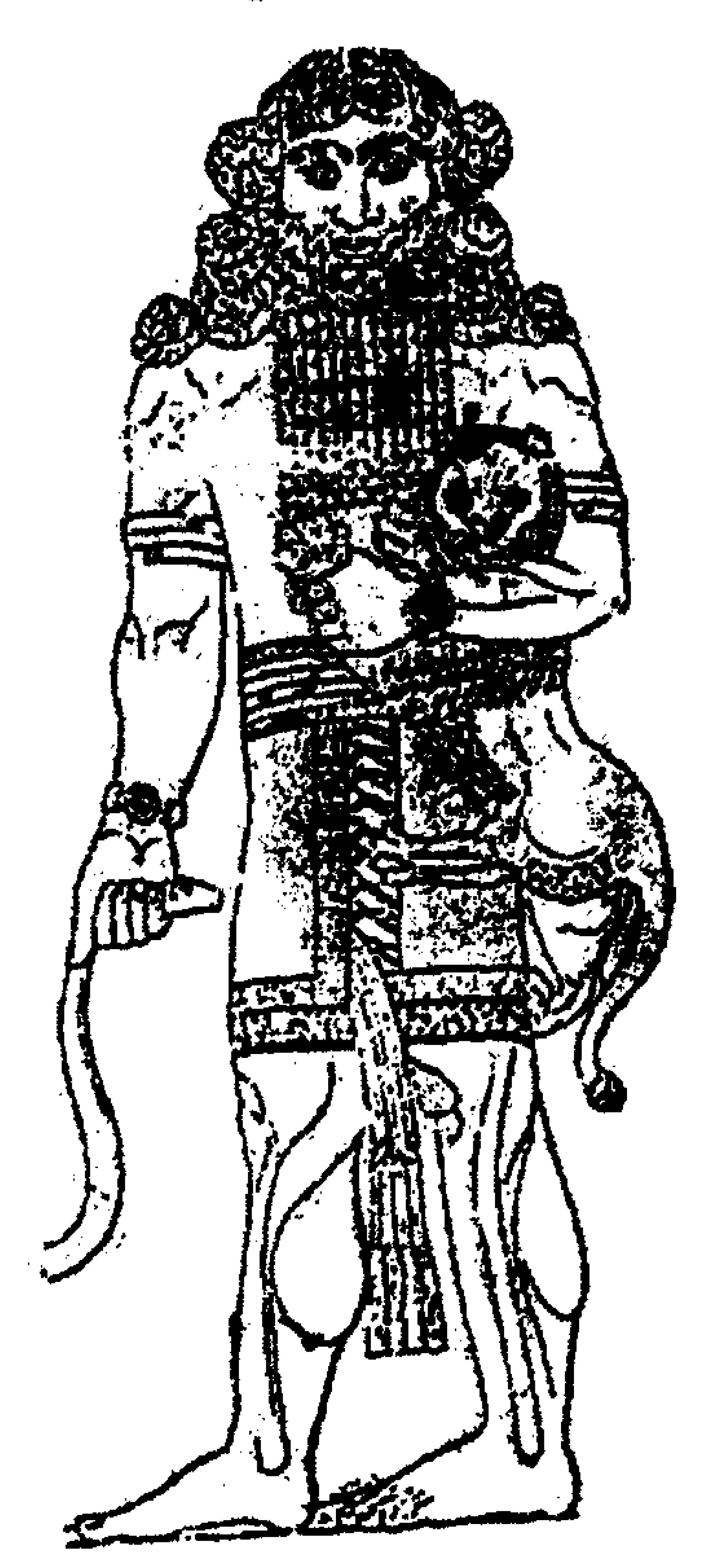
على أي حال، العراق بلد قليل المطر ولا سيما في فصول غير الشتاء، لذلك فإن الاحتفال بأيام الربيع كان يجري على الطبيعة. أما في بلاد اليونان، سواء في الأطراف الغربية لبلاد الأناضول أو في جزرهم المعروفة فهي كثيرة الأمطار، كما أن قصة "تموز – ديونيسوس" دخيلة عليهم. وبالتالي فإن هذين العاملين أديا إلى إخضاع طقوس الربيع إلى عامل الحصر، وذلك بجعلها تؤدى في بناء معين كان تقليداً لمنحدرات الجبال والوديان. وهذا العامل أدى إلى نشوء المسرح المدرج. وكما نفهم من الدراسات أن قصص اليونان ومسرحياتهم نوعان: كان الأول والسابق هو "المأساة" (التراجيديا) ثم جاءت "الملهاة" (الكوميديا). ألا تعلم بأن المأساة التي كانت تمثل في الجبال والتلال ثم في المسارح هي مأساة الإله العراقي "تموز" ودخوله في العالم السفلي؟ علماً بأن كلمة "تراجيديا" مأخوذة من الكلمة "تراجوس" بمعنى "الماعز" و"اويديا" أي "الأغنية". وكما نعلم بأن للإله "تموز" علاقة بالماعز لأنه كان راعياً. وفي كردستان كان هناك تقليد للقرويين الأكراد بارتداء زي من جلد الماعز تقليداً لهذا المبدأ أيام الربيع.

وإذا كان هذا بخصوص تموز وأيام الربيع، فماذا عن المؤثرات العراقية الأخرى على اليونان.

هناك العديد من الآلهة بمواصفاتها عراقي الأصل فالآلهة الأرض "كي" بالسومرية وهي "جي" باليونانية و"آنو" إله السماء بالسومرية وهو "اورآنوس" ويبدو أن المقطع "آنوس" هو "انو" نفسه بإضافة السين اليونانية المعرّفة إلى الأسماء، ويبدو أن المقطع "اور" سومري أيضاً وله عدة معاني. أما الإله "نركال" السومري فهو إله العالم السفلي، وحين انتقل إلى اليونان اصبح "هرقل". وفي مدينة الحضر كان العرب يضعون اسم الإله العراقي القديم "نرجول" (أي نركال) في نصوصهم التي وضعوها على التماثيل التي كانت بمواصفات هرقل. ومن الواضح أن هناك شبه في التسمية بين "هرقل" و"نرجل"، كما أنه كان في العراق راعي الحيوان والمدافع ضد الوحوش الضارية منذ عصور فجر السلالات السومرية والأكادية والبابلية وهكذا. أما إله الصيد "تتورنا"

فكان يمثل بشخص يحمل قوساً وخلفه كلب، وهذه هي عين مواصفات إلهة الصيد لدى اليونان "ديانا". ومثل ذلك في التشابه بقصتي الطوفان والخليقة. (راجع الشكل _٥) ولاحظ الإله إلى اليسار (الذي يحمل القوس).

أما بالنسبة إلى الأثر العراقي في احتفالات الربيع على الفرس فلا أريد أن أضيف إلى ما قاله الباحث "كريستنسن" في كتابه "إيران في عهد الساسانيين" شيئاً، لقد قال عن عيد الربيع في إيران أن اسمه "بهارجشن"، أي أن اسمه لم يكن "النوروز".



شكل (٧)

جلجامش البطل ويمسك بيسراه شبلاً وبيمناه شعار نركال وهو حفيد "أوتونابشتم" (نوح الطوفان). عن منحوتة أشورية.

ومما قاله "كريستنس": -إنه عيد ربيعي قد حفظ بعض خصائص "الزاكمو" الذي هو عيد البابلين القدماء"[٣]. وخلال الغزو الفارسي الاخميني للعراق (٥٣٩ – ٣٣١ ق.م) أي بعد انتهاء الفترة البابلية الحديثة (٦٢٦ – ٥٣٩ ق.م)، استمر العراقيون على

الاحتفال بأعياد الربيع، وحينما أتى الملك الفارسي "احشويرش" إلى الحكم (٤٨٦-٤٦٥ ق.م) قام بأعمال مدمرة في العراق فقد هدم مدينتي بابل وبورسبا مما أدى إلى تعطيل احتفالات رأس السنة البابلية الأمر الذي أثار كهنة بابل، وما كان من ملك الفرس إلا أن أسر أكثر الكهنة وقتل عدداً كبيراً منهم.

لقد كان عيد الربيع الرمز الوطني للعراق.

من النقاط المهمة التي ينبغي التأكيد عليها، هي أن موعد الاحتفال بنوروز العجم لم يكن في الربيع. وعلى أي حال، سنأتي إلى فقرات مختارة تعزز وجهة النظر هذه.

قبل أن آتي لنفي علاقة نوروز الفرس بالربيع لا بد من الإشارة إلى شيء مهم وهو أنه إضافة إلى الاقتباسات الفارسية العديدة من الحضارة العراقية فإن هناك عنصراً مهماً اقتبسه الفرس يتمثل في تقسيم أيام السنة إلى اثني عشر شهراً لكل منها ثلاثون يوماً(٤).

دعنا نأتي إلى قول أبي عمرو الجاحظ (١٥٩ – ٢٥٥ هـ)، صاحب كتاب "الحيوان" المشهور، الذي قال في كتابه "التاج في أخلاق الملوك" محدداً هذه المناسبة لدى الفرس قائلاً: "ومن حق الملك (أي ملك الفرس) هدايا المهرجان والنيروز، والعلّة في ذلك إنهما فصلا السنة، فالمهرجان دخول الشتاء وفصل البرد، والنيروز اذن بدخول فصل الحر"!

وقال: "إلا أن في النيروز آحوالاً ليست في المهرجان: فمنها استقبال السنة وافتتاح الخراج"(٥) ومن هنا نفهم أن نوروز الفرس لم يكن ربيعاً. وإضافة إلى أقوال الجاحظ هناك مراجع أخرى تؤكد ذلك.

والعبارة المهمة التي أوردها أبو الريحان البيروني (٤٤٠هـ) في كتابه "القانون المسعودي"، الذي قال في النوروز: "إن اسمه ينبئ عن معناه. أعني اليوم الجديد، لأنه مفتتح السنة وغرّة الحول وموضوعه في الأصل أطول يوم في السنة وإنما يخص بذلك لأن الوقوف عليه من إظلال الأوتاد على الحيطان ومن مرور الضياء والداخل من الثقوب إلى البيوت يسهل على من أراده من غير ارتياض بعلم الهيئة، وفيه افتتاح الخراج بسبب إدراك الغلات"(٦). أما إذا أتينا إلى "نهاية الأرب في فنون الأدب" لشهاب الدين النويري (٦٧٧ – ٧٣٣هـ) فنراه يعرّف هذه المناسبة لدى الفرس بالقول:

"فأما النيروز، فهو أعظم أعيادهم وأجلها. يقال أن أول من اتخذه جمشيد، أحد ملوك الفرس الأوائل. ويقال فيه جمشاد، ومعنى جسم القمر، وشاد الشعاع والضياء، وسبب اتخاذهم لهذا العيد أن طهو مرت لما هلك، ملك بعد جمشاد، فسمي اليوم الذي ملك فيه نوروز، أي اليوم الجديد". وقال: "ومن الفرس من يزعم أن النيروز اليوم الذي خلق الله (عز وجل) فيه النور وإنه كان معظم القدر عند جمشاد. وبعضهم يزعم أنه أول الزمان الذي ابتدأ فيه الفلك بالدوران"[٧]. ومثل هذا القول يورده أبو العباس القلقشندي (ت – ٨٢١هـ) في كتابه "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء"، الذي قال أيضا: "وفي بعض التآليف أن جم شاد ملك الأقاليم السبعة والجن والانس، فاتخذ له عجلة ركبها، وكان أول يوم ركبها فيه أول يوم من شهرر افريدون ماه، وكان مدة ملكة لا يريهم وجهه، فلما ركبها أبرز لهم وجهه، وكان له حظ من الجمال وافرا، فجعلوا يوم رؤيتهم له عيدا، وسموه نوروزا" !!![٨].

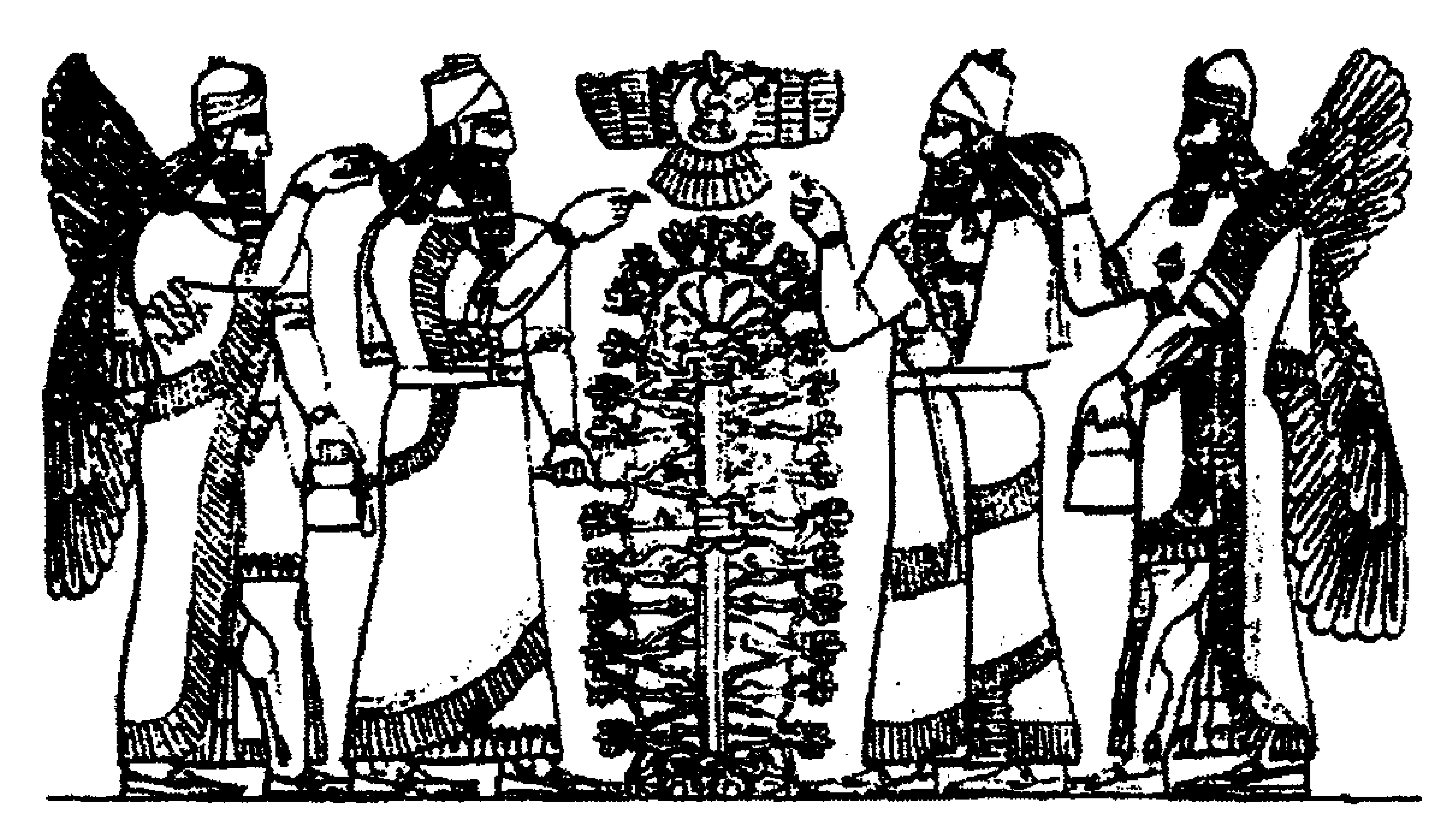
إن هذه العبارات حقائق لا يمكن أن نضيف إليها شيئاً إلا لنؤكد حقيقة أن نوروز الفرس لا علاقة له مطلقاً بأعياد الربيع.

ولكن ربما نسأل عن السبب الكامن وراء حدوث الالتباس المتمثل باعتقاد الناس في أن نوروز الفرس كان ربيعياً.

لقد حصلت التباسات لا التباس واحد ففي مصر حصل التباس في التسمية وبالمطابقة مع بدء السنة المصرية القديمة. وفي العراق وبلاد الشام حصل الالتباس نتيجة لإهمال السنة الفارسية بعد تداعي دولة الفرس الساسانيين، لذلك حينما حلّ العصر الإسلامي، رأوا تاريخاً يختلط بعضه ببعض وذلك لإهمال كبس السنين ومن ثم تراكم الأخطاء في الحسابات الأمر الذي جعل نوروز العجم الصيفي يزحف تجاه الربيع في مطلع العصر الإسلامي.

أما إذا أتينا إلى مصر فإن تاريخها العريق وما قدمته للإنسانية في ميدان العلوم والفنون كثير تماماً. وإذا كان كلامنا على التقاويم فإن مصر توصلت لأكثر التقاويم ضبطاً بسبب اعتمادها رصد الشعري اليمانية، التي يتزامن ظهورها مع فيضان النيل صيفاً. وعندما أتى الامبراطور الروماني يوليوس قيصر (القرن الأول ق.م) إلى مصر اقتبس ما سمي خطأ بالتقويم اليولياني نسبة إليه. وعلى أي حال إن ما بقي متداولاً من تقويم مصر بتسمياته هو لدى الأقباط المصريين. وفي ذلك يقول القلقشندي في الأعشى:

"الشهر الأول منها توت، ودخوله في العشرين من آب من شهور السريان، وآخره السادس والعشرون من أيلول منها، فيه يدرك الرطب ويكثر السفرجل والعنب الشتوي، وتبتدئ المحمضات. وأول يوم منه يوم النيروز، وهو رأس سنة القبط"[٩]. وقال أيضاً: "وكان القبط والله أعلم اتخذوا ذلك على طريقة الفرس واستعاروا اسمه منهم فسموا اليوم الأول من سنتهم أيضاً بالنيروز وجعلوه عيداً"[١٠].



شكل (٨)

مشهد بالنحت البارز لملك أشوري بوضعين أيمن وأيسر وظهرت بينهما شجرة الحياة التي استعارها الأوروبيون لشجرة الكريسمس، وفوق الشجرة رمز الإله آشور الذي اقتبسه الفرس لإلههم أهورا مزدا. وخلف الملك إلهان مجنحان بيدهما مخروط صنوبر لإخصاب الزرع، ويبدو أن المشهد يمثل جانباً من احتفالات الربيع.

ومن المعلوم أن أسلوب التطابق في التقويمين ونسيان الخط الهيروغليفي المصري قد ساعد في أن يحمل اسم النيروز كما أن السلطة السياسية في الفترة الساسانية خاصة قد جعلت مصر تقتبس التسمية "نوروز" بدلاً من اسم آخر. ومن الواضح أن هذا يؤكد الأصل الصيفي لا الربيعي للنوروز.

وبعد هذا العرض السريع لما كان في العالم القديم من معتقدات تخص احتفالات الربيع، نأتي إلى ما كان عليه النوروز خلال الفترات الإسلامية. وقبل أن نتحدث عن هذا الموضوع، لا بد من الإشارة إلى أن المسلمين اتخذوا التقويم الهجري المتغير باستمرار لاعتماده على حركة القمر. وبذلك يختلف التقويم الشمسي عن القمري بنحو أحد عشر

يوماً كل سنة. ومن الواضح أن سبب اتخاذ هذا التاريخ المتغير كان لغرض إبعاد العرب والشعوب الأخرى عن الاستمرار في الاحتفال بالطقوس الوثنية التي تؤكد على اتخاذ أيام ثابتة معينة أو فلكية دائمة أو شبه دائمة. ولكي نتأكد من ذلك أن الإسلام كره عمليات الكبس التي تطرأ على التقاويم وهو ما أسماه بالنسيء الذي قال عليه بأنه "زيادة في الكفر". لذلك كان لا بد من اختيار تاريخ ثابت للأمور الاقتصادية.

لنأخذ على سبيل المثال ما حصل زمن الدولة الأموية. لقد طلب معاوية بن أبي سفيان من أهل السواد (أي العراقيين) أن يهدوا عامله على الخراج في "النوروز" و"المهرجان" ففعلوا. وذلك على ما قاله "الجهشياري" في كتابه الوزراء[١١]. وبما أن النوروز الفارسي كان صيفاً لذلك كان الموعد الذي تستفتح فيه جباية الخراج، وقد أوردت قول العالم البيروني في ذلك صريحاً.

لقد سبق أن أشرت إلى أن الفرس اقتبسوا التسميات العراقية للسنة. ولم يكتفوا بذلك بل اتبعوا عادة الكبس العراقية[١٢].

وحينما أتت دولة الفرس الساسانيين إلى نهايتها أهملت أموراً منها عملية الكبس، لذلك لاقى المسلمون متاعب اقتصادية بسبب اعتماد النوروز في جمع الضرائب من الغلاّت الصيفية، لأن هذا الشهر تقدم من حزيران إلى آيار ثم نيسان. لذا طلب الدهاقنة من "خالد القسري" الذي كان والياً زمن "هشام بن عبد الملك" تأخير النوروز شهراً، لأن تقدمه أضرّ بالناس، فكتب إلى الخليفة "هشام"، فأجاب بأنه يخشى أن يعني ذلك النسيء الذي نهى عنه الإسلام[١٣].

لقد استمر تذمر المسلمين من تقدم النوروز الفارسي الصيفي إلى غير موعده. وفي زمن الخليفة "المتوكل" العباسي (٢٣٢-٢٤٧هـ)، حدث أنه كان يطوف في بعض البساتين ورأى عدم نضج المحاصيل فيها واقتنع بعدم إمكان جمع الضرائب في تلك الفترة التي تحوّل إليها النوروز، الأمر الذي دعاه إلى إرجاعه إلى الوراء لغاية (١٧) حزيران، وكان موعد الإصلاح هذا عام (٢٤٣) للهجرة. إلا أن قرار "المتوكل" أهمل بعده، ثم أرجعه الخليفة "المعتضد". لقد أصدر تعميمه بذلك عام (٢٨٢هـ). إلا أن العالم "البيروني" (المتوفى عام ٤٤٠هـ) رأى أن الخلل أو التقدم في النوروز كان سبعة وسبعين يوماً بدلاً من ستين، أي أنه طلب إرجاع موعده إلى (٢٨ حزيران).

لم يقتصر الاهتمام بإصلاح موعد النوروز على كتب التاريخ والاقتصاد بل تعداه إلى كتب الأدب، فها هو "أبو عبادة البحتري" (٨٢٠-٨٩٧م)، شاعر سامراء الكبير، تغنى بإصلاح "المتوكل" للنوروز المتداول قوله:

أنــت حولتــه إلى الحالــة الأولى وقـــد كـــان حـــائراً يســـتدير

فأفتتحــت الخــراج فيــه، فللأمــة في ذلـــك مرفـــق مشـــــهود

إلا أن ذلك لم يمنع من تغني "أبو عبادة البحتري" بنوروز الربيع العراقي الأصيل، وحسبنا أن نورد أبياتاً من قصيدته المشهورة قوله:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً مـن الحسـن حتـى كـاد أن يتكلمـا

وقد نبّه "النـوروز" في غسق الـدجى آوائـــل ورد كـــن بـــالأمس نوّمـــا

يفتحهــا بـــرد النـــدى فكأنمـــا يبـــث حديثـــاً بيـــنهن مكتمـــاً

ومـــن شـــجر ردّ الربيـــع رداءه كمــا نشــرت ثوبــاً عليــه منمنمــا

أحــل فأبــدى للعيــون بشاشـــة وكــان قــذى للعــين إذ كــان محرمــا

ورق نســيم الجــو حتــى كأنمــا يجـــيء بأنفـــاس الأحبـــة نعّمـــا[١٤]

وبعد أن عرضت لاحتفالات الربيع القديمة والإسلامية، أرى بأنه من الضروري أن أعود قليلاً إلى الفترة العربية قبل الإسلام لكي نلم بمعلومات أوفى حول مفهوم العرب لأعياد الربيع آنذاك، ولنأتِ إلى من يطلق عليهم اسم الصابئة طالما أنهم أكدوا على الاحتفال بحلول الربيع.

من الواضح أن كلمة "صابئة" تطلق على عبدة الكواكب السيارة، أو الهياكل الروحانية المفترضة التي تقف خلفها، وهم عراقيون وعرب، ومنهم من سكن حرّان جنوب بلاد الأناضول. ومن مزايا ديانة هؤلاء الاستمرار على الكثير من تقاليد الديانات العراقية السابقة، من ذلك ما يخبرنا به ابن النديم في الفهرست[١٥]، وابن حزم الأندلسي والشهرستاني (ت-٥٤٨هـ)[١٦]، وأبو العباس القلقشندي[١٧]، مع أن هؤلاء كانوا يحتفلون بأيام الربيع التي تمثل بداية سنتهم وأعظم أعيادهم. ومن الجلي أن ذلك كان يحصل

عندما كان الانقلاب الربيعي في برج الثور في الأزمان البعيدة، ثم انتقل إلى الحمل، وحالياً في درجة من برج الحوت.

أما بالنسبة إلى مدينة الحضر المعروفة، والتي تقع إلى الجنوب من مدينة الموصل على بعد نحو (١١٠كم). وازدهرت قبل نحو (١٩٠٠ سنة) فقد قمت بأجراء أرصاد لحركة الشمس على مدى عام بين سنتي (٨٣-٨٤) لمعرفة أمور تخص معتقدات الحضريين العرب.

إن أهم ما رأيته في مدينة الحضر اتجاه مبانيها باتجاهات متماثلة، أعني المعابد والبيوت، بل حتى القبور. وقد جذب انتباهي ذلك منذ فترة ولا سيما المعبد الكبير الذي يحتل مساحة واسعة وسط المدينة، وقوامه ساحة تحتل ثلاثة أرباع المساحة التي يفصل عن حارة لبيوت الآلهة جدار يتعامد على ضلعيه الجنوبي والشمالي. وخلف هذا الجدار توجد أواوين ضخمة منها ثمانية تواجه الشرق. وخلف الإيوان الجنوبي الأوسط يوجد معبد مربع مساحته الخارجية (٢٨ × ٢٨) متراً، وفي وسطه غرفة مربعة يحيط بها ممر بأربعة اتجاهات. وكانت البعثة الألمانية التي زارت الحضر في مطلع هذا القرن قد عملت كتاباً بجزأين عنها وأشارت إلى وجود منحوته بشكل شخص يمثل إله الشمس إلا أنها سرقت وغير موجودة في محلها، وعندما ندرس هذا المعبد المربع دراسة مقارنة نرى أن هناك ما يماثله ومن نفس الفترة أو قبل مثال الحضر في سورية، وكذا جزيرة العرب. ومن الواضح في علم التنجيم أن الشكل المربع هو رمز لإله الشمس. لذلك أجريت العديد من الاستطلاعات لمعرفة الأوقات التي تدخل فيها أشعة الشمس إلى الغرفة المربعة، وكذلك الموعد الذي تتعامد فيه الشمس بشروقها وغروبها على المعبد الكبير.

لقد وجدت أن موعد التعامد الحالي للشمس على العيد عند الشروق يقع بين يومي (٢١-٢٢) تشرين أول، ثم تذهب في أقصى نقطة لها صوب الجنوب يوم الانقلاب الشتوي، لتعود أدراجها فتتعامد مرة أخرى يومي (٢١-٢٢) شباط وقد تمكنت من تعيين منصة الرصد التي كان الحضريون يرصدون منها وكذا القوس التي يمكن منه مشاهدة قرص الشمس المتعامد في الفترتين المذكورتين.

ومن الواضح أن الفترتين المذكورتين لا تمثلان الفترة التي كان الحضريون يحتفلون فيها، أو تتعامد فيهما الشمس عند شروقها، ذكرنا وجود انحراف بما يسميه

العلماء خاصية الترنح التي مقدارها درجة واحدة كل سبعين عاماً. وحينما نعود إلى الوراء نرى بأن فترة التعامد وقت اتخاذ هذه النقطة للتعامد، كان نحو (٢١) آذار ومطلع تشرين الأول. وهو ما يمثل وقت الاعتدالين الربيعي والخريفي آنذاك[١٨].

وإضافة إلى ذلك أن أسماء الأشهر في مدينة الحضر وكذلك تدمر المعاصرة لها في سورية هي أسماء بابلية قديمة.

"إذاً لقد وجهت الحضر اتجاهات معابدها لتستقبل بشائر الربيع مما يشير إلى أن كل شيء يؤكد ذلك، فالعرب والأكراد يحتفلون بالربيع لأنه منطلق الخير والبركة والجمال.

لقد كنّا ولفترة قريبة نرى عامة الناس في بغداد تجتمع في أماكن خاصة وقت حلول الربيع، وكانوا يطلقون عليه "الكسلة".

وعلى أي حال، لقد شاهدت أبناء الشعب في الجنوب يحتفلون يوم (٢١) آذار بالربيع ويذهبون إلى الأئمة الأكرمين ليمضوا يوماً أو يزيد في كربلاء والنجف احتفالاً بهذا العيد العراقي التقليدي منذ أقدم الأزمنة وإلى الآن.

الهوامش

١. طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بغداد/١٩٥٦/ج/٢. ص/٢٦٣-٦٤.

٢. المصدر السابق، ص/٩٢-٩٦.

ولمقدم المادة العلمية كتاب في أثر حضارات الوطن العربي على اليونان قيد الطبع، ومن ذلك البحث في نشوء المسرح اليوناني وتأثير العراق فيه.

٣. كريستنسن، آرثر، إيران في عهد الساسانيين، (ترجمة يحيى الخشاب وعبد الوهاب عزام)، القاهرة، ١٩٥٧، ص/١٦٢.

٤. طه باقر: موجز في تاريخ العلوم والمعارف في الحضارات القديمة والحضارة العربية الإسلامية، بغداد، ١٩٨٠، ص/٨٩.

٥. الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك، (تحقيق أحمد زكي)، مصر، ١٩١٤، ص/١٤٦، ويراجع أيضاً: الريس، محمد ضياء الدين، الخراج والنظم المالية في الدولة الإسلامية، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩، ص/٢٠٣.

٦. البيروني: القانون المسعودي، الدكن، ١٩٥٤، ج/١، ص/٢٦١.

٧. النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، مطابع كوستاتوماس، القاهرة، السفر الأول، ص/١٨٥.

٨. القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الأنشاء، (نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية-مطابع كوستاتوماس)، ج/٢، ص/٤١٨.

٩. القلقشندي: ج/٢، ص/٣٨٣.

١٠. القلقشندي: ج/٢، ص/٤٢٩.

١١. الريس: ذات المصدر، ص/٢٠٣.

١٢. طه باقر: ذات المصدر، ص/٨٩-٩٠.

١٣. الريس، ص/٥٤٦-٥٤٧.

١٤. القلقشندي: ج/٢، ص/٤٠٥.

١٥. ابن النديم: الفهرست، (تحقيق رضا تجدد)، طهران، ١٩٧١، ص/٣٨٦.

١٦. الشهرستاني: عبد الكريم، الملل والنحل، مطبعة الخانجي ١٢٣٦هـ، ج/٢، ص/٩٥-١٠٥. وهو حاشية كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الأندلسي.

١٧. القلقشندي: ج/٢، ص/٤٣٩.

عناصر عراقية قديمة في احتفالات الربيع المعاصرة

حينما يرى البعض منّا تقليداً معيناً تمارسه مجموعة من الناس فمن البديهي أن تطرأ لهم فكرة ما في أن ما يشاهدوه هو من الأمور العابرة التي قد يشاهدونها في أي مكان. إلا أن الباحث المستقصي لتلك الأصول يرى أمام ناظريه عناصر أخرى لا يراها آخرون فيوصّل لنا تاريخنا وأسسها بما قد يعود لآلاف السنين. وفي هذه الإلمامة المبسطة استعرض احتفالاً ربيعياً قامت به مجموعة من الأكراد عام (١٩٣٠) في أرجاء من محافظة نينوى وسجّلها لنا عالم الآثار الألماني "هنري فرانكفورت" الذي كان ينقب عن آثار مدينة "دور شروكين" العاصمة الآشورية التي بناها الملك سرجون بين عامي (٧١٣-٧٠٥ق.م).

لقد نشر فرانكفورت بحثه هذا في مجلة "عراق" الآثارية البريطانية باللغة الإنكليزية بعنوان "طقوس تموزية في كردستان" *Tammuz Rituals in Kurdistan*.

لقد سبقت الإشارة إلى أن الغاية من وراء طقوس الربيع هي لإخصاب الطبيعة ضمن منطق السحر الانجذابي أو التعاطفي عن طريق مبدأ المحاكاة. فحينما كانت الشمس تدخل برج الثور في نيسان كان ذلك بمثابة قران بكوكب الزهرة، الكوكب الدليل لبرج الثور. ولما كان هذا الأمر سماوياً كان لا بد أن يقوم به ما يمثل قوة السماء على الأرض، وقد اختاروا لذلك كاهناً وكاهنة. ثم حينما قويت السلطة السياسية وتقلصت لحدّ ما سطوة الكاهن الأعلى أخذ الملك يقوم بطقس يمثل فيه تموز وتمثل كاهنة جميلة الإلهة عشتار. كما مر بنا سابقاً.

يقول فرانكفورت:

حينما كنت أنقب في قصر سرجون في "دورشروكين" لحساب معهد جامعة شيكاغو استدعينا من دارنا ليلة العشرين من آذار ١٩٣٠، وسط أهازيج وتصفيق تصحبها رقصات كانت تجري في العراء. وأمام الباب رأينا قرويين جالسين وواقفين في حلقة دائرية يتوسطهم شخصان يقومان بالغناء والرقص. وكان أحد الرجلين يرتدي زي امرأة برداء أسود ويلبس الحجول والأساور والحجاب، أما الآخر فكان يرتدي قلنسوة مدببة عالية وجلد ماعز حول كتفيه وقد تم ربطه. كما كان يحمل عصا ثقيلة، وكانت اليدان سوداوين (أي مصبوغتان بالأسود) وبعد أن قاما بالرقص مقابلين لأحدهما الآخر اضطجع الذي بمظهر الرجل على الأرض. وهنا أظهرت المرأة حزنها وشرعت تلطم صدرها وتلقي التراب على رأسها، في نفس الوقت الذي استمرت فيه على الرقص. وكانت تجلب انتباه الآخرين إلى الرجل الملقى أرضاً. وكانت الرقصة عبارة عن محاكاة جرت بصمت في حين استمر الحاضرون بالغناء والتصفيق. ثم ألقت "المرأة" بنفسها إلى جانب الرجل مفعمة بالأسى.

وفي تلك الأثناء خرج أحد رجالنا (أي المشتغلين مع البعثة في التنقيب) من الدار وألقى بسطل من الماء، على الرجل المسجى، وواضح أن وجود ما يمثل "المرأة" إلى جانب الرجل فيه ما يشير إلى الزواج، ولو بشكل رمزي.

بعد ذلك قاما وركبا عصا وأخذا يسيران بها. وقد كان في هذا المشهد ما يوحي بأن الغاية منه جلب المطر.

ثم قال:

لقد كان الجيران الحاضرون من منطقة الفاضلية الذين يرسلون (شخصاً يدعى) "قاسم البغل" للرقص مع رجل آخر من "خرسباد" ليمثل دور المرأة. وفي القرية كانوا يجرون من دار إلى أخرى. وكان لزاماً على كل دار أن تعطيهم شيئاً، وكانت الهدية على العموم طعاماً. وبعد تجميعه يجتمعون لتناوله كوجبة طعام، ثم يصلّون إلى الله طالبين هطول المطر. أما إذا رفض أحد من الناس أن يعطي شيئاً يقوم القرويون بدخول داره وتحطيم كل شيء يقع بأيديهم!!.

ومما قاله فرانكفورت:

لقد أبلغنا "قاسم البغل" بوجود ذيل من جلد ماعز أسود وقرون من المادة نفسها يلبسها الراقص. ويقوم أكراد الجبال بالرقص في وضح النهار، وهم لا يخضعون فقط لحية معمولة من شعر الماعز، بل خراطيم أيضا معمولة من العظام والخشب، وهذا ما كان يعمله الناس في منطقة "الفاضلية" في الأيام السابقة.

ثم تطرق "فرانكفورت" إلى الأغنية التي كانت تصاحب الرقص، وأشار إلى صعوبة ترجمة النص. ثم أشار إلى أنه كان في الفاضلية سنة ١٩٣٢ وقد شهدت المنطقة انقطاعاً في المطر. وكان هناك شخص يدعى "خضر باقر سرناجي" لديه معرفة وافية بالتقاليد الكردية وأشار إلى أن الأغنية كانت تبدأ بكلمة لم يستطع أحد منهم ترجمتها، وقال بأن كلمة "قز" تعني الرجل الذي لم تنبت له لحية و"برات" يجب أن تعني امرأة. إلا أنه قال بأن الأكراد أبلغوه بأنها كلمات قديمة ولا يمكنهم ترجمتها.

لقد كانت كلمات أغنية "باقر سرناجي" الآتي:

كـــوزيرات، كـــوزيرات

أتـــى المطـــر، أتـــى المطـــر

وســتأتي الغلـــة والثقـــة عاليـــة

المنجـــل جـــاهز

واجعل اعداد كثيرة لحصد (الحبوب). كن على حذر، يوجد

(حبـوب) ولكـن القليـل منهـا. ضـعها علـى سـرج التحميـل

اجلبهـــا إلى الحقـــل المـــدروس

وقـــم بتهيئـــة الأكـــوام المدروســـة (مـــن الحبـــوب)

ولا تـــترك ســـنابل القمـــح شاخصـــة

وقـم بغربلتهـا مـراراً وتكـراراً في مهـب الـريح الغربيـة

إن مـــثمّن أســـعارها ســـيأتي لتقـــديرها

إن حصـــة الدولـــة، وحصـــة قســـم (الثـــابو؟)

(ومـع ذلـك بقـي) ٥٦٠ كمية في المخـازن
فقـم بخزنهـا وضـع الطـين عليهـا لكـي لا تـأتي
الطيـور إليهـا.

ثم يأتي دور "قاسم البغل" ويغني المضمون عدة مرات قائلاً:

قـز رابـات (واقفـة)، أمـام البيـت
الحنطـة في المخـزن
الشـعير في المخـزن
والبرغـل في الكـيس
والسمن موجود في الآنية المزججة
سـنعطيك حبوبـك ومـاءك
معجـزة مـن الله، إن شـاء الله

إنـه سـيهب المطـر
يـا إلهـي، يـا إلهـي
يارسـول الله
يامسـيح، ياموسـى، ياجبريـل
نسـتجيركم بـالله أن يررزقنـا
أتـت البركـة
أتـى موعـد الحصـاد
لقد حزمنا الحنطة على السرج ..إلخ.

ثم يقوم صاحب البيت بسكب الماء، ويأخذ خضر باقر بالغناء قائلاً:

تعـال أيهـا المطـر، تعـال أيهـا المطـر
إن معـدتي مضـطربة

وقـــــــــدمي عاريــــــــة

لقـــــد أتيــــت لـــــيلاً

لأنــــي أبــدو عاريــاً أثنــاء النهــار

الطحـــــــين والكـــــــيس

الســـــــمن في الجـــــــرار

وإذا كــان هنــاك ثمــة شــخص لا

فــإن زوجتــه مــن بنــات الهــوى!.

وهناك أغنية أخرى "لخضر باقر" لمناسبة الربيع تقول:

لقــــد أتـــى، لقــــد أتــــى

الغيـــث أتـــى، الغيـــث أتـــى

لقـــد أتـــت أوعيــة الحبـــوب المليئـــة

لقــــــــد جنيناهــــــــــا

لقـــــد وضـــعناها في أكـــــداس

لقد وضعناها على السرج (أي نقلناها).

ومما تحدث فيه "فرانكفورت" أغاني بعض الأعراب الذين كانوا يقطنون منطقة الزاب الأعلى، وأشار إلى امتلاكهم أغاني تخص دعوة المطر إلى الهطول:

يــــــــا أم الغيــــــــــث

أمنحينــــــــــا المطــــــــــر

إن راعينــــا هــــو حميـــد الأصـــلع!

ولعـــامين لم يبـــذر الحـــب (لقلـــة المطـــر).

آملين أن تكـون الـذرة لارتفـاع البـاب هـذا العـام

والشـــعير بأكـــداس لا حصـــر لهـــا

اعطينـــا المكافـــأة (البخشـــيش) في المنخـــل

وينمـــــــــــو ابنـــــــــــك غـــــــــــداً.

ومما قاله في ذلك بأن "بأم الغيث" مهم لأن العرب في الجانب الآخر في سوريا يستخدمون التعبير نفسه عند التغني في طلب المطر. وحينما كان رؤساء القبائل يقومون بالتضحية إلى الله طلباً للمطر تقوم النسوة بعمل فزّاعة (أي دمية) من الأغصان جاعلين شكلها على هيئة امرأة كثيرة الزينة يسمونها "أم الغيث" ثم يشرع الناس برفعها في موكب ويتبعها النسوة المغنيات. ومما أشار إليه الباحث بأن لحية الماعز ترتبط بإلهة الخصب السومري الذي يصحبه الماعز أو الخراف. من الواضح أن وجود امرأة ورجل في الرقص ثم الرقص بما يوحي بفكرة الزواج إنما يرجع هذا التقليد إلى عهود موغلة في تاريخ العراق القديم، أي فكرة الزواج المقدس لإخصاب الطبيعة، ولكن لما كانت التقاليد التالية لا تسمح بالقيام بذلك بين رجل وامرأة لجأ القرويون إلى قيام رجل بدور المرأة بشكل رمزي. أما وجود دمية "لام الغيث" فهي إشارة إلى تقاليد قديمة إلى ما يمثل الإلهة عشتار وعلاقتها بالربيع، في حين تمثل أغاني وأهازيج الربيع عكس التفاؤل بالخير لجلب المطر ليهل عام مليء بالخير.

وهكذا نرى أن الفولكلور الكردي بخصوص احتفالات الربيع قد استمد تقاليده من عناصر عراقية قديمة أصيلة.

الفصل السادس

من تموز إلى كاوه

استطعنا من الفقرات السابقة أن نكون جملة مفاهيم تؤكد أصالة الحضارة العراقية. ومن يتمعن في التراثين العراقي والفارسي القديم يرى انسلال المؤثرات العراقية في أمور الفن والإدارة والدين بشكل لا يحتاج إلى نقاش.

والأن لنأتِ إلى مسألة حساسة ومهمة بغية التحقيق فيها ولنأخذ ما لنا ونعطي ما علينا، سيما وإننا لا نبخل على أحد ليستعير ما يشاء ما دام الفن والعلم أخذ وعطاء، وإن بأمكان أبناء الأرض أن يبدعوا تحت الظروف المتماثلة. لقد ضحى العرب والمسلمون بأرواحهم من أجل نشر رسالة الله والحقيقة في إيران، ومن الواضح أن الذين لا يبخلون بأنفسهم من أجل الإصلاح سوف لا يبخلون بنتاجهم في ميادين الفن والعلم. والأن لنتطرق إلى أمر مهم ما دام هذا البحث مكرساً لاستقصاء حقيقة الأعياد والأحتفال بها ولا سيما ماله علاقة بالربيع. أما النقطة التي سنعالجها فتخص شخصيتي "الضحاك" الخرافية "وكاوه" الحداد.

قبل كل شيء لا بد من الإشارة إلى أن النتاج القصير الأمد والقريب للفرس قد حتّم عليهم إما الاعتراف بذلك أو اختلاق تاريخ لا وجود له. وعلى أي حال، لما كانت الشخصية الفارسية كثيرة الاعتداد بنفسها والذي شعرت به أثر البروز السياسي المفاجئ لها، اختارت طريق افتراض تاريخ وهمي لا تسنده الوقائع المقارنة أو الدراسات الآثارية، الأمر الذي يحدو الأن لايضاح نقاط كثيراً ما نمر بها ولكن دون تمحيص وبغية إلقاء الضوء على عدم علاقة العرب والأكراد ببعض ما تمت صياغته أرى التعرض إلى النقاط الأساسية في البحث.

لقد تمكن الباحثون من تقسيم تاريخ إيران إلى ثلاثة أقسام رئيسة:

١. العصر الأسطوري أو الخرافي، الذي اعتمد الرواية المتناقلة دون سند.

٢. العصر التأريخي.

٣. العصر الإسلامي.

أما القسم الاول فينقسم إلى فترتين:

أ. الدولة "اللبيشدادية": وقد حكم فيها تسعة ملوك مدة (٢٤٢٧) سنة وقد ارتأى "غفاري قزويني" في تاريخ "جهان آرا"، ومصادر فارسية أخرى اعتمدت الأخبار المتناقلة غير المدونة، أن الخليقة بدأت بمخلوقين هما:

"كيومرت"، وهو أول إنسان، والثاني هو الثور الذي صارت روحه (بعد موته) ملاكاً موكلاً بالحيوانات الأليفة، ونبتت من جسده كل النباتات[1]. ولعل هذا ما يذكرنا بجلجامش الذي أمسى قاضياً في العالم السفلي بعد موته وكان يرعى الحيوان في حياته. وحسب الأساطير الفارسية كان "كيو مرت" أول ملك من ملوك الدولة "البيشدادية"، وتعني كلمة بيشداد "المشروع الأول". وتقول المصادر الفارسية إن "كيومرت" كان يعيش في الجبال ويلبس جلود الأسود، وإنه دخل في حرب مع الشياطين وخسر ولده "سيامك" في تلك الحرب. ومما يدعيه الزرادشتيون أن "كيومرت" هو أبو البشر أي بما يمثل آدم. ومما تقوله تلك المصادر إنه بعد موته خرج من جسده أول زوج من البشر هما: "ماشيا "وماشينا"، اللذان خرج منهما سبعة أزواج، أحدهما "سيامك" و"سيامكي" !!.

وفي الواقع لا تحتاج هذه الروايات إلى ما سينسخها فهي متناقضة وكثيرة الخرافات. أما ملك هذه الدولة الأسطورية الخامس فهو الذي نبحث عنه، أي "الضحاك"، الذي تتناقض الروايات الفارسية وغيرها في أصله ومواصفاته، وسنأتي إلى ذلك فيما بعد. إلا أن ما تشير إليه بعض المصادر الفارسية أنه أجنبي واستولى على إيران ليحكمها ألف عام!!، وذلك حسب "غفاري قزويني".[2].

والملك الخرافي الآخر الذي تلا "الضحاك" فهو "افريدون" الذي عاش في زمانه كاوه (أو كافة) الحداد في مدينة أصفهان.

أما الدولة الخرافية "الكيانية" فقد حكم خلالها تسعة ملوك أسطوريون حكموا (٧٣٤) عاماً، أما أولهم فكان يدعى "كيقباذ". وكان منزوياً في الجبل، فأحضره البطل رستم وأجلسه على عرش إيران!!.

أما الذي تلا كيقباذ فهو "كيكاوس"، وتذكر المصادر الفارسية أن أهم عمل قام به خوضه لحرب شديدة ضد الشياطين والجن في "مازندران"، فوقع أسيراً بين أيديهم مع جمع من جيشه بعد إصابتهم بالعمى، لذلك هبّ البطل "رستم" لانقاذه وخاض سبع معارك تدعى "هفت خوان" قاتل خلالها التنين والساحر والشياطين وفي السابعة انتصر على الشيطان الأبيض لذا تخلص "كيكاوس" !!.

ومما سبق نفهم بأن تصور الفرس لتاريخهم القديم افتراضي، وأن القصص الواردة عنه لا تحتاج إلى تمحيص. أما "الضحاك" وكاوه فيقعان ضمن القسم الأول من التاريخ الخرافي الذي لا يُعتمد عليه، سيما وأن معظم تلك الأساطير لا يشير إلى علاقة بين "الضحاك" والقضاء عليه والاحتفال بالربيع، الأمر الذي يؤكد عدم علاقة الفرس بتلك الاحتفالات وأنها طارئة عليهم ومتأخرة عنهم.

سيما وأن الأخير يأتي طارئاً في معظم الروايات.

قبل أن نأتي إلى الروايات المتناقضة في أصل "الضحاك"، نأتي إلى قصته الخرافية التي لا يصدقها أبسط الناس، ومع ذلك جعلت منه ناراً على علم على الرغم من سذاجتها وما فيها من أكاذيب. ولنأتِ إلى ما قاله "المسعودي" في "مروج الذهب" قال: "ومن الناس من رأى أن "الضحاك" ذا الأفواه المقدم ذكره في هذا الكتاب الذي تنازعت فيه الفرس والعرب، من أي الفريقين هو، أنه خرج بكتفيه حيّتان فكانتا لا تتغذيان إلا بأدمغة الناس، فأفنى خلقاً من فارس، فاجتمعت إلى حربه جماعة كثيرة وأتاه "فريدون" بهم وقد سألوا راية من الجلود التي تسميها الفرس درفش كاوان فأخذ أفريدون الضحاك فقيده في جبل دنباوند على ما ذكرنا، وقد كان وزير الضحاك في كل يوم يذبح كبشاً ورجلاً ويخلط أدمغتهما ويطعم تلك الحيتين اللتين كانتا في كتفي الضحاك، ويطرد من تخلص إلى الجبال فتوحشوا وتناسلوا في تلك الجبال فهم بدو الأكراد، وهؤلاء من نسلهم. وللفرس في خبر الضحاك مع إبليس أخبار عجيبة وهي موجودة في كتبه[٢]!!.

وإذا كانت رواية "المسعودي" ليس فيها إشارة إلى "كاوه" فإن ما أشار إليه "الطبري" كما سنرى "والنويري" (٦٧٧-٧٣٣هـ) في "نهاية الارب" فيه ما يشير إلى ذلك،ومشيراً إلى علاقته بعيد المهرجان الشتوي لا الربيعي، قال النويري:

"وسبب اتخاذهم له (أي المهرجان)، أن بيوراسب (وهو الضحاك)، ويقال له ازدهاق ذو الحيتين والأفواه الثلاثة، والأعين الستة الداهي الخبيث المتمرد، لما قتل جمشاد، وملك بعده، غير دين المجوسية، وجاء إبليس في صورة خادم، فقبّل منكبيه، فنبتت فيهما حيتّان، فكان يطعمهما أدمغة الناس. فاجحف ذلك بالرعية، فخرج رجل بأصفهان، يقال له كابي، ويقال فيه كابيان، ودعا الناس إلى قتاله، فاجتمع له خلق كثير. فشخص الضحاك لقتاله، فهاله كثرة جمعه وفرّ منهم، فاجتمع الناس على كابي يملكونه عليهم، فأبى ذلك وقال: ما أنا من أهل الملك، وأخرج صبيا من ولد جمشاد، يسمى افريدون وملّكه، فأطاعه الناس فيه وملكّوه عليهم، وخرج افريدون في طلب الضحاك ليأخذ ثأر جده فظفر به، وجعل ذلك اليوم عيداً، وسماه المهرجان. ويقال أن المهرجان هو اليوم الذي عقد فيه التاج على رأس اردشير بن بايك، أول ملوك الفرس الساسانية"[٤]. ويشير "القلقشندي" أيضاً إلى أن الانتصار على "الضحاك" كان أيذاناً ببدء المهرجان لا النوروز[٥].

إن ما نستنتجه من الروايات السابقة أنها تعتمد على السطحية والسذاجة، إذ لا يعقل بأن شيئاً اسمه الشيطان يمكن أن ينبت حيتين في كتفي شخص، ثم عدم تمكن الناس من قتلهما، ثم عيشهما على أدمغة البشر، والأغرب من ذلك أنه عاش ألف سنة، كما مرّ بنا. ومن الواضح أن معظم من يستعرض الروايات القديمة يرى أنها إما أن تذكر هذه القصة الخرافية دون ربطها بمناسبة أو أنها تربطها بالمهرجان لا النوروز. بعد تلك الإلمامة العابرة لا بد أن نأتي إلى جملة سطور نلخص بموجبها ما قيل عن أصل "الضحاك" الأسطوري لنستنتج منها أموراً أخرى من نسج الخيال، الأمر الذي يؤكد فساد أسطورة الربيع الفارسية.

لنستعرض على سبيل المثال ما قاله "أبو جعفر الطبري" (٢٢٤-٣١٠هـ) حول هذا الأمر. قال الطبري:

"وحدثت عن هشام بن محمد، قال: ملك الضحاك بعد جم -فيما يزعمون، والله أعلم- ألف سنة، ونزل السواد في قرية يقال لها برس[٦] في ناحية طريق الكوفة وملك الأرض كلها، وسار بالجور والعسف، وبسط يده في القتل، وكان أول من سن الصلب والقطع، وأول من وضع العشور، وضرب الدراهم، وأول من تغنى، وغنى له، وقال:

ويقال إنه خرج في منكبه سلعتان فكانتا تضربان عليه، فيشتد عليه الوجع حتى يطليهما بدماغ إنسان، فكان قتل لذلك في كل يوم رجلين ويطلي سلعته بدماغيهما، فإذا فعل ذلك سكن ما يجد، فخرج عليه رجل من أهل بابل فاعتقد لواء، واجتمع إليه بشر كثير، فلما بلغ الضحاك خبره راعه، فبعث إليه: ما أمرك. وما تريد؟ قال: ألست تزعم أنك ملك الدنيا، وأن الدنيا لك! قال: بلى، قال: فليكن كلبك على الدنيا، ولا يكونن علينا خاصة، فإنك إنما تقتله دون الناس فأجابه الضحاك إلى ذلك، وأمر بالرجلين اللذين كان يقتلهما في كل يوم أن يقسما على الناس جميعاً، ولا يخص بهما دون مكان. قال: فبلغنا أن أهل أصبهان من ولد ذلك الرجل الذي رفع اللواء لم يزل محفوظاً عند ملوك الفرس في خزائنهم، وكان فيما بلغنا جلد أسد، فألبسه ملوك فارس الذهب والديباج تيمناً به"(٧)!!.

ولنأتِ الآن إلى تفنيد ما تم نقله من مزاعم: قبل كل شيء لا يوجد إنسان يعيش بما قدر له "الضحاك" أن يعيش. والأمر الثاني إنه نزل في قرية "برس"، والتي قال عنها "ياقوت الحموي": "قرية كان ينزلها الضحاك بيوراسب ببابل"(٨). والذي يبدو أن النسب أو الصفة "بيوراسب" هو تحريف "لبورسبا" التي تقع على مسافة (١٥كم) إلى الجنوب من مدينة بابل على الطريق إلى الكوفة، وهذا الافتراض ربما كان مقبولاً لدى واضعي هذه الافتراضات لأن "الطبري" وآخرون يشيرون إلى هذه المدينة دون تحديدها. لقد قال "الطبري": "وبلغنا أن الضحاك هو نمرود، وأن ابراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه ولد في زمانه، وأنه صاحبه الذي أراد إحراقه"(٩)!! ومن الواضح أن متناقلي الأخبار يرون في "بورسبا" مدينة "برس نمرود". وإذا كان هذا مقبولاً لديهم فإن هذا يجب أن يعني أن "الضحاك" حكم في العصر البابلي القديم، ولكن لما كانت الكتابة المسمارية قد وصلت حداً من النضج وذكرت الصغيرة والكبيرة عن أمور كثيرة، إلا أننا لم ولن نعثر على ملك بهذا الاسم ولا بهذه المواصفات، سيما وأن جداول إثبات الملوك معروفة.

أما نسب القتل والجور والعسف له وكذا الصلب والقطع، كأول شخص فهي جناية وتلفيق على التاريخ العراقي القديم وطعن من الفرس به واليهود.

إلا أن الأنكى من ذلك هو أنه كان يُقتل له في كل يوم رجلان ليستفيد من دماغهما، فحسب ما مرّ من قول "المسعودي" لغذاء حيتين، أما حسب "الطبري" فلكي

يسكن الألم الناجم عن وجود سعلتين (بكسر السين)، وهي زيادة تحدث في الجسد مثل الغدة، تمور بين الجلد واللحم عند تحريكها[١٠].

وكما لا يخفى أن مثل هذا العلاج كاذب لنسب روح الهمجية إلى شخص منسوب إلى العراق حسب مصادر، أو العرب حسب أقوال أخرى.

ومن الطريف أن يشير "الطبري" إلى أن الرجل البابلي الذي حمل اللواء احتجاجاً على "تعسف" الضحاك أن أهل أصفهان كانوا من نسله!. وكما مر بنا أن "كاوه" افترضته المصادر الفارسية من تلك المدينة، كما ويتصل الحديث بلواء حملته ملوك الأعاجم حسب "الطبري"، ويعني به "الكافيتيان" الذي يرتبط باسم "كاوه" أو "كافة" وقيل أن العرب استولوا عليه في معركة القادسية[١١].

إذاً على الرغم مما ورد في النص من طعن بملك، ولو خرافي، كان في العراق فإن المصادر ترى أن "كاوه" من أصل عراقي.

والآن لنأتِ إلى نص متناقض السطور ولا يمكن تصديقه. قال "الطبري":

"وبلغنا أن افريدون –هو من نسل جم الذي كان من قبل الضحاك. ويزعمون أنه التاسع من ولده، وكان مولده بدنباوند، خرج حتى ورد فنزل الضحاك وهو غائب عنه بالهند، فحوى على منزله وما فيه، فبلغ الضحاك ذلك، فأقبل وقد سلبه الله قوته، وذهبت دولته، فوثب به افريدون فأوقفه وصيّره بجبال دنياوند، فالعجم تزعم أنه إلى اليوم موثق في الحديد يعذب هناك[١٢]"!.

وهناك قصة أخرى يذكرها "الطبري" وهي أكثر سخفاً مما مر، قال:

"وذكر ابن هشام أن الضحاك لم يكن غائباً عن مسكنه، ولكن افريدون ابن اثغيان جاء إلى مسكنه في حصن يدعى "زرنج ماه مهروزمهر"، فنكح امرأتين له تسمى إحداهما: اروناز والأخرى سنوار. فذهل بيوراسب (وكما قلت هو لقب للضحاك يبدو أنه محرّف عن بورسبا) لما عاين ذلك، وخر مدلّها لا يعقل فضرب افريدون هامته بجرز (أي عمود من حديد) له ملتوي الرأس، فزاده ذلك وهلاً وعزوب عقل، ثم توجه به افريدون إلى جبل دنباوند، وشدّه هناك وثاقاً، وأمر الناس باتخاذ مهرماه مهروز –وهو المهرجان اليوم الذي أوثق فيه بيوراسب –عيداً، وعلا افريدون سرير الملك[١٣]"!.

وعلى أي حال إن ما نستفيده من هذه القصة على الرغم مما فيها من كذب لا تربط بين الضحاك والاحتفال بالنوروز بل بالمهرجان.

وقال "الطبري":

"والفرس تزعم أن الملك لم يكن إلا للبطن الذي منه أوسهبخ وجم وطهمورث، وأن الضحاك كان غاضباً وأنه أغضب أهل الأرض بسحره وخبثه، وهول عليهم بالحيتين اللتين كانتا على منكبيه، وأنه بنى بأرض بابل مدينة سماها حوب، وجعل الغيط أصحابه وبطانته، فلقي الناس منه كل جهد وذبح الصبيان"[١٤]!!.

وبما يخص الحيتين أيضاً نأتي إلى الأقوال المتضارية حولهما في فقرة واحدة يذكرها "الطبري":

"ويقول كثير من أهل الكتب: إن الذي كان على منكبيه كان لحمتين طويلتين ناتئتين على منكبيه، كل واحدة منهما كرأس الثعبان، وأنه كان بخبثه ومكره يسترهما بالثياب، ويذكر على طريق التهويل أنهما حيتان. يقتضيان الطعام، وكانتا تتحركان تحت ثوبه إذا جاع كما يتحرك العضو من الإنسان عند التهابه بالجوع والغضب ومن الناس من يقول: كان ذلك حيتين، وقد ذكرت ما روي عن الشعبي في ذلك الله أعلم بحقيقته وصحته"[١٥]. فهذا هو "الطبري" يشكك بهذه الروايات التي ليس لها من سند ولا يقبلها العقل. ولكن هل يذكر الطبري كاوه!.

الجواب: نعم لقد ذكره بصيغة "كابي" وهي صيغة عن "كافي" أو "كافة" وقد ذكره أيضاً مع القصة الملفقة عن "الضحاك" الخرافي، قال: "وذكر بعض أهل العلم بأنساب الفرس وأمورهم أن الناس لم يزالوا من بيوراسب هذا في جهد شديد، حتى إذا أراد الله إهلاكه وثب به رجل من العامة من أهل أصبهان يقال له كابي، بسبب ابنين كانا له أحدهما رسل بيوراسب بسبب الحيتين اللتين كانتا على منكبيه. وقيل: إنه لما بلغ الجزع من كابي هذا ولده أخذ عصا كانت بيده، فعلق بأطرافها جراباً كان معه، ثم نصب ذلك العلم، ودعا الناس إلى مجاهدة بيوراسب ومحاربته، فأسرع إلى إجابته خلق كثير، لما كانوا فيه معه من البلاد وفنون الجور، فلما غلب كابي تفاءل الناس بذلك العلم، فعظموا أمره، وزادوا فيه حتى صار عند ملوك العجم علمهم الأكبر الذي يتبركون به، وسموه درفشكابيان، فكانوا لا يسيرون إلى في الأمور العظام، ولا يرفع إلا لاولاد الملوك إذا وجهوا في الأمور العظام". وقال:

"وكان من خبر كابي أنه شخص من أصبهان بحق تبعه والتف إليه في طريقه، فلما قرب من الضحاك وأشرف عليه، قذف في قلب الضحاك منه الرعب فهرب عن منازلة، وخلى مكانه، وانفتح للأعاجم فيه ما أرادوا، فاجتمعوا إلى كابي وتناظروا، فاعلمهم كابي أنه لا يتعرض للملك، لأنه ليس من أهله، وأمرهم أن يملكوا بعض ولد جم، لأنه ابن الملك الأكبر أو شهنق بن قرواك الذي رسم الملك، وسبق إلى القيام به، وكان افريدون بن اثفيان مستخفياً في بعض النواحي من الضحاك فوافى كابي ومن معه، فاستبشر القوم بموافاته، وذلك أنه كان مرشحاً للملك برواية كانت لهم في ذلك، فملكوه، وصار كابي والوجوه لافريدون أعواناً على أمره، فلما ملك وأحكم ما احتاج إليه من أمر الملك، واحتوى على منازل الضحاك اتبعه فأسره بدبناوند في جبالها"(١٦)!!.

عن رأي آخر واهن، قال "الطبري":

ويعض المجوس تزعم أنه جعله أسيراً حبيساً في تلك الجبال موكلاً به قوم من الجن"(١٧)!!.

وقال:"وقال بعض العلماء الفرس: لا نعلم أحداً كان أطول عمراً_ ممن لم يذكر عمره في التوراة_ من الضحاك هذا.... فإنه ذكر عمره كان ألف سنة"!!.

وعن رواية أخرى، قال الطبري:

" وإنما ذكرنا خبر بيوراسب في هذا الموضع، لأن بعضهم زعم أن نوحاً عليه السلام كان في زمانه أو أنه كان أرسل إليه وإلى من كان في مملكته" (١٨) !.

ومن الواضح هذا خلط جديد بين فترة مفترضة لحكمة زمن إبراهيم وفترة بعيدة عنه وهي زمن نوح.

وإضافة إلى تسمية الملك الخرافي بالضحاك فقد أشرت إلى تسمية بيوراسب، وهي كما أشرت نسبة إلى بورسبا، كما أرى، فقد سمته الفرس بالازدهاق. لقد قال الطبري في ذلك:

" والعرب تسميه الضحاك، فتجعل الحرف الذي بين السين والزاي في الفارسية ضاداً، والهاء حاءاً، والقاف كافاً "(١٩).

وقال:" حدثت عن هشام بن محمد بن السائب_ فيما ذكر من أمر الضحاك وتزعم

أن جماً كان زوج أخته من بعض أشراف أهل بيته، ملّكه على اليمن فولدت له الضحاك. قال: واليمن تدعيه، وتزعم أنه من أنفسها، وأنه الضحاك بن علوان بن عبيد بن عويج، وأنه ملك على معد أخاه سنان بن علوان بن عبيد، وهو أول الفراعنة، وأنه كان ملك مصر حين قدمها إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام "[٢٠]!!.

ثم يذكر الطبري آراء أخرى للعجم حول نسب الضحاك وليس في أجداده اسم عربي.[٢١] ومما قاله: "ويزعمون (أي المجوس) أن أم الضحاك كانت ودك بنت ديونجهان، وأنه قتل أباه تقرباً بقتله الى الشياطين، وأنه كان كثير المقام ببابل[٢٢]. وهذا رأي خرافي آخر.

وعلى أي حال، قبل أن أبدي رأياً في تحليل بعض عناصر الأسطورة، أرى من الضروري الإشارة إلى ما ذكره الدكتور جواد علي في "المفصّل" عن رأيه بأصل كلمة الضحّاك، وقال:

"وقد أخذ أهل الأخبار (ضحاكهم) هذا من (اسحاق) كما أخذ العدنانيون (ويزكهم) من (اسمان) فصيّروه (منشخر) على نحو ما ذكرت، وقد حكت إن معنى (اسحاق) في العبرانية (الضحاك)، وبدلاً من أن يقولوا إنه (ويزك) من اسم (اسحاق) في العبرانية أخذوا معنى الاسم فصيّروه اسماً عربياً هو الضحاك، وجعلوه قحطانياً من الأزد"[٢٣].

وعلى أي حال، باعتبار كاتب هذه السطور آثارياً، فإن وجهة النظر التي تتناقلها كتب التاريخ المجردة عن السند تكون خاضعة للأخذ والرد والتمحيص في محتوياتها لكي تعطي هذا الموضوع المهم حدوداً واضحة ومبررات فكرية وتاريخية لا نغبن فيه حق أحد، ولا ندعي كذب ما حملوه في ذاكرتهم وعلى الأقل في جزء من التفاصيل.

فما هي حقيقة "الضحاك" وأسطورته من وجهة الدلائل الآثارية؟

يعد الخوض في مادة المعتقدات من الأمور المهمة والحساسة ما دام يحتاج إلى المقارنات والدراسة المستفيضة بشكل موسع ومستمر. ويتم الوصول إلى النتائج المرجوة باستعراض المادة المكتوبة ومراجعة الأشكال الفنية ذات العلاقة بالمعتقدات.

لنبدأ الآن من منطلق نعده النقطة المهمة للدراسة مسألة "الضحاك" المفترض، وذلك بمراجعة لقبه "البيوراسب".

لقد أشرت آنفاً بأن أقرب اسم إلى اللقب "بيوراسب"، هو "بورسبا"، وهي مدينة "برس نمرود" التي أشارت المصادر العربية الإسلامية والفارسية إلى أنها تقع قرب مدينة بابل وفي الطريق إلى الكوفة. وكما رأينا أن الروايات تربط بين هذه المدينة والنبي إبراهيم، وأن إضافة كلمة " نمرود" هي إشارة إلى ملك خرافي كان يحكم المدينة، لم نعثر له على اسم بين الملوك البابليين، ومن الجدير بالذكر أن عامة الناس في المنطقة يعتقدون بتلك الرواية، ويرون في زقورة المدينة العالية والمتصخرجة الطابوق الأخضر أنها مكان أحرق فيه النبي ابراهيم ولم تنل النار منه.

اذاً "بورسبا" هي المدينة التي ينتسب إليها الملك الخرافي "الضحاك"، الذي سيطر على العالم من مصر وجزيرة العرب والعراق ثم إيران والصين ثم الهند!!.

ومن المعروف أن هذه خرافة لا تقرها الدلائل المكتوبة أو الدراسات المقارنة من قريب أو بعيد.

ولكن هل ندحض كل شيء بخصوص هذا الملك الخرافي؟

قبل كل شيء ينبغي أن نعلم بأنه لا يمكن أن ينشأ شيء من لا شيء، إلا أن هناك نقطة مهمة وهي أنه حينما تختلط الأسطورة أو المعتقد بأمور أخرى للتعبير عن صيغة سياسية يحصل الإرباك من هنا.

إنني أعتقد بأن قصة "الضحاك" الخرافي "وكاوه" أسطورة دينية لا علاقة لها بالسياسة. ولكن لما كان الفرس قد اقتبسوا العديد من مآثر الحضارة العراقية فقد حاولوا تحريف الجانب الفكري الأسطوري إلى سياسي بقصد مدّ سيطرتهم الوهمية واختراع ملوك لهم من أمهات أفكارهم ما دام التاريخ الفارسي قصير الأمد.

ولنأت إلى نقطة مهمة وهي إذا كان "الضحاك" المفترض هو من "بورسبا"، فما هو أكثر شيء يميز هذه المدينة عن غيرها؟.

الجواب:- لقد كانت بورسبا أهم مدينة بابلية لعبادة إله مشهور منذ الفترة الأكادية في أقل الاحتمالات، ثم انتشرت عبادته إلى أرجاء العراق و سورية. وقد امتدت عبادته إلى الفترات المتأخرة مثل السلوقية اليونانية، كما عثر المنقبون على معبد لهذا الإله في مدينة الحضر العربية، إضافة إلى كتابات تشير إليه. وهذا الإله الذي نتحدث عنه هو "نابو" أو "نبو".

ترى ما هي الشعارات والأوصاف التي حددت مواصفات هذا الآله؟.

لقد اعتبر البابليون الإله "نابو" بمثابة ابن لإلهم الكبير "مردوخ" وتبرز أهميته في أعياد الربيع العراقية القديمة بكونه هو الذي يخلص أباه من الأسر كبديل عن تموز، لذلك كان الموكب الاحتفالي يبدأ من هذه المدينة لينتهي إلى مدينة بابل.

إذا لهذا الإله دور أساسي في أعياد الربيع العراقية، ومن هنا ينبغي التأكيد عليه بما يوضح الافتراض الذي نأتي إليه كبديل عن الأسطورة الفارسية المشوهة.

لقد كانت أهم مواصفات هذا الإله هو بكونه إلهاً للمعرفة والحكمة، كما عبد كمقرر للمصائر، وحينما انتقل إلى الآشوريين أمسى مفجراً للينابيع.(٢٤).

واذا ما أتينا إلى الشعار الذي يمثل الإله "نابو" فما وصلنا من تمثيل له شكل القلم ما دام إلهاً للمعرفة، إلا أن هناك شعاراً آخر له وهو "التنين".

وعلى أي حال، يبدو أن أفضل أسلوب نأتي منه إلى وجه المقارنة هو بحث خصائصه في فترات متأخرة.

حينما يستعرض المرء الفكر الديني لمجموعة من سكان العراق يتواجدون في الجنوب بشكل خاص، وأعني بهم الصابئة، يأتي إلى نتائج مهمة تتمثل في أنهم يحملون بعض مواصفات الديانة العراقية القديمة التي كانت منتشرة بين السومريين والبابليين ولا سيما فيما يتعلق بالمواصفات الروحانية المفترضة للكواكب السيارة، فلديهم على سبيل المثال"شامش" وهو "شمش" البابلي أي "الشمس" و"سين" أي القمر، وكذلك هو استمرار للإله الذي نحن بصدده. وقد خصوه بعين المواصفات العراقية القديمة بكونه الهاً للمعرفة والحكمة. وبصدد هذا الإله لديهم نقطة مهمة نستفيد منها ونعدها نقطة أساسية.

يرى الصائبة بأن كل يوم من أيامنا السبعة يتحكم فيه كوكب سيار، فيوم الأحد هو للشمس، والاثنين هو للقمر، والثلاثاء هو للمريخ، أما الأربعاء هو للكوكب عطارد، لقد قالوا فيه بأنه "أريه هبشبه" ويتحكم به "أنبو"(٢٥). ولو أتينا إلى مدينة الحضر لرأينا وجود سبعة تماثيل من الرخام تمثل الأيام السبعة التي هي عبارة عن الكواكب السيارة. أما التمثال الذي يمثل الأربعاء فقد مثلوه بشكل رجل له أجنحة صغيرة فوق الرأس وعند الساقية أيضاً، وحمل بيسراه عصا يعلوها جناحان أسفلهما شكل دائرتين. ومما تجدر الإشارة إليه أن تمثالاً بهذه المواصفات موجود في المتحف

العراقي وقد دعاه الإغريق "هرمس" والرومان "ميركوري"[٢٦]، ومن المعروف أن هذين الاسمين إشارة إلى الكوكب عطارد، أي بما يماثل ما خصصت له الصابئة من أيام الاسبوع. وتمثل الأجنحة سرعة تنقله ولكونه مراسلاً للآلهة، ومن المحتمل أن يمثل ذلك السرعة العالية التي يتحرك بها هذا الكوكب.

وحينما نراجع بعض كتب التنجيم العربية الإسلامية مثل "التفهيم"للبيروني[٢٧]وكتب التنجيم الهندية[٢٨]وحتى الأوروبية[٢٩]فإننا نرى بأن رمز عطارد يتمثل بعصا يلتف عليها أفعوان ويتوجها جناحان، وقد سمي هذا الشعار لدى اليونان بشعار هرمس أو "الكادوسيوس" *Caduceus*.

وعلى أي حال، لو رجعنا إلى أرضية حضارتنا العريقة وتفحصنا آثارها فهل نرى مثل هذا الشعار فيها؟.

ربما يعلم القليل بأن الشعار المتمثل بعصا يلتف حولها أفعوان شعار عراقي يعود لنحو أربعة آلاف ومائتي سنة في أقل تقدير، وقد عثر الآثاريون على أجزاء من حجر الستيتايت يظهر عليه بالنحت البارز المشهد أو الشعار الذي نتحدث عنه كما في (الشكل١٤)، وهو مهدى من الأمير السومري جودياً إلى الإله "نن كش زيدا"، ويعني اسمه "سيد الخشب الجيد"، ويبدو أن التسمية جاءت من القضيب الخشب الذي تلتف عليه الحيتان. وقيل ربما "كان الرب الشجرة"[٣٠].

على أي حال لو أوغلنا في التاريخ الفكري اليوناني نرى وجود إله أطلقوا عليه اسم "اسكولاب" أو "اسكلبيوس" وهو "في الميثولوجيا اليونانية إله الطب وحارس الأطباء (وقد) زعم لوشيانوس (المؤرخ اليوناني) أنه ولد من بيضة غراب على صورة حيةٍ... وكان يرمز إلى اسكولابيوس تارة بصورة حيةٍ وأخرى بصورة رجل عبوس لحيان يجعل حول ذراعه حيةً أو تجعل الحية حول عصا قابض عليها بيده ...ولا يزال الأطباء يستخدمون رسم الحيةً على بعض أوراقهم وملابسهم الرسمية إشارة إلى أنهم من أتباع اسكولابيوس أو تفاؤلاً بالشفاء مع الدلالة على الحكمة"[٣١].

وهنا نأتي إلى نقطة مهمة، وهي أن إله مدينة "بورسبا" من مواصفاته الحكمة والمعرفة، وبما أن الطب معرفة فيكون بذلك هو الإله المقصود في كونه رمزاً للطب، ولكن هل من ربط بين "نن كش زيدا" و"نابو" ؟.

الجواب: لقد كان هذا الإله في التراث العراقي القديم "ابن ننازو إله الأطباء وكان اله خصب يموت ويبعث حياً مثل تموز الذي كان رفيقه عند باب السماء وصوّر برأس ذي حيتين تخرجان من كتفه ولحيته طويلة وعلى رأسه التاج"(٣٢).

ومن الواضح أن هذا التمثيل كان قبل اتخاذ اليونان لشعارهم المقتبس عن العراق بألفي سنة.

إن ما توصلنا إليه من نتيجة أن الإله الأكادي والبابلي "نابو" يماثل في جانب خصائصه الإله السومري "نن كش زيدا".

وعلى أي حال، بعد انتهائنا من إيجاد المشابهات والمطابقات لمواصفات "نن كش زيدا" بالإله "نابو" ثم اقتباس اليونان والرومان له بشكل "اسكولابيوس" و"هرمس" ثم مواصفات الكوكب عطارد في التنجيم العربي والهندي، فإننا نأتي إلى نقطة مهمة تتمثل في أن المواصفات المعطاة لكل من "نن كش زيدا" المتمثلة بشخص تخرج من ظهره افعوان أو بعصا فقط عليها أفعوان فإننا نسترجع الذاكرة بمواصفات " الضحاك" المزعوم. وقبل أن ننهي الموضوع ترى هل تفيدنا التسميات السابقة في تحديد اسم "الضحاك" ؟

من الضروري أن نعلم بأن معبد الإله نابو في بورسبا كان يدعي "أي –زيدا" وزقورته التي سميت "بيت القادة السبعة للسماء والأرض"(٣٣).

والآن: ألا يوجد شبه واضح بين الاسم الفارسي "ازدهاق" و"أي-زيدا". ولكن ربّ سائل يسأل بأنه ما زال هناك فرق بين "أي-زيدا" و"الازدهاق".

نجيب بأنه في اللغة السومرية والكتابة المسمارية حينما يضاف للاسم أو ينسب إليه فإن الأداة "أك" تستعمل. وإذا كان هناك حرف ساكن فإن الألف فقط من "أك" تظهر في الكتابة المقطعية في حين يهمل الكاف، إلا أنه كان يلفظ حتماً، لأن الأصل "أي-زيد- أك" فكتبت دون كاف، إلا أن المختصين بالسومريات يضعون "كافا") صغيرة في النهاية للإشارة إليها ولم تكتب في النص المسماري. وهي وبالحرف اللتيني كالآتي:

وهذا يعني أن معبد "نابو" كان يلفظ "أي -زيد- أك" وهو اسم سومري على الرغم من أن "نابو" تسمية أكادية بابلية. أي أن الإله "نابو" كان يسمى باسم معبده، والذي نرى أنه تحول إلى "ازدهاق" الفارسية.

وحسب هذا الرأي نكون قد برّأنا "الضحاك" المزعوم مما وجهت إليه الأسطورة الفارسية من مواصفات لا تليق بالحضارة العراقية إلى جانب كونها منفية من العقل والمنطق تماماً. وقبل أن ننهي الكلام على الإله "نابو" لابد من التطرق إلى بعض مواصفاته من خلال نصوص تركها عاهل بابل الكبير "نبوخذ نصر" (٦٠٤-٥٦٢ ق.م) في معبد "أي –زيداك". لقد قال في كتابه مدونة برقم (٢١١٨٩-ب)، حسب ترقيم البعثة الألمانية في مطلع هذا القرن ونقتبس منها سطراً: -

"نبو (نابو) أيها الإله امنحني الخلود". وكذا كتابه من تل ابراهيم المقابل للمعبد جاءت بهذا النص ورقمها (٢١١٤٩). وكذا كتابة أخرى وجدت في المعبد تشير إلى بناء شارع الموكب للإله نابو ويسميه "الوزير المبجل" ليمنحه الخلود ورقمها (٢١١٨٧-ب). وفي الكتابة المرقمة (٢١٢٠٣) وجدت في معبد "آي –زيداك" قال نبوخذ نصر:

أي زيداك ذلك المعبد الحقيقي الذي شيدته في بارسيب وبسور ضخم من القار والطابوق المحروق أمرت بتطويقه،

أيها المعبد خاطب ربي نابو. حدثه عني بأحسن ما تشاء".

وهذه إشارات إلى أن "نابو" كان يمنح الخلود والصحة الدائمة. كما وتفيدنا عبارات النص الأخير في التأكيد على أن المعبد كانت له صفة حيّة ويحمل مواصفات إلهه ويمكن مخاطبته وبالتالي فإن الـ "آي زيداك" يمكن أن يكون "نابو" وبديلاً عنه.

وبعد هذا الاستعراض لتلك الاندماجات التي طمست معالم الأصول العقائدية نأتي إلى قصته "كاوه" أو "كافة".

على أي حال، إن المصادر الفارسية أشارت إلى أن "كابي" أو "كاوه" شخص بابلي جاء إلى أصفهان. وبما أنه لا علاقة له بالربيع، كما ورد في المصادر الفارسية القديمة والعربية الإسلامية، نستخلص أن "كابي" أو "كاوه" هو عينة تموز وقد تم تحريف قصته. وكما مرّ بنا كان المواطنون الأكراد يقومون حتى بأداء رقصات رمزية تمثل الزواج المقدس عبر خمسة آلاف سنة أو يزيد. ومما تجدر الإشارة إليه أن الأمير السومري العراقي جوديا حينما قدّم إناءه الذي تزينه الأفعوان كان ذلك والكوتيون الذين قدموا من المناطق الجبلية الشمالية موجودين في جنوب القطر قبل انحسارهم مرة أخرى تجاه الشمال، وهذا يعني الإمكانية الواضحة للتطعيم الفكري بين السومريين

والكوتيين، سيما وإن النصوص المسمارية من الأف الثاني ق.م التي جائتنا من مدينة"ماري"، على الحدود العراقية السورية أشارت إليهم بلقب "قوتو"[٢٤]. ومن ثم فإن اسمرار التراث العراقي القديم بين أبناء شعبنا الكردي يؤكد ارتباطهم بوطنهم وبأخوتهم حملة الحضارات السابقة من سومريين وأكاديين وبابليين وآشوريين، وبالتالي فإنهم هم الذين طعّموا الفكر الفارسي بالعديد من المهارات والتقاليد ومن ذلك الاحتفال بأعياد الربيع عبر العراق...والنوروز عراقياً...ولكن إذا ما أتينا إلى "كاوه" أو "كافي" (البابلي) الذي ذهب إلى أصفهان وغامر بنفسه للقضاء على" الضحاك" فإننا نرى بأن أهم خصائصه هو دحر قوة وصفت بأنها معتدية. وكما هو شائع لدى المواطنين الأكراد أنه كان حداداً على الرغم أن معظم المصادر العربية الإسلامية لا تشير إلى ذلك.

وعلى أي حال، لو أننا تذكرنا شخصية تموز الراعي الذي امتاز بالجسارة، وجاء بمصيره ليعلل لنا الفصول الأربعة ابتداء من الربيع، تأتي إلى ذاكرتنا مقارنة سريعة ومؤكدة بين شخصيته وكاوه الحداد. نستنتج من ذلك إذاً أن شخصية البطل الكردي هي نفسها مواصفات تموز مما يشير إلى عمق الأصول العراقية القديمة.

كاوه.... كابي.... كافيان..... كيبل:

لقد أشرت سابقاً إلى أن مادة الأديان والمعتقدات صعبة التناول والتحليل ولا سيما إذا كانت المادة المبحوثة تخص فترات متأخرة الأمر الذي يستدعي سعة الاطلاع وإيراد الأدلة المقنعة الخاصة بكل حالة ننوي بحثها.

إننا كثيراً ما نسمع باسم البطل الكردي المعروف "كاوه"، الذي كان حدّاداً، وحينما قضى على الشرّ تمّ الاحتفال الذي يصادف وقت الربيع.

والآن لنسأل: هل هناك من شخصية، ولو أسطورية عقائدية، باسم "كاوه" وبمواصفاته أو قريباً من ذلك في التاريخ القديم؟

إن من يتابع تراثنا العراقي القديم يراه ثروة هائلة من الفرضيات والمواصفات الفكرية التي وضعت لحلّ إشكالات الحياة والكون. وكما نعلم أن عقائد العراق القديم لها صلة بعناصر الطبيعية كالسماء، الأرض، النبات، الحيوان، المرض، الولادة، بل حتى المعادن والنار.

لقد أشرت إلى أهم أسطورة في العراق القديم تتمثل في قصة تموز وعشتار. إلا أنه من الواضح أن بطل هذه القصة لم يكن دوماً "تموز" بل بمواصفاته التي يأخذها الإله "مردوخ" في بابل، والإله "آشور" لدى الآشوريين، في حين كان الاله الشمس لدى الكنعانيين بمواصفات تموزية أيضاً.

إذاً لقد كان الإله المسيطر في مدينة أو دولة هو الذي يأخذ دور تموز لكل من حالتي بعثه وموته. ولكن ماذا عن مواصفات "كاوه" إذ يحق لنا أن نسأل فيما إذا كان هناك ما يوازيها في الفكر العراقي القديم؟.

لقد ورد في النصوص السومرية أن هناك إلهاً للتعدين والنار يدعى "كيبيل" وبالأكدية "كيرو"، "الذي كان يحل النور مكان الظلمة ويحبط خطط السرّاق وصهر المعادن"[٣٦]، قد كان ذلك منذ نحو (٤٣٥٠ سنة). والآن لنسأل فيما إذا كان "كاوه" هو عينه "كيبيل" سيما وإنه ورد اسمه بشكل "كابي"و "كابيان"؟.

على أية حال إذا كان الجواب بالإيجاب فهذا يعني واضحاً أن "كيبيل- كاوه" قد أخذ دور تموز في إعلان احتفالات الربيع. وهذا يعني بشكل واضح إلغاء الفرضيات الفارسية بشأن أعياد الربيع.

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن السبب الذي تحول بموجبه كاوه "كيبيل –كاوه" إلى شخصية بشرية بدلاً من إله هو لأن المعتقدات التالية والناضجة كالدين الإسلامي لا تسمح بصيغ إلهة بشر. وهذه الصفة لا تنفي عن كاوه الأصل العراقي التموزي.

الهوامش

١. د. أبو مغلي، محمد، إيران دراسة عامة، (منشورات مركز دراسات الخليج العربي –جامعة البصرة –سلسلة إيران والخليج –٢٤)، ١٩٨٥، ص ٧٦.

٢. ابو مغلي، ص ٧٦، والمصدر الذي اعتمده القاضي أحمد غفاري قزويني، تاريخ جهان ارا، طهران، ١٣٤٣، ص ٢٩.

٣. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، باريس، ج/٢، ص/٢٥١.

٤. النويري، شهاب الدين، نهاية الأرب في فنون الأدب، السفر الأول، ص/١٨٨. وقد ورد لقب الضحاك بيوراب في النص وأصلح إلى بيوراسب.

٥. القلقشندي، صبح الاعشى في صناعة الإنشا، ج/٢، ص/٤٢١.

٦. تراجع الحاشية (٨) ومصدرها:

أبو جعفر الطبري، تاريخ الرسل والملوك، (تحقيق محمد أبو الفضل)، دار المعارف، (ذخائر العرب –٣٠)، ط/٢، ج/١، ص/١٩٦. وبالأصل "نرس" وهناك خطأ في الاستنساخ والصحيح "برس" أي "برس نمرود".

٧. الطبري، ج/١، ص/١٩٦.

٨. الطبري، ج/١، ص/١٩٦، حاشية (١).

٩. الطبري، ج/١، ص/٢٣٤.

١٠. الطبري، ج/١، ص/١٩٦، حاشية (٤).

١١. أبو مغلي، ص/٧٦. حاشية (٥).

١٢. الطبري، ج/١، ص/١٩٧.

١٣. الطبري، ج/١، ص/١٩٧.

١٤. الطبري، ج/١، ص/١٩٧.

١٥. الطبري، ج/١، ص/١٩٨.

١٦. الطبري، ج/١، ص/١٩٨-١٩٩.

١٧. الطبري، ج/١، ص/١٩٩.

١٨. الطبري، ج/١، ص/٢٠١.

١٩- ٢١. الطبري، ن ج/١، ص/١٩٤.

٢٣. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، ١٩٧٦، ج/١،ص/٤٩٩.

٢٤. بوتيررو، جان، الديانة عند البابليين، (ترجمة د. وليد الجادر)، بغداد، ١٩٧٠، ص/٤٥، أما كان الإله نابو مفجراً للينابيع فقد أشار إليه الباحث الألماني "ادزرت" في *Venterbuch der Methology*.

٢٥. الليدي دراوور، الصابئة المندائيون. (ترجمة نعيم بدوي وغضبان الرومي)، بغداد، ١٩٦٩، الكتاب الأول، ص/١٣٦.

٢٦. فؤاد سفر ومحمد علي، الحضر مدينة الشمس، بغداد، ١٩٧٥، ص/٢٧٧.

٢٧. البيروني، أبو الريحان، التفهيم لأوائل التنجيم، لندن، ١٩٣٤، ص/٢٥٣-٢٥٤.

٢٨. *Krisgnamurti, Tyothish, Krishnamurti Padhati, Madras, 1966, p.399.*

٢٩. *Mayo, Jedd, Astrology, Britain, 1969, 147-8.*

٣٠. الأحمد، سامي، المعتقدات في العراق القديم، (عن دار الشؤون الثقافية)، بغداد، ١٩٨٨، ص٣٢.

٣١. البستاني، بطرس، دائرة المعارف، بيروت، ١٨٧٨، ج/٢، ص/٥٩٤-٥٩٦.

٣٢. الأحمد، ص/٣٧.

٣٣. الأحمد، ص/٣١-٣٢.

٣٤. كولدفاي، روبرت، بابل وبورسبا، (ترجمة د. نوال خورشيد)، بغداد، ١٩٨٥، ص/١٤١-٤٣.

٣٥. طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، (منشورات دار البيان)، بغداد، ١٩٧٣، ص/٣٧٣.

٣٦. الأحمد، ص/٢٩.

الكتاب الثاني

العراق القديم
في المصادر العربية

المقدمة

لتاريخنا القديم أهمية خاصة بين تراث الشعوب، فقد ابتدع قطرنا الكثير من مآثر الحضارة الإنسانية وسعى إلى تطويرها. لذا فحين ندرس هذه المادة نراها وحدة مترابطة عبر آلاف السنين، ولمضائها تغلغلت مضامينها في مآثر شعوب أخرى سواء كان ذلك تطبيقاً، كالزراعة والصناعة والطب، أو فكرياً محضاً كالدين والأدب.

وعلى أي حال، فإن التاريخ مهما كتب فيه أو وصلنا عنه يبقى ناقصاً، أولاً لأن تدوين كل شيء مستحيل، وثانياً إن التدوين كثيراً ما يلاقي التلف والبلى، سواء كان ذلك بشكل متعمد أو مصادفة. لذا فإن أي بصيص أمل في مادة التاريخ ينبغي أن ينتفع منه، وحتى وإن كان النقل التالي متأخراً من حيث الزمن، ومن ثم يعتوره التشويه والتحريف، لأننا في هذه الحال ينبغي إيجاد مسوغات لذلك وبحثه من الناحيتين الاجتماعية والسياسية.

إن مادة التاريخ القديم في المصادر العربية لم تنل من الأهمية لتكون محل بحث واضح مفصل، ولعل هذا الأمر يأتي من عدم اهتمام الباحثين في التاريخ القديم بالمصادر العربية الإسلامية، أو عدم اهتمام الباحثين في التاريخ الإسلامي بها لعدم علمهم الكافي بالتاريخ القديم.

وعلى أي حال إذا كان ذنب المصادر العربية الإسلامية عدم دقتها في إيراد أحداث الماضي، فإن ذلك لا يعني إهمالها. ومن الجلي أن المؤرخين العرب والمسلمين قد عانوا كثيراً من جمع المادة المتعلقة بالتراث القديم بسبب اندثار اللغات والخطوط القديمة التي دونوا بها، ولصعوبة التوصل إلى أصل مادتها. وفي القرآن الكريم يرد حوار التاريخ القديم بين ملك مصر والنبي موسى: " قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ◆ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى". (طه: ٥١-٥٢) فهذه الآية الكريمة تدلنا على أن ذلك التاريخ كان يشغل بال الناس أنفسهم، وكان في معظم الأحيان معلقاً بين الأسطورة والنقل المشوه.

يقول مؤرخنا العربي عبد الرحمن بن خلدون (ت-٨٠٨ هـ): " أما بعد فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال وتشدّ إليه الركاب والرحال وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال. وتتساوى في فهمه العلماء والجهال...وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجموعها، وسطورها في صفحات ودفاتر وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها وابتدعوها وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها وضعوها وأفتى تلك إلى آثار الكثير من بعدهم واتبعوها وأدّوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظو أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دمقوها. فالتحقيق قيل، وطرف التنقيح في الغالب كليل..."[١]. وقال:" وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والواقع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثّاً أو سميناً ولم يعرضوها على أحوالها ولا قاسوها بأشباهها ولا سيروها بمعيار الحكمة...."[٢].

ويبدو أنه نظراً لصعوبة حصر الأحداث ضمن موازين واضحة أو ما يشبه ذلك وعدم إمكان استجلاء الماضي بأي وسيلة، سوى بالوثائق والشاخص من الآثار، فأن هناك العديد من العلماء لا يضعون التاريخ ضمن العلوم، وحتى المتأرخين منهم، فالعالم شمس الدين ابن الاكفاني (ت- ٧٤٩ هـ) صنف العلوم بشكل جيد وواضح كالأدب بفروعه العشرة والمنطق بفروعه التسعة والعلم الإلهي والنواميس بفروعها ثمانية أصلية وعشرة فرعية، ثم علم الهندسة (بفروعه العشرة الاصلية ومثلها الفرعية) وغير ذلك ضمن اثني عشر علماً، إلاّ أنه لا يضع للتاريخ أصلاً ولا فرعاً[٣].

إن فائدة دراسة المادة موضوع البحث تكمن في ضرورة الإحاطة بمضمونها وما تعنيه بغية تسليط الضوء على حقيقتها.

إننا حين ندرس مادة عميقة الأثر لها السبق وأولوية الإبداع، في التراث الإنساني نرى نوعين من التعامل المؤسف معها من كتّاب شعوب عاشوا بعد أفول نجمنا السياسي، يقوم أحدها على ادعاء عناصرها الحضارية دون الإشارة إلى محل اقتباسها، وقد فعل اليونان ذلك بانتحال الكثير من مضامينها، وكذا فعلوا بالمصرية والسورية، وقد ساعدهم ذلك إهمال الكتابة بالخطوط المسمارية والهيروغليفية الصعبة، وتبنى اليونان الخط الهجائي الذي أخذوه عن العالم العربي أصلاً[٤]. أما الصيغة التعبيرية

الأخرى التي نشاهدها فهي الأكثر خطورة ويكمن بالطعن في التاريخ السياسي وتشويه الحقائق بشكل لا يحتاج إلى دليل وقد حصل هذا مع الفرس القدماء واليهود. وكل من الفرقتين تكنّ للعراق القديم العداء الواضح، وسنأتي إلى ذلك بأمثلة عديدة.

تقسيم حقب التاريخ

العراقيون، هم أقدم المؤرخين في العالم. هذا ما تؤكده المصادر العلمية، ومن الجلي أن اختراعهم للكتابة جعلهم يسعون إلى تطويرها لتكون أداة للتاريخ.

قسّم العراقيون التاريخ إلى حقبتين كبيرتين، حوت كل منهما سلالات متعاقبة أو عاصر بعضها بعضاً، ما دام العراق لم يكن موحداً، ولا سيما في عهود دويلات المدن (٤٨٠٠-٤٣٥٠سنة مضت).

كان الحدث الذي جعله العراقيون حداً فاصلاً لتقسيم تاريخهم هو" الطوفان"، الذي جاء زمن الحكيم السومري" اوتونابشتهم" (بالسومرية)، أو" آتر خاسس" (بالأكادية)[٥]"، وهو عينه النبي" نوح" في المصادر العربية.

تشير المصادر العراقية القديمة أو (جداول إثبات الملوك)[٦]. إلى ثمانية ملوك حكموا في خمس مدن، تقع في جنوب العراق، وكانت أول مدينة ظهرت فيها الملكية، أو نزلت من السماء حسب تعبيرهم" اريدو" التي حكم فيها ملكان هما"الولم" و" الكار"مدة خيالية اسغرقت (٦٤٠٠٠عام)، في حين بلغ حكم الثمانية (٢٤١٠٠٠عام). وحينما حلّ الطوفان كانت الملكية قد حلّت في مدينه"شرّوباك"(تل فارة)، حيث كان الحكيم السومري الذي صنع الفلك توقعاً منه للطوفان. وهذا الحكيم السومري هو جد البطل السومري الملك"جلجامش" ملك مدينة الوركاء، قصة الطوفان هي جزء من قصة جلجامش. أما بعد الطوفان فقد حلّت الملكية في" كيش" قرب بابل حكم فيها (٢٣) ملكاً، كان أولهم" كاور"، الذي جعلوا له فترة حكم دامت (١٢٠٠) عام، يليه آخر حكم (٩٦٠) عام، وأقلّ ملك فيهم حكم (١٤٠) عام. وهكذا نرى أن سني حكمهم أمست قريبة من المعقول، حتى أن السلالة التالية لها التي اتخذت مقراً لها في"الوركاء"، كان منهم "دموزي"، أو" تموز"، صائد السمك قد حكم (١٠٠٠) عام. وآخر (٦) أعوام. وقد بلغ مجموع الملوك (١٢) ملكاً، حكموا (٢٣١٠) سنوات. وكلما

أتت سلالة جديدة كانت سني حكم ملوكها أكثر معقولية، حتى أننا نرى أن سلالة "اكشاك" بملوكها الستة حكموا (٩٩) عاماً.

ترى ما هو موقع الأسلوب العراقي القديم في ترتيب الأحداث في المصادر العربية؟ إن من يراجع" تاريخ اليعقوبي" (ت-٢٩٢ هـ)، و"القانون المسعودي" للبيروني (ت-٤٤٠ هـ). وتاريخ ابن خلدون (ت-٨٠٨ هـ) يراهم وقد اتبعوا عين الأسلوب العراقي من حيث تقسيم التاريخ إلى حقبتي قبل وبعد الطوفان، ثم المبالغة بسني الحكم، فكلما كانت أقدم كلما كانت أطول، بما عهدناه في المصادر المسمارية. إلا أن هناك اختلافاً واحداً بينهما أن العربية جعلت من "آدم" أول البشر، ثم أبناءه الذين أتوا بعده، مع المبالغة في السنين التي عاشوها. وينبغي هنا أن نشير إلى نقطة مهمة تتمثل في أن المصادر المسمارية العراقية قد جعلت من السلالات الحاكمة والملوك أساساً لتقسيمه، أي عبر طابع سياسي في حين اعتمدت المصادر العربية على الاهتمام بآدم ثم بأبنائه وأحفاده كسلالة بشرية سواء كانت لهم أهمية سياسية أم لا. فالأمر منصب على خطّهم الديني مع المبالغة أيضاً في سني حياتهم.

وعلى أي حال لقد كان المؤرخون العرب والمسلمون في حيرة من التاريخ، ويجسد ذلك قول"جمال الدين القفطي" (٥٦٨-٦٤٦ هـ) في"تاريخ الحكماء" قوله: "وكل ما هو قبل طوفان لا تعلم حقيقته لعدم المخبر به على الوجه"[٧]. مع ذلك فإن المصادر العربية حملت بين طياتها شيئاً من الحقيقة عن تلك الحقبة، فالبيروني في قانونه المسعودي تحدث عن ملوك كلدانيين سكنوا أرض بابل قبل الطوفان بلغ عددهم العشرة، كما نتذكر أنهم ثمانية بحسب المصادر العراقية، مشيراً إلى أن ثمانية منهم حكموا أقل من ألفي سنة في حين حكم الملكان الأخيران أكثر من ألفي سنة. أما أسماؤهم فتنتهي بالواو والنون أو الواو والسين، وهو ليس جرياً على الاسم العراقي السومري. وربما كان ذلك تأثيراً بالنقل عن مصادر يونانية[٨].

أما اليعقوبي فيحدثنا عن:" أول الملوك" بعد الطوفان بأرض بابل ملوك السريانيين، فأول ملك منهم وعقد التاج على رأسه (شوسان) وكان ملكه ست عشرة سنة، ثم ملك بعده (برير) ابنه عشرين سنة... وهم أحد عشر ملكاً آخرهم حلحابيس (١٢سنة)"[٩]. وهذه الفقرة مهمة إذ تحدثنا عن سلالة حكمت بأحد عشر ملكاً، ولو

راجعنا جداول إثبات الملوك نرى أن سلالة الوركاء. التي تلت سلالة كيش، حكم خلالها اثنا عشر ملكاً، وتتمثل أهمية ما ذكره اليعقوبي بالإشارة إلى الملك الأخير باسم (حلحابيس)، ومن الواضح أنه تصحيف، أي خطأ في النقل لأن الاسم يطابق اسم خامس ملك سلالة الوركاء وهو البطل" جلجامش"[١٠].

وفي نص اليعقوبي إشارة مهمة أخرى عن " السريانيين" ولكن لما لم يكن هناك من وجود لهؤلاء في الجنوب وفي تلك الفترة فإن الاسم فيه خطأ لأنه أراد بذلك" السومريين"، سيما وإن" جلجامش" سومري وليس سرياني. ومثل هذا الخطأ نراه في إشارات للمسعودي[١١]. ومع ذلك فإن هذه أولى الإشارات في مصادر عربية عن" السومريين" ولو بشكل محرّف.

تستوقف الدارس لتاريخ العراق القديم نقطة مهمة تتلخص في المبالغة في سني حكم الملوك كلما توغلنا قديماً، وذلك بحسب جداول إثبات الملوك، وقد سبقت الإشارة إلى أن ثمانية ملوك حكموا لفترة (٢٤١٠٠٠ عاماً). وقد أشرت إلى أن المصادر العربية الإسلامية تشارك العراقية القديمة هذا الأسلوب فآدم عاش (٩٣٠عاماً)[١٢] و" شيت" ابنه (٩١٢عاماً)، أما الحفيد العاشر فهو" نوح" (اوتونابشتم السومريين). الذي عاش (٩٥٠عاماً)[١٣]. أما الحفيد التاسع عشر فهو(تارخ بن ناحور) وعاش (١٧٠عاماً) وابنه" ابراهيم" عاش(١٩٥عاماً)[١٤]. وبذلك نرى أن السنين لأبناء آدم يهبط عددها كلما اقتربنا من تاريخنا.

والآن لنسأل ما هو السر في ذلك ؟

ليس من السهل على المرء أن يصدق بوجود إنسان عاش أو يعيش عشرات الآلاف من السنين إلاّ إذا وصل حدّاً من السذاجة والعفوية. إذن هناك ما نتهمه بهذا الصدد وهو التقويم ولكي نصدّق ذلك علينا أن نبسّط أمر ظهوره لدى قدماء العراقيين.

منذ عهود الكهوف والإنسان توّاقاً لمعرفة سرّ أحداث الكون. ومن البديهي أن تكون الحالات أو التغيرات التي تطرأ على القمر بالنسبة لمشاهد على الأرض، مجلبة لاهتمامه، فهو يظهر أول أمره كقوس صغير، ثم يتوسع يوماً بعد آخر ليمسي نصف دائرة بعد أسبوع، ثم بدراً بعد أسبوعين، بعدها يأخذ بالتناقص حتى ينمحق ليولد ثانية.

وعليه فقد كان هذا الجرم السماوي خير معين استفاد منه الإنسان في ضبط ولو جزء من أيام حياته. أما الشمس فهي تتكرر يومياً بعين شكلها، لذا لم يكن ممكناً الاستفادة من متابعتها لخلق تقويم في بيئة تنقصها الكتابة والمعرفة بالرياضيات.

وعند ممارسة الإنسان للزراعة قبل نحو عشرة آلاف سنة، احتاج إلى تقويم سنوي يضبط به مواعيد البذار والحصاد، الأمر الذي دفعه للاستفادة من الشمس وتغير الفصول. وعلى الرغم من ذلك اتبع العراقيون تقويماً مزيجاً بين القمري والشمسي حتى في عهود الدول المتقدمة التي أسسوها كالبابلية والآشورية.

ومما سبق نستنتج أن التقويم لم يكن أول الأمر كما هو عليه في مرحلة نضج الحضارة في العراق، فالبساطة هي ما يبدأ بها كل اختراع.

وتبعاً لذلك لم تكن السنة تعني للقدماء في مطلع عهدهم بالحضارة ما عنته فيما تلا من العهود، فلربما كان اليوم عاماً، ثم الأسبوع، والشهر بمثابة أعوام. ومن هنا يمكن أن نحل معضلة المبالغة في السنين، فلو إننا قسمنا (٢٤١٠٠٠ عام). لحقبة ما قبل الطوفان، على (٣٦٠) فسنحصل على (٥٠٢ عام) من أعوامنا تقريباً، وهي فترة ممكنة لثمانية ملوك. أما العمر المخصص لآدم (٩٣٠ عاماً)، ونوح (٩٥٠ عاماً)، فلو قسمناه على (١٢)، أي على عدد الأشهر، لحصل أن كلا منهما عاش حتى العقد السابع، وهو أمر معقول. وبمعنى آخر أن القمر كان الدليل السنوي الصغير والشمس الدليل السنوي الكبير لما تلا من الأيام.

أقوام عاشت في العراق ذكرتها المصادر العربية:

تحدثنا المصادر العربية عن عدد من الأقوام التي سكنت قطرنا. ونفهم من الدراسات المقارنة أن تلك الأقوام هي إما أنها ذات أصول عربية أو كما تسمى في مصادر سامية نسبة إلى سام بن نوح، (ولا أفضل هذه التسمية). كالأكادية، البابلية، الآشورية، وغيرها، أو ذات أصول هندية أوروبية كالميتانية، الحورية، الكشية، والكردية.

وعلى أي حال، بما أن المصادر العربية اعتمدت على النقل عن مصادر أخرى تفاوتت في مصداقيتها، إما لجهل الكاتب أو تعمداً بغية الإساءة لأغراض سياسية أو

دينية. وكما نعلم أن المصادر العربية لم تعتمد على التنقيب أو حل الكتابات القديمة بل على النقل. وينبه "ابن خلدون" على خطورة النقل العشوائي دون تمحيص بالقول:

"وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سيروها بمعيار الحكمة..."[١٥].

وحينما نستعرض قوائم أسماء الملوك وشخصيات مهمة قديمة نرى في إيرادها الكثير من الاختلافات سواء من ناحية ترتيب الأسماء، حسب تواريخها أو التواريخ المعطاة لها، وكذلك في كيفية إيراد الاسم والذي قد يدخل فيه الخطأ أو التصحيف. وعن هذه الظاهر يقول ابن خلدون:

"واعلم أن الخلاف الذي في ضبط هذه الأسماء إنما عرض في مخارج الحروف فإن هذه الأسماء إنما أخذها العرب من أهل التوراة ومخارج الحروف في لغتهم غير مخارجها في لغة العرب فإذا وقع الحرف متوسطاً بين حرفين من لغة العرب فترده العرب إلى هذا وتارة إلى هذا وكذلك إشباع الحركات قد تحذفه العرب إذا نقلت كلام العجم فمن هنا اختلف الضبط في هذه الأسماء. (واعلم) أن الفرس والهند لا يعرفون الطوفان وبعض الفرس يقولون كان ببابل فقط"[١٦].

لقد أوردت المصادر العربية عدداً من الأقوام التي سكنت العراق منها:

١. السريان، الذين تجعلهم بعض المصادر بعد الطوفان، وقد أسلفت إلى أن الاسم تصحيف عن (السومريين). وليس لدينا عنهم إلا القليل بما ذكره اليعقوبي[١٧] والمسعودي[١٨]، وكذا ابن خلدون[١٩].

٢. البابليون والكلدانيون.

٣. الآشوريون.

أما عرب قبل الإسلام فسوف لا أعرض لهم لأن في ذلك دراسة خاصة وقد نشرت بعض ما ورد من آراء وأخبار عن الحضر والحيرة سابقاً.

البابليون:

كما نعلم أن البابليين اسم يطلق على أي مجموعة سكنت بابل سواء كان ذلك حين الحديث عن بابل كإقليم أو كمدينة. ومن المعلوم أن بابل كانت قرية صغيرة عند عصر فجر السلالات أو الأكادي، واسمها يعني "باب الإله أو الآلهة" (باب إيلي). كما ورد اسم آخر للمدينة "تن – تر – كي". وكانت أهم الاقوام القديمة التي سكنت الإقليم والمدينة "الأمويون" منذ مطلع الألف الثاني ق.م. ولأربعة قرون، وأهم ملك فيهم السادس وهو "حمورابي" (١٨٩٢–١٨٥٠ ق.م). إلا أن المصادر العربية لا تذكره لبعده عن الفترة الإسلامية. وكثيراً ما يتبادل اسم "الكلدانيين" بالبابليين ايضاً، لذا فإننا نجد أن المؤرخ "المسعودي" يضع عنواناً قوامه: (ذكر ملوك بابل وهم النبط وغيرهم المعروفين بالكلدانيين)[٢٠]. وفي أهل بابل قال: "ذهب جماعة من أهل التنقير والبحث والعناية بأخبار ملوك العالم أن أول ملوك بابل هم أول ملوك العالم الذين مهدوا الأرض بالعمارة وأن الفرس الأول إنما أخذت الملك عن هؤلاء كأخذ الروم المملكة من اليونانيين"[٢١].

وعلى أي حال، إننا حين نتحدث الآن عن الكلدانيين إنما نعني بهم البابليين ومن الامبراطورية الحديثة التي أسسها "نابو بلاسر" (٦٢١–٦٠٤ ق.م)، والد "نبوخذ نصر" (٦٠٤–٥٦٢ق.م). ومع ذلك كان من المصادر العربية من جعل من أول ساكني أرض بابل الكلدانيون، فالبيروني يورد جدولاً فيه "انتظام الأمر بملوك الكلدانيين النازلين أرض بابل قبل الطوفان". ويعدد منهم عشرة أولهم "يلوزوس" وآخرهم "كسيسو ثوروس"[٢٢]ـ وهي أسماء ليست بالسومرية ولا بالبابلية، ولم يرد أي منها في جداول إثبات الملوك، وهو أمر يشابه ما ذكره "ابن خلدون" عن الملوك الذين حكموا بعد الطوفان مباشرة والذين أورد لهم "المسعودي" تسعة، قوله: "بأسماء أعجمية لا فائدة في نقلها لقلة الوقوق بالأصول التي بأيدينا من كتبه وكثرة التغيير في الأسماء الأعجمية..." أما "البيروني" فيتحدث عن الكلدانيين وملوكهم الستة وأولهم "نمرود الجبار بن كوس بن حام بن نوح وهو أول ملك بعد الطوفان"، كما تحدث عن ثالثهم "سميروس" الذي أحدث المكاييل والأوزان وندب في أيامه صناعة التصوير حتى عبدت في أيامه الاصنام[٢٣]. إلا أنه يتحدث فيما بعد عن "ملوك بابل" وحكم (١٢) ملكاً وجميعهم بأسماء ملوك آشوريين باستثناء

"مردوخ بلدان" الذي عاصر "سرجون الثاني" (٧٢١-٧٠٥ ق.م) وابنه "سنحاريب" (٧٠٥-٦٨٢ ق.م) كملك بابلي ثائر كان يلجأ في كل يوم إلى مكان هرباً من مطاردة الآشوريين.

الآشوريون:

هم من الأقوام العربية القديمة (العاربة) التي سكنت العراق منذ ما يزيد على أربعة آلاف عام وعاصمتهم "آشور" قرب مدينة "الشرقاط" وذلك في العصر الآشوري القديم (٤٠٠٠-٣٥٠٠ سنة مضت). ثم الآشوري الوسيط (٣٥٠٠-٣٠٠٠ سنة) يليه العصر الامبراطوري بقسميه منذ مطلع الألف الأول ق.م ولغاية (٦١٢ ق.م) الذي يمثل سقوط نينوى. وهذا العصر الأخير هو الذي تتحدث عنه المصادر العربية، أما العصران السابقان له فلا تذكرهما المصادر العربية. وعلى الرغم من ذلك فإن الخلل كثيراً ما يعتري تسلسل الملوك وسني حكمهم كما أن أسماءهم ترد بشكل غير صحيح بالمرة أو اعتراها الكثير من التصحيف. وأبرز الملوك الذين تحدثت عنهم هذه المصادر "سنحاريب" ابن الملك سرجون الثاني في حين لا نجد ذكراً للعاهل الآشوري الكبير "آشور بانيبال"، وهو من خط الملك سرجون وتلا "سرجون" ابن "سنحاريب". كما وقد تختلط أسماء الملوك الآشوريين والبابليين معاً في بعض المصادر. ولنأتِ مثلاً إلى قائمة ملوك آشوريين ذكرهم "البيروني" تحت جدول عنوانه (ملوك بابل وملوك ماذاي وهو الحسيك). أما ثاني ملك لهم فهو: "تعب فلسر" ومما لا شك فيه هو تصحيف لاسم الملك "تجلات بلاصر الثالث (٧٤٤-٧٢٧ ق.م) مشيراً إلى أنه "قصد أرض بني إسرائيل وسبى منهم وانصرف"[٢٤]. ثم جاء بعده "شلمنعسر" وهو تصحيف لاسم الملك "شلمنصر" (٧٢٨-٧٢٢ ق.م) أي الخامس. إلا أن "البيروني" يذكر وهو "بخسر الأول" أي نبوخذ نصر الأول، وهو خطأ. ومن الأحداث التي تحدث عنها أنه "قصد بني إسرائيل وسبى وأغار". ولا يراعي "البيروني" التسلسل بعد ذلك إذ يأتي اسم "سنحاريب سرجون" أي (سنحاريب ابن سرجون) الذي يذكر عنه أنه "شدد على اليهود وحاصرهم ثم أصاب عسكره فانهزم بنفسه ثم قتله أبناؤه بالموصل وهرب إلى الأرمن"[٢٥]. ثم يأتي بعده اسم "سرحوم" ولعله يعني (سرجون) والد سنحاريب، لأن يأتي بعده لذا ربما كان الاسم بالأصل "اسرحدون"

محرفاً، علماً بأنه لم يضع آزاءه أي أحداث. بعده يأتي اسم "مردوخ بلدان" البابلي الثائر، لذا فإن ذكره يأتي خطأ كأحد الملوك الآشوريين. ويلي الملك المذكور ملك أشار إليه البيروني باسم "سنحاريب الصغير". الذي وضع أمامه حادثة تاريخية لا أساس لها من الصحة تخص بناء مدينة "بوزنطيا" مشيراً إلى أنها "القسطنطينية". ويلي هذا الملك "فيليدي" ولا نعرف من هو هذا، يليه (نابوفلسر) الذي يصفه بالمجوسي لسبب لا نعرفه، ومن الواضح أنه "نبو بولا سر" والد "نبوخذ نصر".

ومن الغريب أن (البيروني) بعد سرده لأسماء ملوك آشوريين، ضمن قائمة بابلية يأتي إلى أسماء "ملوك الموصل وقصبتها"[٢٦]، وفيها يشير إلى أن أولهم "بايوس" الذي ينسب له بناء المشرق والحصون والهياكل، وإن النبي ابراهيم ولد زمانه[٢٧]، وبهذا يعود تاريخه إلى العصر الآشوري والبابلي القديم. ثم يذكر "انبرسوس" الذي هو برأيه باني نينوى وإن ملكاً كنعانياً يدعى "ماكرديق" بنى "أورشليم"، أي القدس، عاش أواخر أيامه. ويلي هذا الملك اسم "شمير"، وهي "سمورامات"، كما يبدو (أي سميراميس لدى اليونان). وضمن الـ (٣٩) ملكاً آشورياً يشير إلى أن آخرهم "اوبال". ولا نعرف من هو هذا، وربما كان تصحيفاً لاسم العاهل "آشور بانيبال".

أما المسعودي، أبو الحسن، فيحدثنا في مروجه في موضوع "ذكر ملوك الموصل ونينوى وهم الآشوريون"[٢٨]. مشيراً إلى أن من أوائل ملوكهم "سابق بن مالك" الذي "ملك نينوى بعده امرأة اسمها سميرم فإقامتها عليهم أربعين سنة تحارب ملك الموصل وملكها من شاطئ دجلة إلى بلاد أرمينية ومن بلاد أذربيجان إلى حد الجزيرة والجودي وجبل النيتل إلى بلاد الزوزان"[٢٩]. ومن الجلي أن "سميرم" هي زوجة الملك "شمسي آدد الخامس" (٨٢٤-٨١١ ق.م)، الذي قتل وابنه "آدد نيراري الثالث" (٨١٠-٧٨٣ ق.م) كان لا يزال صغيراً مما دفع والدته لأن تكون ملكة حتى يمسي بمقدوره ممارسة مقاليد المُلك. ومن المعروف أن الكثير قد كتب عن هذه الملكة باسلوب اسطوري غالباً ولا أساس له من الصحة. علماً بأن "البيروني" أشار إلى أن "سميرم" هي زوجة "نينوس" وأنها بنت مدينة "سر من رأى". أي سامراء وبابل وعملت هيكل الصنم "قينان" سبعين سنة[٣٠].

أهم ملوك العراق القديم في المصادر العربية

لا تكثر المصادر العربية من الحديث عن ملوك كثيرين في العراق القديم، ويبدو أن ذلك بسبب قلة المصادر المتداولة والتي تتناول ما يفيد جانباً تاريخياً قد تكون له علاقة ببعض الأمور الدينية.

وعلى أي حال، فإن من يستعرض تلك المصادر يراها تركز على شخصين فقط هما:

سنحاريب الآشوري.

نبوخذ نصر البابلي.

سنحاريب:

أحد أعظم ملوك العراق الآشوريين الذي خلف آباه سرجون منذ عام (٧٠٤-٦٨٦ ق.م) واهتم بالإصلاحات والإعمار، كما وجه همه لإخضاع فينيقية وفلسطين ولا سيما بما تعلق بمملكة "يهوذا" زمن ملكها "حزقيا" وذلك في العام الرابع لحكمه وقام بتنحية حكامها وتعين حكام جدد. وتشير الحوليات الآشورية إلى الحصار الذي ضربه هذا العاهل على "أورشيلم" والذي كما سنرى كيف أن المصادر اليهودية شوهت حقيقة أمره بمختلف أنواع التحريف والخداع. فمما ادعته تفشي الوباء "ولكن المرجح أن الجيش رفع الحصار عن أورشليم مقابل دفع جزية كبيرة من الفضة والذهب والنساء، من بينهم بيهن الملك، كما جاء في حوليات سنحاريب"(٢١). ومما يؤكد مضاء وقوة الآشوريين أن الملك خطط وهو في فلسطين لتحرير مصر التي كانت تحكمها سلالة حبشية أجنبية.

ومن الأحداث المهمة زمن سنحاريب قضاؤه على متمرد بابلي يدعى "مردوخ بلدان" الذي كان يلتجئ تاره إلى الأهوار وتارة إلى عيلام في إيران.

سنحاريب في المصادر العربية وأثر التحريف اليهودي فيها:

لم يحظ ملكان في التاريخ القديم من تشويه للسمعة كما حصل للعاهلين العراقيين سنحاريب ونبوخذ نصر ولم تقف افتراءات اليهود عند حد مصادرهم بل تجاوزتها إلى العربية الإسلامية وغيرها بشكل ملفت للنظر. وفي الوقت الذي نرى فيه أن المصادر العربية تهمل ملوكاً آشوريين وبابليين مهمين مثل "آشور بانيبال" و"نابونائيد".

نراها تسلط الضوء بشكل مؤسف على الملكين السابقين بما لا يعقله أي شخص مهما أوتي من بسيط العلم في التاريخ لأن تلك المادة الملفقة قابلة للنقد من كل الوجوه. ويكمن السر في ذلك التجني عليهما أنهما وجها ضربات موجعة إلى اليهود. ومن المؤسف أن المصادر العربية المهمة عبر كتّاب يشهد لهم كالطبري وابن خلدون انساقا وراء تلك الأكاذيب ومما يبدو أن سبب انسلال هذه المادة دون تمحيص يكمن في تقبل "الوحدانية" لدى اليهود، ولو بشكلها المحرف والمصلحي، وكراهيتهم من جهة أخرى للوثنية التي كان عليهما ملوك العراق القديم شأنهم شأن أي شعب في الماضي السحيق. كما أن وجود بعض الأنبياء اليهود زمن هذين الملكين "حزقيا" و"آشعيا" قد سهل تمرير المادة المشوهة التي روج لها الكتاب اليهود.

ولنستعرض الآن جانباً مما أوردته المصادر العربية.

يقول الطبري (٢٢٤-٣٨٥ هـ) تحت موضوع "ذكر صاحب قضية شعيا من ملوك بني إسرائيل وسنحاريب":

"فلما انقضى ملكه (أي حزقيا)[٣٢]، وعظمته فيهم الأحداث، وشعيا معه، بعث الله عليهم سنحاريب ملك بابل معه ستمائة ألف راية، فأقبل سائراً حتى نزل حول بيت المقدس والملك مريض، في ساقه قرحة"[٣٣]. ثم يذكر تضرع أشعيا إلى الله أن يرد سوء الطالع عن ملكه، مما جعل الله "يؤخر أجله خمس عشرة سنة، وأنجاه من عدوه سنحاريب ملك بابل وجنده. فلما قال له ذلك (أي للملك)، ذهب عنه الوجع، وانقطع عنه الشر والحزن"!!. ثم قال الله لأشيعا النبي "قل له إني قد كفيتك شر عدوك، وأنجيتك منهم، وإنهم سيصبحون موتى كلهم إلا سنحاريب وخمسة من كتابه"[٣٤]!!!.

ومما أورده الطبري من أكاذيب اليهود:

"فلما أصبحو جاءه صارخ فصرخ على باب المدينة: يا ملك بني إسرائيل، إن الله قد كفاك عدوك فاخرج، فإن سنحاريب ومن معه قد هلكوا. فلما خرج الملك التمس سنحاريب فلم يوجد في الموتى فبعث الملك في طلبه، فأدركهم الطلب في مغارة وخمسة من كتابه أحدهم بختنصر، فجعلوهم في الجوامع، ثم أتوا بهم ملك بني إسرائيل، فلما رآهم خر ساجداً من حين طلعت الشمس حتى كان العصر، ثم قال لسنحاريب: كيف ترى فعل ربنا بكم؟ أم يقتلكم بحوله وقوته ونحن وأنتم غافلون، فقال سنحاريب: قد أتاني خبر ربكم ونصره وأياكم"[٣٥]!!.

ثم يستمر الطبري في سرد ملاحم اليهود (البطولية!!) ضد الآشوريين بالقول:

"ثم إن بني إسرائيل أمر أمير حرسه فقذف في رقابهم الجوامع، وطاف بهم سبعين يوماً حول بيت المقدس، وكان يرزقهم كل يوم خبزتين من شعير لكل رجل منهم. فقال سنحاريب لملك بني إسرائيل القتل خير مما تفعل بنا، فافعل ما أمرت فأمر بهم الملك إلى سجن القتل، فأوحى الله إلى شعيا النبي: أن قل لملك بني إسرائيل يرسل سنحاريب ومن معه لينذروا من وراءهم ولكن معهم ويحملهم حتى يبلغوا بلادهم. فبلغ النبي شعيا الملك ذلك ففعل، فخرج سنحاريب ومن معه حتى قدموا بابل... ثم لبث سنحاريب بعد ذلك سبع سنين ثم مات"(٣٦).

ثم قال الطبري، مع بعض التحفظ:

"وقد زعم بعض أهل الكتاب أن هذا الملك من بني إسرائيل الذي سار إليه سنحاريب كان أعرج، وكان عرجه من عرق النسا، وأن سنحاريب إنما طمع في مملكته لزمانته وضعفه، إنه كان قد سار إليه قبل سنحاريب ملك من ملوك بابل يقال له ليفر وكان بختنصر ابن عمه كاتبه، وأن الله أرسل عليه ريحاً أهلكت جيشه، وأفلت هو وكاتبه، وإن هذا البابلي قتله ابن له، وأن بختنصر غضب لصاحبه، فقتل ابنه الذي قتل أباه، وأن سنحاريب سار بعد ذلك إليه. وكان سكنه نينوى مع ملك أذربيجان يومئذ، وكان يدعى سلمان الأعسر، وأن سنحاريب وسلمان اختلفا، فتحاربا حتى تفانا جنداهما، وصار ما كان معهما غنيمة لبني إسرائيل". ثم قال:

"وقال بعضهم: بل الذي غزا حزقياً صاحب شعيا سنحاريب ملك الموصل، وزعم أنه لما أحاط ببيت المقدس بجنوده بعث الله ملكاً، فقتل من أصحابه في ليلة واحدة مائة ألف وخمسة وثمانين ألف رجل. وكان ملكه إلى أن توفي في تسعة وعشرين سنة"(٣٧).

أما "شهاب الدين النويري" (٦٧٧-٧٣٣ هـ) فيذكر سنحاريب باعتباره ملكاً بابلياً لا آشورياً على الرغم من أنه وحد بابل مع آشور. يقول النويري:

"ثم ملك بعده أي بعد مردوخ، (وربما قصد مردوخ بلدان) سنحاريب. فكان ملكه نحو من ثلاثين سنة، وهو الذي ابتنى بيت المقدس. ثم ملك بعده منوشاً فكان ملكه نحو من ثلاثين سنة، وقيل أقل من ذلك. ثم ملك بعده بختنصر الجبار"(٣٨).

أما "ابن خلدون" فقد خص "سنحاريب" بفقرات مطولة، وحسب النسخة التي

اعتمدت ذكر اسمه بصيغة "سنجاريف"، وقد ذكر سيرته جرياً على عادة مصادر أخرى ضمن احداث مملكة يهوذا. قال:

"ولأربع عشر من ملكه (أي حزقيا) زحف إليه سنجاريف (سنحاريب) ملك الموصل بعد فتح السامرة فافتتح أكثر مدائن يهوذا وحاصرهم ببيت المقدس وصانعه حزقياً هو بثلثمائة قنطار من الفضية، ثلاثين من الذهب أخرج فيها ما كان في الهيكل وبيت المال ونثر من الذهب من أبواب المسجد دفع ذلك له ورجع عنه ثم فسد ما بينهما وزحف إليه سنجاريف ثانياً وحاصره وامتنع من قبول مصانعته وقال: من ذا الذي خلصه إلهه من يدي حتى يخلصكم أنتم إلهكم. فخافوا منه وفزعوا إلى النبي شعيا في الدعاء فأمنهم منه ودعا عليه فوقع الطاعون في عسكره ثم تواقعوا في بعض اليالي فبلغ قتلاهم مائة عشرين ألفاً ورجع سنحاريب إلى نينوى والموصل فقتله ابناؤه وهربوا إلى بيت المقدس وملك ابنه اسر حرون (والصحيح اسر حدون) ..."[39]. ثم يذكر ما ذكره الطبري من أكاذيب عن "سليمان الأعسر" الذي اقترضوه ملكاً على أذربيجان[40]. ثم قال عن ملك بابل باعثاً بالهدايا إلى حزقياً. ومما لا شك فيه أنه يقصد "مردوخ بلدان" حيث بالغ حزقياً في إكرامه الوفد وفخر عليهم بخزانته وطوفهم عليها فنكر ذلك عليه شعيا النبي وأنذره (بأن) ملوك بابل يغنمون جميع هذه الخزائن ويكون أبناؤك[41] خصيان في قصرهم"[42]. بعد ذلك يشير إلى موت حزقياً ومجيء ابنه القبيح السيرة وإنه "في تاسعة وثلاثين من ملكه ملك (سنحاريب) الصغير مملكة الموصل قاله ابن العميد وفي الثانية والخمسين بنت بوزنطية... وفي الحادية والخمسين من ملكه زحف سنحاريب ملك الموصل إلى القدس فحاصرها ثلاث سنين وافتتحها في الرابعة والخمسين من ملكه وولي بعده ابنه أمون (وهو تصحيف سرجون) وكانت حاله مثل حال ابيه فملك سنتين وقيل اثنتي عشرة ثم اغتاله عبيدة"[43]. أي أن ابن خلدون أورد ملكين بصيغة (سنجاريف أي سنحاريب) وهو أمر لا أساس له من الصحة في سرد مثل هذه الأحداث إذ هناك أمور مبطنة وراء هذا السرد.

أما "ابن العبري" فقال بأنه حزقيا "ملك تسعاً وعشرين سنة وأطاع الله وأزال الأصنام. فظفر الله بأعدائه تظفيراً. وفي السنة الرابعة من ملكه صعد شلمانعسر ملك بابل إلى أرض السامرة مرة ثانية وسبى جميع من بقي من العشرة الأسباط..."[44]. أي أن

(شلمانعسر) (أو سليمان الأعسر كما ذكر البعض اسمه) كان ملكاً بابلياً حسب ابن العبري وليس أذربيجانياً. ثم يشير إلى قصة الدعاء على سنحاريب وإفناء مائة ألف وخمسمائة وثمانين من الجند في يوم واحد. وهي أكاذيب. ثم قال: (ابن العبري):

"وكان حزقيا مما أتاه رسول سنحاريب أطلعه على جميع ما في بيته فغضب الله لذلك وقال له إن جميع ما رآه الآشوريون في بيتك يكون لملك بابل وستكون بنوك خصياناً له"(٤٥). وهذه الفقرة تشير إلى خلط بين رسل "مردوخ بلدان" وسنحاريب لأنهما كانا متعاصرين.

لقد رأينا مما سبق أن النصوص المتعلقة بسنحاريب يعتورها الخلل من الناحيتين التاريخية والعقلانية، لذا يمكن اقتفاء التحريف والكذب في تلك النصوص بما يلي:

في النصوص التي أوردها الطبري:

أشار إلى أن سنحاريب كان بابلياً لا آشورياً.

أشار إلى أن حزقيا أمسى من الهلاك قاب قوسين ثم دعا له أشعيا (الذي يذكره باسم شعيا) ليؤخر الله أجله. (١٥) عاماً. وهي مسألة مفضوحة لإعطاء هذا الملك سمة إلهية دينية.

إن مقتل أكثر من نصف مليون عسكري آشوري في ليلة واحدة من الأمور التي لا يصدقها العقل. كما وأن بقاء خمسة أشخاص، هم من الكتبة لا العسكريين، بينهم (نبوخذ نصر) (بختنصر) إلى جانب سنحاريب الملك، فأمر مفضوح، فما دام اليهود عاجزين عن الدفاع عسكرياً عن أنفسهم ابتدعوا فكرة الدعاء الساخن، والملاك المخلص للإساءة إلى سنحاريب ونبوخذ نصر معاً، على الرغم من أن المدة الفاصلة بين توليهما العرش تبلغ مائة عام. أما وقوع "سنحاريب" أسيراً بيد ملك اليهود ثم (سجوده) له فأمر لا يصدقه حتى ضعيف العقل. والأدهى من ذلك أن ما خصص له (رغيف خبز) ومن (الشعير)!!. ثم بعد ذلك أمسى (سنحاريب) رجلاً معفى عنه بأمر من (أشعيا) ليذهب ويصلح شعبه بعد ذله وخضوعه على يد (الجبابرة اليهود)!!.

لقد ورد في النص أن (ليفر) ملك بابلي سبق (سنحاريب) وإن (نبوخذ نصر) كان ابن عمه!!. الذي كان كاتباً وأن الرياح أتت على جيشه الذي لم يبق منه إلا الملك وكاتبه. وللتأكيد على ارتباك النص أعيد إيراده:

"إن هذا البابلي (أي ليفر) قتله ابن له، وإن بختنصر غضب عليه، فقتله ابنه الذي قتل أباه، وإن سنحاريب سار إليه بعد ذلك، وكان سكن نينوى مع ملك أذربيجان يومئذ، وكان يدعى سلمان الأعسر وإن سنحاريب وسلمان اختلفا، فتحاربا حتى تفانا جنداهما، وصار ما كان معهم غنيمة لبني إسرائيل".

ومن الواضح أن سنحاريب ونبوخذ نصر لم يعاصر بعضهما الآخر مطلقاً، وأن القصة ملفقة للإساءة إلى الملكين الكبيرين، أضف إلى ذلك، أننا لا نعرف ملكاً (أذربيجانياً) باسم "سلمان الأعسر" واختلافه مع "سنحاريب"، وبالتالي دمارهما ثم ذهاب ما لهما لبني إسرائيل.

أما بشأن "سلمان الأعسر" فقد ورد هذا الاسم لدى "ابن قتيبة"، (٢١٣-٢٧٦هـ) في "المعارف" بصيغة "سلما عاشر"، وأشار إلى أنه بالعربية "سلمان الأعسر"[٤٦]. ومما لا شك فيه أن هذا الاسم تحريف عن اسم (شلمنصر) الذي حمله خمسة ملوك آشوريون، كان الثالث منهم قد حكم بين (٨٥٩-٨٢٤ ق.م) ووجه ضربات موجعة إلى دويلة "بيت عومري" حسب الكتابات المسمارية (المسماة لاحقاً إسرائيل) وفرض عليها الجزية. وفي مسلته العتيدة، التي سماها اليهود وأحبارهم بالسوداء، ما دامت تسود تاريخهم، علماً بأن العديد من المسلات هي من حجر الديورايت وبهذا اللون، ومن ذلك مسلة حمورابي أي لم تسم بهذا الاسم. وقد ظهر ملك اليهود "جيحو" (ياهو) في أعلى المسلة ساجداً أمام الملك شلمنصر الثالث.

أما شلمنصر الخامس فقد حاصر السامرة ووجه ضربات موجعة إلى اليهود ممهداً للملك سرجون الثاني تدمير إسرائيل عام (٧٢٢ ق.م) أي في السنة الأولى من حكمه. ومن الواضح أن هذين الملكين وباسم متماثل قد ولدا عقدة نفسية لدى اليهود الأمر الذي حدا بهم إلى اختلاق الأكاذيب بصددهما تارة بنسبهما إلى "أذربيجان"، وأخرى باقتتالهما مع سنحاريب ثم "سيطرة اليهود على ما لهم من ثروة"!!.

أما بقية الفقرات الواردة بخصوص سنحاريب فيمكن اقتفاء الأسلوب البعيد عن العلمية فيها، وإن الأسباب الكامنة وراء ذلك واضحة تفضح ضعف اليهود الأمر الذي دفعهم لاختلاق الأكاذيب تحت ستار الدين والأنبياء.

نبوخذ نصر:

وهو أحد عظماء التاريخ العراقي القديم وشخصية بارزة في الميدانين السياسي والحضاري فقد ترك مآثر تتحدث عنها المصادر القديمة والحديثة.

يرد اسم هذا العاهل في المصادر العربية عموماً بصيغة (بختنصر) وهو اسمه عن البابلية (نابو-كودوري اوصر):

ورث هذا العاهل الكبير الملكية عن أبيه "نبوبولاسر" المؤسس حيث توج على العرش في (٢٣) أيلول من عام ٦٠٤ ق.م وقد قام بأعمال عمرانية كبيرة في تشييد المرافق المدنية والعسكرية. وما في بابل من مباني يعود معظمه لهذا الملك على الرغم من عبث الغزاة ونقل مواد البناء المجحف من المدينة منذ انتهاء الحكم الوطني وحتى ما أضاع الكثير من معالمها.

أما في الميدان العسكري فقد وجه همه في توطيد دعائم ملكه، ولينجز ذلك جرد حملات ضد الدويلات السورية، ووجه ضربتين مدمرتين لمملكة (يهوذا)، وعاصمتها (القدس) "أورشليم"، الأولى زمن ملكها "يهوياكيم" و"آرميا" النبي، عام ٥٩٧ ق.م والثانية عام ٥٨٦ ق.م زمن الملك صدقيا حيث أسر ٤٠,٠٠٠ يهودي وجلبه لهم إلى بابل. ومن هنا تجلت كراهية اليهود التقليدية لهذا العاهل الكبير نعهدها في تشويه سمعته بشتى الوسائل.

ورث الملكية في بابل من بعد هذا العاهل ابنه "آميل-مردوخ" (أويل-مردوخ بحسب كتاب اليهود) مدة عامين ٥٦٢-٥٦٠ ق.م. ثم تولى قائد الجيش (نرجال-شار اوصر)

(نرجلسار حسب كتاب اليهود)، وكان زوج ابنة "نبوخذ نصر". ثم تولى ابنه "لباشي مردوخ" الحكم بضعة أشهر حيث حدثت ثورة داخلية كان على أثرها اختيار "نبو نهيد" (نبو نائيد) الذي كان من أب من مدينة "حران" هو "نبو بلا صوا قبي" وأم كاهنة في معبد إله القمر هناك. وامتاز عهده بمكوثه في مدينة "تيماء" بشبه جزيرة العرب. وهو آخر ملك بابلي قضى على حكمه "كورش) الفارسي عام ٥٣٩ ق.م.

العاهل البابلي في المصادر العربية:

يعد هذا الملك الكبير أهم من سنحاريب في نظر المصادر العربية، سيما وأنه وجه الضربة الموجعة إلى اليهود ولا سيما في حملته الثانية عليهم.

وعلى أي حال، لا تتجلى بغضاء اليهود فقط لهذا العاهل بل والفرس أيضاً، فيبدو أن ما كان عليه من عظمة جعل الفرس يقللون من أهميته بجعلهم إياه تابعاً لأحد ملوكهم!! سيما وأن الطبري أتحفنا بفصل كامل عن ملوك فرس أسطوريين لا وجود لهم كانوا "مسيطرين" على إقليم بابل[٤٨]. ويبدو أن تاريخ الفرس القصير نسبة إلى مضاء الحضارة العراقية عبر التاريخ قد جعلهم يفترون الأكاذيب بهذا الأسلوب البعيد عن الأمانة عبر منطلقهم في الشعور بالنقص.

قال الطبري:

"ثم ملك أمرهم (أي اليهود) من بعده (أي من بعد حزقياً) يوياحين بن يويا قيم، فغزاه بختنصر فأسره وأشخصه إلى بابل بعد ثلاثة أشهر من ملكه. وملك مكانه متنيا عمه وسماه صديقياً[٤٩]. فخالفه، فغزاه فظفر به، فأوثقه وحمله إلى بابل بعد أن ذبح ولده بين يديه. وسمل عينيه وخرب المدينة والهيكل. وسبى بني إسرائيل، وحملهم إلى بابل، فمكثوا بها إلى أن ردهم إلى البيت المقدس والشام الاشتاسب بن لهراسب، وعاملة على ذلك كله بختنصر" وهي أكاذيب العجم كما أشرت وجعلوه تابعاً لملك خيالي لا وجود له.

قال:

" ويقال: إن بختنصر حمل إليه (أي لملك الفرس!!!) من أورشليم خزائن وأموالاً. فلما أحسّ بالضعف من قوته ملك ابنه بشتاسب، واعتزل الملك وفوضّه إليه. وزعم أن هذا

بختنصر الذي غزا بني إسرائيل اسم (بخترشه)، وأنه رجل من العجم، من ولد جودرز، وأنه عاش دهراً طويلاً جاوز مدته ثلثمائة سنة (!!)، وأنه كان في خدمته لهراسب الملك، أي بشتاسب، وإن لهراسب وجهه إلى الشام وبيت المقدس يجلي اليهود عنها"[٥٠].

وقال:

"... وكان فيمن سار إليه رجل من ولد سنحاريب الملك الذي كان غزا حزقيا بن آحاز الملك الذي كان بالشام وبيت المقدس من ولد سليمان بن داود صاحب شعيا، يقال له بختنصر نبو زرادان بن سنحاريب، صاحب الموصل وناحيتها، بن داريوش بن عبيري بن نيري بن روبا ابن رابيا بن سلامون بن داود طاحي بن هامل بن هرمان بن فودي بن حمول بن درمي بن قمائل بن صاما بن رغما بن نمرود بن كوش بن حام بن نوح عليه السلام". وكل ما هو مسرود أكاذيب لا أساس لها من الصحة فنبوخذ نصر ليس ابناً لسنحاريب، كما أن نسبه الطويل هي أكاذيب أيضاً. والملاحظ هنا أن الطبري جعل العاهل البابلي ينتسب إلى حام ابن نوح وليس من سام ابنه أيضاً وهو ما نلاحظه في نسب التوراة للكنعانيين إلى حام بدلاً من سام. كما ورد في سفر التكوين (الإصحاح-١١).

وقال:

" وكان مسيره إليه (أي لملك اليهود) بسبب ما كان حزقيا وبنو إسرائيل إلى جدّه سنحاريب عند غزوه إياهم، وتوسل إليه بذلك، فقدمه بجماعة كثيرة، ثم اتبعه، فلما توافت العساكر بيت المقدس نصر بخترشه على بني إسرائيل لما أراد الله بهم من العقوبة، فسباهم، وهدم البيت وانصرف إلى بابل، ومعه يوحاحين بن يوياقيم ملك بني إسرائيل في ذلك الوقت..."[٥١].

ومما تذكره المصادر المسمارية صدام نبوخذ نصر مع ملك مصر قبل توليه العرش في معركة "كركميش" ثم تعقبه إياه إلى الحدود المصرية. إلاّ أن النقص الموجود في النصوص لا يجعلنا نعرف المدى الذي تغلغل إليه العاهل البابلي، الذي يبدو أنه وصل إلى ليبيا أو أعمق من ذلك[٥٢].

أما المصادر العربية فتؤكد دخوله إلى مصر. قال الطبري:

" فكتب اليم ملك مصر (أي لنبوخذ نصر عن اليهود الهاربين إلى مصر): ما هم بعبيدك ولكنهم الأحرار أبناء الأحرار، فغزاه بختنصر فقتله وسبى أهل مصر. ثم سار

في أرض المغرب حتى بلغ أقصى تلك الناحية، ثم انطلق بسبي كثير في أهل فلسطين والأردن بينهم دانيال وغيره من الأنبياء"[٥٣]. ويؤكد "ابن قتيبه" ذلك قوله:

" فسار"بختنصر" إلى ملك مصر فاقتتلا، فظفر به" بختنصر" فأسره، وأسر بني إسرائيل، وقتل جنوده، ثم لحق بأرض بابل"[٥٤].

ومما يقوله "ابن خلدون" في أصل العاهل البابلي:

" وقيل إن بختنصر من نسل أشوذ بن سام ولم يقع إلينا دافع هذا النسب ولعله أصح من الأول لأنه قد تقدم نسب سنحاريب[٥٥] في الجرامقة ثم الموصل منهم وهم من ولد أسود".

وقال:

" وأما بنو إسرائيل فيزعمون أن بختنصر من الكسدانيين (أي الكلدانيين) وهم ولد ناحور بن آزر أي ابراهيم عليه السلام. وكان لهم الملك ببابل وكان بختنصر هذا من أعقابهم وكان مدة دولته خمساً وأربعين سنة...."[٥٦].

أما" شهاب الدين النويري" فينحى منحى" الطبري" في خطئه الفادح بنسب تبعيه" نبوخذ نصر" المزعومة إلى الفرس، قال:

" ويقال في اسمه بالفارسية بخترشة، وكان مرزباناً" للهراسف، ومعنى المرزبان أنه ملك على ربع المملكة. وقد قدمنا أن الملك لهراسف كان قد جعله اصبهذا ما بين الأهواز إلى أرض الروم وقال: فسار حتى أتى دمشق فصالحه أهلها، ووجه قائداً له فأتى بيت المقدس فصالح ملك بني إسرائيل. من بني داود...وأخذ منه رهائن وانصرف فلما بلغ طبرية وثب بنو إسرائيل على ملكهم فقتلوه وقالوا له: إنك هادنت أهل الكفر وخذلتنا واستعدوا لقتال بختنصر لما بلغه ما كان، فكان لما فيه ذلك من بني إسرائيل- كتب إليه يخبره بقتلهم ملكهم، فأجابه بختنصر أن يقيم بموضعه حتى يوافيه، وأمره بضرب أعناق الرهائن الذين معه. وسار بختنصر حتى أتى بيت المقدس فأخذ المدينة عنوة وقتل المقاتلة وسبى الذرية وهرب الباقون إلى مصر...."[٥٧]. ثم يسرد ما مرّ بشأن ملك مصر.

اما "ابن خلدون" فيذكر ببعض التفصيل أموراً تخص العاهل البابلي ولا سيما فيما يتعلق باليهود وهروبهم إلى مصر، وإن ملكها "فرعون الأعرج" تقاتل مع نبوخذ نصر في السنة الخامسة من حكم الأخير. ومما ذكره ابن خلدون نسب نبوخذ نصر

قائلاً:

"ولنذكر هنا ما وقع من الخلاف في نسب بختنصر هذا وإلى من يرجع من الأمم"[٥٨]. ثم يذكر ما سبق إيراده من نسبه إلى "سنحاريب" وقول "هشام الكلبي" فيما نقل "الطبري".

وعلى أي حال، على الرغم من أن المصادر العربية نقلت فقرات مجحفة عن "نبوخذ نصر" عن مصادر يهودية أو أعجمية فإن بعضهم كان في ريب مما كان ينقل، فشهاب الدين النويري يورد قوله:

"وقد تقدم أن بختنصر لم يكن ملكاً وإنما كان مرزباناً لملوك الفرس الأول، إلا أن يكون هذا غير ذاك والله أعلم"[٥٩]!!.

أما ابن العبري فقال:

"واستخلف (أي سنحاريب) بخت نصر وكان ابن بنته وسار بسيرته"[٦٠].

وقال: "فسلط الله عليهم (أي على اليهود) بخت نصر فخرج من بابل في ستمائة ألف راية يريد أهل بيت المقدس وأرسل الله تعالى صاعقة على بيت المقدس فألهب مكان الرهبان وخسف بسبعة أبواب من أبوابها، فلما رأى أرميا ذلك طار حتى خرج من المدينة وخالط الوحوش ودخل بخت نصر وجنوده بيت المقدس وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم بعد أن قتل أربعين ألف رجل.. وأخرب بيت المقدس ونهب ما فيه..."[٦١]. ثم ذكر المعركة التي دارت بين ملك مصر وعاهل بابل.

ومما قاله ابن العبري عن صدقيا ملك اليهود:

"كان اسمه مشنيا ومختتصر سماه صدقيا. ملك إحدى عشرة سنة. ثم عصى ومنع الجزية التي كان يؤديها إلى بختتصر. فعاد إليه وأسره وذبح أولاده بين يديه وسمل عينيه. وسار إلى أثور وجعله يدير الرحى مثل الحمار. وكان عمره اثنين وثلاثين سنة. ولما مات رميت جثته وراء السور فأكله الكلاب. وفي هذه المرة دخل بختتصر إلى مصر وأجزاء البحر وهدم مدناً كثيرة وأحرق مدينة صور وقتل حيرم ملكها وكان عمره كما يقال خمسمائة سنة. وبعث بختتصر نبوزردن إلى أورشليم فدعثر سورها وأحرق الهيكل"[٦٢].

وإذا كان العاهل البابلي الكبير لم يسلم من جعله تابعاً ومما أورده الطبري من أكاذيب اليهود ثم الآخرين. قال الطبري:

ثم قام من بعده (أي نبوخذ نصر) ابن يقال له اولمردوخ (أي اويل مردوخ)، فملك الناحية ثلاثاً وعشرين سنة، ثم وملك فكان ابن يقال له بلتشصر أو لمرودخ، فلما ملك بلتشصر خلط في أمره، ففر له بهميه وملك مكانه على بابل، وما يتصل بها من الشام وغيرها الماذي المنسوب إلى ماذي بن يافث بن نوح عليه السلام من حين صار إلى المشرق، فقتل بلتشصر، وملك بابل وناحية الشام ثلاث سنين... ثم ملك بابل وناحيتها من قبل بهمن رجل من قرابته، يقال له اخسوارش ابن كبش بن جاماسب، الملقب بالعالم، من الأربعة الوجوه الذين اختارهم نخترشه عند توجهه إلى الشام من قبل بهمن، وذلك أن اخشوارش انصرف إلى بهيمن من عند تختتصر محموداً فولاه ذلك الوقت بابل وناحيتها"[٦٣].

لقد سبق أن أوردت قائمة الملوك الذين تبعوا العاهل البابلي الكبير بالاسم ومدة حكمهم وبالمقارنة يتضح كذب النصوص التي أوردها (الطبري). كما أن النص الأخير يجعل (اخشوارش) (أي اخشويرش) معاصراً لنبوخذ نصر في حين أتى بعده بزمن طويل وأن أكاذيب المصادر الفارسية تجعله عاملاً من ملك خرافي يدعى (بهمن).

ويورد "ابن خلدون" ترجمة موجزة في ذلك بقوله:

"وملك بعد (أي نبوخذ نصر) اويل ماخ ثلاثاً وعشرين سنة ثم بعد ابنه فيلسنصر بن اويل ثلاث سنين ثم غلب عليه كورش وأزال ملكهم"[٦٤].

وهذا النص مفعم بالأخطاء من ناحية إيراد الأسماء وفترات الحكم، ثم قضاء كورش على الشخص الذي من المفروض أن يكون الملك هو "نابونائيد" الذي لا تذكره المصادر العربية.

وعلى أي حال، لم أوغل في نقد أقوال "ابن العبري" أو غيره لأن المطلع على أحداث العصر البابلي الحديث يتضح له أن ما ورد من حديث عن "نبوخذ نصر" لم يكن مرده عدم وجود وثائق لدى من سطر أحداثاً لا وجود لها، بل إن الأمر كان مقصوداً لتشويه سمعة بابل وعاهلها الكبير بأساليب خبيثة شارك فيها الكتاب الفرس واليهود.

عاصمتان وتراث:

بعد أن تحدثنا عن عاهلين عراقيين مهمين أحدهما ضمن قائمة الملوك الآشوريين والآخر ضمن القائمة البابلية نأتي إلى فقرات تتحدث عن مدينتين كانتا عاصمتين للعراق ولأهميتهما فقد أشارت لهما مراجع عربية كثيرة وأعني: بابل ونينوى.

قال الطبري:

"حدثني الحارث، قال: حدثنا ابن سعد، قال: أخبرني هشام بن محمد، قال: أخبرني أبي عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: لما ضاقت بولد نوح سوق ثمانين تحولوا إلى بابل فبنوها، وهي بين الفرات والصراة وكانت اثني عشر فرسخاً في اثني عشر فرسخاً، وكان بابها موضع دوران اليوم فوق جسر الكوفة يسرة" إذا عبرت، فكثروا بها حتى بلغوا مائة ألف وهي على الإسلام"(٦٥).

أما "الحميري" في "الروض المعطار" فقال:

"كانت بابل في عظمها واستبشاعها أمرها لا تكاد تجعل من عمل الآدميين... وينسب إليها السحر والخمر... ويقال أن نمرود أسسها، وهي مدينة ضاحكة المنظر جميلة المنصب زاهرة البناء واسعة الفناء قد جمعت إلى حسن المنظر من كل جانب رصانة البنيان وبهاء المنصب، وكانت سهلة بطحاء ديمومة فيحاء مربعة لها في كل تربيع حصنان عظيمان، وسائر ذلك من سورها لا يكاد من يبلغه يصدق بصفته لكثرة ارتفاعه وفرط إتقانه، وكان خمسين ذراعاً عرضاً في ارتفاع مائتي ذراع في دور أربعة وستين ميلاً، مبيناً بالآجر المرصرص، وقد خندق هو لها بخندق يجري فيه الفرات وفيه مائة باب من نحاس. وسعة السور في أعلاه كسعته في أسفله، وقد بني في أعلاه مساكن للمقاتلة والجوابي متصلة في جميع دوره. قالوا: وبابل أقدم بناء بني بعد الطوفان وإن منها تفرق ولد نوح عليه السلام، وإن الذي هدمها كسرى الأول ملك الفرس لما تغلب على أرض بابل، وملوك بابل هم النبط، وزعموا أنهم أول ملوك العالم وأن الفرس أخذت عنهم..."(٦٦)، والفقرة الأخيرة مما سبق ذكره نقلاً عن المسعودي في أصالة أثر بابل.

وقال ياقوت الحموي (ت-٦٢٦ هـ/١٢٢٨م):

"وقال أبو الحسن بابل الكوفة وقال أبو معشر الكلدانيون هم الذين كانوا ينزلون بابل في الزمن الأول. ويقال: إن أول من سكنها نوح عليه السلام، وهو أول من عمرها، وكان قد نزلها بعقب الطوفان، فسار هو ومن خرج معه من السفينة إليها لطلب الدفء، فأقاموا بها وتناسلوا فيها وأكثروا من بعد نوح، وملكوا عليهم ملوكاً، وابتنوا المدائن واتصلت مساكنهم بدجلة والفرات إلى أن بلغوا دجلة أسفل كسكر- من الفرات إلى ما وراء الكوفة وموضعهم هو الذي يقال له السواد، وكانت ملوكهم تنزل بابل، وكان الكلدانيون جنودهم، فلم تزل مساكنهم قائمة إلى أن قتل دارا أخر ملوكهم... وكذلك بخت نصر الذي يزعم أهل السير أنه ممن ملك الأرض بأسرها"(٦٧).

وقال "الحموي" ايضاً:

"قال أبو منذر هشام بن محمد إن مدينة بابل كانت اثني عشر فرسخاً في مثل ذلك، وكان بابها مما يلي الكوفة وكان الفرات يجري ببابل حتى صرفه بختنصر إلى موضعه الأن مخافة أن يهدم عليه سور المدينة لأنه كان يجري معه قال: ومدينة بابل بناها بيوراسب(٦٨) الجبار واشتق اسمها من المشتري لأن بابل بالسان البابلي الأول اسم للمشتري، ولما استتم بناؤها جمع إليها كل عدد الروج، وسماها بأسمائهم، فلم تزل عامرة حتى كان الاسكندر، وهو الذي خربها"(٦٩). ومن المعلوم أن اسم بابل يعني "باب الإله أو الآلهة". أما علاقة المشتري بها فلا يخص الاسم بل إلهها "مردوخ".

ومما يذكره الحموي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل دهقان الفلوجة عن عجائب بلادهم، فقال:

"كانت بابل سبع مدن، وفي كل مدينة أعجوبة ليست في الأخرى، فكان في المدينة التي نزلها الملك بيت فيه صورة الأرض كلها برساتيقها وقراها وأنهارها..." ثم يعدد ما في مثل المدن من عجائب بما فيها من مبالغة من ذلك أنه كان في المدينة الرابعة: "مرآة من حديد فإذا غاب الرجل عن أهله وأحبوا أن يعرفوا خبره على صحته، أتوا تلك المرآة فنظروا فيها فرأوا على الحال التي هو فيها". "وفي المدينة الخامسة أوزة من نحاس على عمود من نحاس منصوب على باب المدينة، فإذا دخلها جاسوس صوتت الإوزة بصوت سمعه جميع أهل المدينة..."(٧٠).

ومما لا شك فيه أن تلك المبالغات فيها ما يشير إلى رفعة اسم بابل وكونها موطنا ومنطلقاً للعلم، حتى إننا نرى أن ما يتحدث عنه الناس، حتى في عهود الإسلام ما يشير إلى رفعتها وحب الناس لها.

أما أبو الفداء (ت-٧٣٢ هـ) فقال:

"وقد صار في موضعها قرية صغيرة. قال ابن حوقل وبابل قرية صغيرة إلا أنها أقدم أبنية العراق ونسب ذلك الإقليم إليها لقدمها، وكانت ملوك الكلدانيين[٧١] وغيرهم يقيمون بها وبها آثار أبنية أحسبها أن تكون في قديم الأيام نصراً عظيماً"[٧٢].

أما مدينة نينوى فخبرها قل أن نجده في المصادر العربية، لأن التاريخ البابلي أقرب إليها من الآشوري وذلك بسبب الفاصلة الزمنية الأبعد. وعن هذه المدينة يحدثنا "ياقوت" بإيجاز قوله:

نينوى: "بكسر أوله، وسكون ثانيه، وفتح النون والواو بوزن طيطوى، وهي قرية يونس بن متى، عليه السلام بالموصل وبسواد الكوفة ناحية يقال لها نينوى"[٧٣].

ويقول "الحميري" (القرن: ٧-٨ هـ):

"كورة من كور الموصل من عمل الجزيرة، وهي مقابلة للموصل بينهما دجلة.. وأول من بنى هذه المدينة ملك يقال له بسوس وكان ملكه من شاطي دجلة إلى أرمينية إلى أذربيجان إلى حد الجزيرة والجودي... وقد خربت وآثار سورها بينه وأصنام من حجارة مكبوبة على وجوهها"[٧٤].

التوراة وما فيها من إشارات إلى العراق القديم

حينما نستعرض تاريخ العراق القديم من خلال المصادر العربية ونلقي نظرة على ما جاء في التوراة لسبب بسيط هو أن بعض المؤرخين العرب والمسلمين اقتبسوا جانباً منها.

كان ملوك العراق على تماس مع اليهود في عصر الامبراطوريتين الآشورية والبابلية بشكل خاص. وأكثر ما كانت تلك الصلات عسكرية ولما تتركه الحملات من ردود فعل فعلينا أن لا نتوقع عكس الأحداث بشكل منصف أو ما يشبه ذلك. ومثل هذا الأمر نلمسه في السطور التي كتبت عن مصر حين كان اليهود يعيشون فيها فكل

شيء لا يعكس عظمة مصر وروائع حضارتها بل الكراهية المطلقة لمصر وشعبها والتشفي لما يصبها.

يقع كتاب اليهود في ٣٩ سفراً، حسب النسخة المتداولة منها، ويقع معظم ما كتب عن العراق في سطور لبعض من أطلق عليهم اسم "الأنبياء" وفي مفري الملوك والايام. الا أن أول تلميح عن أحد أهم مدن العراق جاء في أول سفر، وهو (التكوين)، دون ذكر لأسماء ملوك أو حكام. لقد جاء ما يلي:

"وكانت الأرض كلها لساناً واحداً. وحدث في ارتحالهم مشرقاً أهم وجددوا بقعته في أرض شنعار وسكنوا هناك. وقال بعضهم لبعض هلم نصنع لبناً ونشويه شياً، فكان لهم اللبن مكان الحجر وكان لهم الجمر مكان الطين. وقالوا هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه السماء ونصنع لأنفسنا اسماً لا تتبدد على وجه كل الأرض. فنزل الرب ينظر المدينة والبرج الذين كان بنو آدم يبنونهما. وقال الرب هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل. والأن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. هلم ننزل ونبلبل هناك على وجه كل الأرض. فكفوا عن بنيان المدينة. لذلك دعي اسمها بابل لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض[٧٥]".

وعلى أي حال، يمكن مناقشة ما ورد في تلك السطور بالاتي:

إن "شنعار" الوارد اسمها تعني جنوب العراق، وكان فيها لسانان لا واحد هما: السومري والأكادي، ولم يشتق أحدهما من الآخر.

إن سكان العراق القديم استمروا على البناء بالطين ثم باللبن غير المشوي منذ بداية الاستقرار في مواطن منذ نحو ١٠ آلاف عام واستمر الأمر كذلك حتى قبل نحو ٥٠٠٠ عام دون معرفة واضحة بالطابوق.

إن المدينة المقصودة بالبناء (بابل) لم تبن دفعة واحدة بل كانت قرية بسيطة منذ العهد الأكادي ثم نمت وتوسعت خلال العصر البابلي القديم قبل ٤٠٠٠ عام ولا سيما زمن ملكها حمورابي ١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م.

إن بناء الزقورة أو البرج المدرج جاء لاحقاً وليس منذ بداية تأسيس المدينة. علماً بأن أول تشييد لزقورات بشكلها الكامل كان زمن مؤسس سلالة أور الثالثة (اورنمو) قبل نحو ٤١٠٠ عام. أما برج بابل بصيغته الأخيرة فكان خلال عصر المدينة الامبراطوري

٦٢٦-٥٣٩ ق.م. ومما يبدو أن آن تعبير "برجا" رأسه السماء"هو من اسم هذا المعبد بالبابلية (أي-تمن-آن-كي)، أي البرج الذي أساسه السماء والأرض[٧٦].

كلنا يعلم أن الله جلت قدرته ليست له مواصفات مادية فهو منزه عن الصعود والنزول. لذا فإن العبارة: "فنزل الرب لينظر المدينة والبرج" إضافات من الفكر الوثني ومثل هذه المواصفات نراها في القسم الأخير من (الإصحاح-٣٢) عند لقاء النبي يعقوب لشخص وصارعه من الليل وحتى الفجر، وغلب يعقوب هذا الشخص الذي سأله: "ما اسمك؟ فقال: يعقوب فقال: "لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل. لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت. وسأل يعقوب وقال: أخبرني باسمك. فقال: لماذا تسأل عن اسمي. وباركه هناك" والأمر هنا لا يحتاج إلى إيضاح لأن الذي صارعه يعقوب وتغلب عليه هو (الله). ومن ثم فإن فقرات الافتراء على بابل مرفوضة من أناس لا يفهمون حقيقة التوحيد ولا كون الخالق: "ليس كمثله شيء"[٧٧]. ومثل هذا نراه في السفر الثاني (الخروج) ففي الإصحاح (٢٤) جاء ما يلي: "ثم صعد موسى وهرن وناداب وآبيهو سبعون من شيوخ إسرائيل ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة. ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل. فرأوا الله وأكلوا (معه) وشربوا؟ (الفقرات: ٩-١١).

إن اسم بابل باللغة البابلية (باب -ايلي) بمعنى: باب الله أو الآلهة. واسمها بالسومرية: "كا-دنكر-را"، وهو ما يعنيه اسمها بالبابلية. ومن ثم فإن تلفيق الاسم وجعله من (بلبلة الألسنة) آكاذيب لا أساس لها من الصحة، وإنما جاء الأمر لغاية مكشوفة تتلخص في تشويه سمعة بابل التي وجهت ضربتين مهلكتين لمملكة يهوذا زمن عاهلها الكبير "نبوخذ نصر". علماً بأن كتاب اليهود لم يدون إلا بعد انتهاء العصر البابلي الامراطوري، أي بعد عصر نبوخذ نصر.

وفي سفر التكوين يرد في (الإصحاح-١١) اسم بابل وآكد وآروك (الوركاء) وهذه أول مرة يرد فيها اسم مدينة أكاد عاصمة الأكاديين. ولا يجعل الإصحاح سكانها من الساميين بل من الحاميين الذين ينسب اليهود إليهم المصريين والكنعانيين.

وإذا كان ما أشرنا إليه عن عموم العراق نتصفح فقرات مما ورد في كتاب اليهود عن جانب آخر يخص ملوكه، ومن البديهي أولئك الذين احتك بهم اليهود. ولم

يشر كاتبو سطور التوراة بشيء عن ملوك العراق الأقدم من القرن التاسع ق.م. وحين ذكرهم لملوك البابليين والآشوريين فبصيغ نرى فيها بعض التحريف فالملك "شروكين"، بمعنى الملك الحقيقي أو الصادق أسموه "سرجون"، و"سين أخي أريبا"، جاء بصيغة "سنحاريب"، و"آشر آبلا ادينا" دعوه "آشور بانيبال"، و"نبوخذ نصر" في الإصحاح الأول من "دانيال"، وفي الثاني وما يليه يرد بصيغة "نبوخذ نصر". وفي الملوك الثاني (٢٥: ١) نبوخذ نصر، وفي نفس السفر يرد اسمه بالصيغة المعتادة، كما يرد في "ارميا" بصيغة "نبوخذ نصر" أيضاً[(٧٨)]، وكذا "نبوخذ ناصر"[(٧٩)].

إذا ما أتينا إلى العهد الآشوري، فإننا سنتحدث عن الجانب الامبراطوري منه ٩١٠-٦١٢ ق.م لان العهدين القديم ٢٠٠٠-١٥٠٠ والوسيط ١٥٠٠-٩١٠ ق.م لا يتناولهما كتاب اليهود لجهل الكتبة به. وإذا كان سفر الملوك الثاني قد وافانا بمعلومات عن بعض ملوك العهد الآشوري الامبراطوري فإن الأول منه لا يحدثنا في معظم إصحاحاته إلا عن الملك سليمان ٩٧١-٩٣١ ق.م. وأحداث غير بعيدة عن زمنه. أما الثاني فيحدثنا في مطلعه عن علاقات اليهود بالآراميين وحروبهم معهم من ذلك الكلام عن "نعمان رئيس جيش آرام". في الإصحاح الخامس.

أما فيما يخص الآشوريين، فإن ذكرهم يبدأ من عصرهم الامبراطوري ويشير سفر الملوك الثاني إليهم. لقد جاء في الإصحاح (١٦) منه علاقة مساومة بين (آحاز) ملك (يهوذا) و"تجلات بلاصر" "تغلات فلاسر- حسب الإصحاح" ضد ملوك الآراميين:

"وأرسل آحاز رسلاً إلى تغلات فلاسر ملك آشور قائلاً: أنا عبدك وابنك. اصعد وخلصني من يد ملك آرام ومن يد ملك إسرائيل القائمين علي. فأخذ آحاز الفضة والذهب الموجودة في بيت الرب- في خزائن بيت الملك وأرسلها إلى ملك آشور هدية. فسمع له ملك آشور وصعد ملك آشور إلى دمشق وأخذها وسباها إلى قير وقتل رصين. وسار الملك آحاز للقاء تغلات فلاسر ملك آشور إلى دمشق ورأى المذبح الذي في دمشق.."[(٨٠)] وفي نهاية الإصحاح: "وقطع الملك آحاز القواعد ورفع عنها المرخصة وأنزل البحر من ثيران النحاس التي تحته وجعله على رصيف من حجارة ورواق السبت الذي بنوه في البيت ومدخل الملك من خارج غيره في بيت الرب من أجل ملك آشور"[(٨١)]. إلا أن مما تجدر الإشارة إليه أن ذكر ملك يهوذا آحاز لملك إسرائيل، جاء عبر تسمية لاحقة، إذ إن

النصوص الآشورية والبابلية لا تذكر ما عرف لاحقاً بأقلام الكتاب اليهود بإسرائيل بل بمصطلح "بيت عومري"(٨٢). علماً بأن التجمع اليهودي في فلسطين انقسم إلى قسمين بعد "سليمان": السامرة ويهوذا. "أما السامرة (بيت عومري) التي عرفت خطأ باسم إسرائيل فقد قضى عليها سرجون الآشوري ٧٢٢-٧٠٥ ق.م في مطلع حكمه"(٨٣).

وفي "أخبار الأيام الأول"، التالي لسفر الملوك الثاني يأتي اسم "تجلات بلا صر" بصيغة "تلغث فلناسر" في الإصحاح الخاص وترد إشارة لأسرة (بئيرة) اليهودي. وفي نهاية الإصحاح يأتي اسم ملك آخر إلى جانب "تجلات بلاصر" هو "فول" كملك لآشور أيضاً. وفي الإصحاح ٢٨ من أخبار الأيام الثاني يرد ذكر "تجلات بلاصر" الملك بالصيغة السابقة حيث يستلم استغاثة من "آحاز" ملك يهوذا:

"في ذلك الوقت أرسل الملك آحاز إلى ملوك آشور لكي يساعدوه. فإن الأدوميين أتوا أيضاً وضربوا يهوذا وسبوا سبياً، واقتحم الفلسطنيون مدن السواحل وجنوبي يهوذا وأخذوا بيت شمس وإيلون وجديروت وسوكو وقراها وتمنة وقراها وجمزو وقراها وسكنوا هناك. لأن الرب ذلل يهوذا بسبب آحاز ملك إسرائيل لأنه أجمع يهوذا وخان الرب خيانة. فجاء عليه تغلات فلاسر ملك آشور وضايقه ولم يشدده. لأن آحاز أخذ قسماً من بيت الرب ومن بيت الملك ومن الرؤساء وأعطاه لملك آشور ولكنه لم يساعده"(٨٤). ويحدثنا "أخبار الأيام الثاني "عن "منسي ابن حزقيا" الذي تسلم السلطة وعمره ١٢ سنة كملك يوذا: "وعمل الشر في عيني الرب... فجلب بخزامة وقيدوه بسلاسل نحاس وذهبوا به إلى بابل"(٨٥). ولم يذكر الإصحاح اسم ملك آشور.

وفي سفر "يونان بن أمتاي" (صاحب الحوت) تقرأ أن الرب أمره بالذهاب إلى "نينوى المدينة العظيمة"(٨٦). بغية إرشاد أهلها. ولعل هذه هي المرة الأولى التي نقرأ فيها نبياً منسوباً إلى اليهود يذهب لبعض غير أبناء ملته. لو راجعنا "سفر الخروج" وما فيه من أحداث تخص اليهود حينما كانوا بمصر نرى أن الغاية من المعجزات التسع التي قام بها موسى أمام ملك مصر هي لإجباره على السماح لليهود بمغادرة مصر، ولم يكن لنصح الملك على اتباع مبدأ التوحيد ثم الحد من جبروته. وهذه الحالة هي عكس ما نراها في القرآن الكريم حينما يخاطب الله النبي موسى بالقول: "اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى"(٨٧)، وكذا يخاطبه وأخاه: "اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ❁ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ

يَخْشَى"[٨٨]. والذي يبدو أن إبعاد اليهود سمة الدعوة لغير مجموعتهم هو للتأكيد على مبدأ (قومية) وعنصرية الفكر اليهودي. أما في سفر (يونان) فالأمر مختلف يشرحه لنا الإصحاح الثالث:

"ثم صار قول الرب إلى يونان ثانية قائلاً قم اذهب إلى نينوى العظيمة وناد لها المناداة التي أنا مكلمك بها".

"فقام يونان وذهب إلى نينوى بحسب قول الرب. أما نينوى فكانت مدينة عظيمة لله مسيرة ثلاثة أيام. فأخذ يونان يدخل المدينة مسيرة يوم واحد ونادى وقال بعد أربعين يوماً تنقلب نينوى".

"فآمن أهل نينوى بالله ونادوا بصوم ولبسوا مسوحاً من كبيرهم إلى صغيرهم. وبلغ الأمر ملك نينوى فقام عن كرسيه وخلع رداءه عنه وتغطى بمسح وجلس على الرماد. ونودي وقيل في نينوى عن أمر الملك وعظمائه قائلاً: لا تذق الناس ولا البهائم ثم ولا البقر ولا الغنم شيئاً. لا ترع ولا تشرب ماءً. ولتغط بمسوح الناس والبهائم ويصرخوا إلى الله بشدة ويرجعوا كل واحدة عن طريقه الرديئة وعن الظلم الذي في أيديهم. لعل الله يعود ويندم ويرجع عن حمو غضبه فلا نهلك".

"فلما رأى الله أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة ندم الله على الذي تكلم أن يصنعه بهم فلم يصنعه"[٨٩]. وفي نهاية الإصحاح الرابع يريد الله الموت بيونان، وفي آخر سطر يقول الله:

"أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التي يوجد فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة!!. والسؤال: إذا كانت نينوى عظيمة فكيف لا يعرف شعبها "يمينهم من شمالهم". إنه طعن مبطن بالآشوريين ومن المفيد الإشارة إلى أن هذا السفر لا يشير إلى اسم ملك آشور، كما هو الحال مع ملوك مصر الذي يرد ذكرهم بلقبهم "فرعون" ليس إلا، الأمر الذي يجعل العديد من تلك النصوص مشكوكاً بها.

من الملوك الذين لعبوا دوراً تاريخياً مهماً في حياة العراق القديم "شلمنصر الثالث" ٨٥٨-٨٢٤ ق.م، ابن الملك "آشور ناصر بال الثاني" ٨٨٣-٨٥٩ ق.م وكجزء من فعالياته العسكرية حملته على (يهو) ملك السامرة، الذي صوره "شلمنصر" ساجداً أمام أقدامه

في مسلته. ومع ذلك فإن سفر الملوك لا يذكره. أما "شلمنصر" الذي تشير إليه التوراة فهو الخامس ٧٢٧-٧٢٢ ق.م بما نصه:

"في السنة الثانية لـ آحاز ملك يهوذا ملك هوشع بن ايله في السامرة وعلى إسرائيل تسع سنين. وعمل الشر في عيني الرب ولكن ليس كملوك إسرائيل الذين كانوا قبله. وصعد عليه شلمناسر ملك آشور فصار له هوشع عبداً ودفع له جزية. ووجد ملك آشور في هوشع خيانة، لأنه أرسل رسلاً إلى سوا ملك مصر ولم يؤد جزية إلى ملك آشور حسب كل سنة. فقبض عليه ملك آشور وأوثقه في السجن. وصعد ملك آشور على كل الأرض وصعد إلى السامرة وحاصرها ثلاث سنين. في السنة التاسعة لهوشع أخذ ملك آشور السامرة وسبى إسرائيل إلى آشور وأسكنهم في حلح وخابور نهر جوزان وفي مدن مادي"[٩٠]. وفي السفر التالي جاء:

"وفي السنة الثالثة لهوشع بن ايلة ملك إسرائيل ملك حزقيا بن آحاز ملك يهوذا... وكان الرب معه وحيثما كان يخرج ينجح وعصى على ملك آشور ولم يتعبد له... وفي السنة الرابعة للملك حزقيا وفي السنة السابعة لهوشع بن ايلة ملك إسرائيل صعد شلمناسر ملك آشور على السامرة وحاصرها. وأخذوها في نهاية ثلاث سنين، ففي السنة السادسة لحزقيا وهي السنة التاسعة لهوشع ملك إسرائيل أخذت السامرة. وسبى ملك آشور إسرائيل إلى آشور ووضعهم في حلح وخابور نهر جوزان وفي مدن مادي"[٩١].

إلا أن من يتابع الأحداث في عين الإصحاح ١٨ يرى أن الكاتب لا يراعي التسلسل التاريخي، فبعد أن نسب احتلال السامرة إلى "شلمنصر"، وهو الخامس كما أشرنا. يأتي مباشرة ذكر الملك "سنحاريب" ٧٠٤-٦٨١ ق.م ولا يذكر والده "سرجون" ٧٢٢-٧٠٥ ق.م على الرغم من أنه هو الذي أزال "السامرة"، أو ما تسمى (إسرائيل) من الوجود. أي أن هناك إهمالاً لسبع عشرة سنة من الأحداث لملك له مكانته التاريخية البارزة في السياسة والإعمار. ومثل هذا نراه في "الأيام الثاني" حيث ترد الإشارة إلى "آحاز" وهو يلتمس ملك آشور "تجلات بلاصر" (تلغث فلناسر حسب التوراة). لقد جاء في النص:

"فجاء عليه تلغث فلناسر ملك آشور وضايقه ولم يشدده. لأن آحاز أخذ قسماً من بيت الرب ومن بيت الملك ومن الرؤساء وأعطاه لملك آشور ولكنه لم يساعده"[٩٢]. وبعد أربعة إصحاحات يأتي الحديث على سنحاريب دون ذكر والده أيضاً. والملاحظ أن

"الملوك الثاني" يعطي تفاصيل أكثر عن "سنحاريب" و "نبوخذ نصر" من أخبار الأيام الثاني.

يبدأ ذكر "سنحاريب" في الملوك الثاني بعد الإشارة إلى "شلمنصر الخامس"، كما أشرنا في عين الإصحاح ١٨: "وفي السنة الرابعة عشرة لملك حزقيا صعد سنحاريب ملك آشور على جميع مدن يهوذا الحصنية وأخذها. وأرسل حزقيا ملك يهوذا إلى ملك آشور إلى لخيش يقول قد أخطأت. أرجع عني ومهما جعلت على حملته فوضع ملك آشور على حزقيا ملك يهوذا ثلاث مئة وزنة من الفضة وثلاثين وزنة من الذهب فدفع حزقيا جميع الفضة الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك. في ذلك الزمان قشّر حزقيا الذهب عن أبواب هيكل الرب والدعائم التي كان قد غشاها حزقياً ملك يهوذا ودفعه لملك آشور"(٩٣).

ومما جاء في عين الإصحاح كاستمرار للأحداث السابقة:

"وأرسل ملك آشور ترتان وربساريس وربشاقي من لخيش إلى الملك حزقيا بجيش عظيم إلى أورشليم فصعدوا وأتوا إلى أورشليم. ولما صعدو جاءوا ووقفوا عند قناة البركة العليا التي في طريق حقل القصار. ودعوا الملك فخرج إليهم الياقيم بن حلقيا الذي على البيت وشبنة الكاتب ويواخ بن آساف المسجل. فقال لهم ربشاقي. قولوا لحزقيا. هكذا يقول الملك العظيم ملك آشور، أما الاتكال الذي اتكلت عليه، قلت إنما كلام الشفتين هو مشورة وبأس للحرب. والأن على من اتكلت حتى عصيت علي. فالأن هو ذا قد اتكلت على عكاز هذه القصبة المرضوضة على مصر التي إذا توكأ أحد عليها دخلت في كفه وثقبتها. هكذا هو فرعون ملك مصر..."(٩٤). وبعد تهديد القائد الآشوري المستمر دب الذعر في صفوف اليهود لذا قال:

"الياقيم بن حلقيا وشبنة ويواخ لربشاقي: كلم عبيدك بالآرامي لأننا نفهمه ولا تكلمنا باليهودي في مسامع الشعب الذين على السور. فقال لهم ربشاقي: هل إلى سيدك واليك أرسلني سيدي لكي أتكلم بهذا الكلام. أليس إلى الرجال الجالسين على السور ليأكلوا عذرتهم ويشربوا بولهم معكم. ثم وقف ربشاقي ونادى بصوت عظيم باليهودي وتكلم قائلاً: اسمعوا كلام الملك العظيم ملك آشور. هكذا يقول الملك..."(٩٥).

ثم يستمر الريشاقي بتهديده ويطلب أن لا ينساقوا وراء تحريض "حزقيا". وفي الإصحاح التالي نرى أسى "حزقيا" لذا يبدأ بالقول "فلما سمع الملك حزقيا ذلك مزق ثيابه وتغطى بمسح ودخل بيت الرب"(٩٦). إلا أن النبي "أشعيا" يطلب من "حزقيا" عدم الخوف. وينتهي الإصحاح بذكر مصير الآشوريين عبر حدث لا يصدقه أبسط الناس:

"وكان في تلك الليلة أن ملاك الرب خرج وضرب من جيش آشور مئة ألف وخمسة وثمانين ألفاً. ولما بكروا صباحاً إذا هم جميعاً جثث ميتة. فانصرف سنحاريب ملك آشور وذهب راجعاً وأقام في نينوى"(٩٧). وعلى أي حال إن هذا العدد المزعوم من القتلى يعادل تقريباً ضحايا قنبلتي "هيروشيما" و"ناكازاكي" الذريتين اللتين ألقاهما المجرمون الأمريكان على اليابان عام ١٩٤٥. إن مثل هذه الأكاذيب نراها في "الملوك الأول" حين حارب الآراميون اليهود، ولكن دون تدخل من "ملاك الرب":

"وفي اليوم السابع اشتبكت الحرب فضرب بنو إسرائيل من الآراميين مئة ألف رجل في يوم واحد. والعرب الباقون إلى أفيق إلى المدينة وسقط السور على السبعة والعشرين ألف رجل الباقين"(٩٨).

ولكن حينما يراجع المرء النصوص المسمارية يرى أن الملك "سنحاريب" سطر هذا الحصار في نصوصه بما يؤكد أكاذيب اليهود. قال سنحاريب:

"وبالنسبة لحزقيا اليهودي (حزقياء ويأوادي) الذي لم يخضع لعبوديتي ستاً وأربعين مدينة من مدنه القوية المحصنة، وكذلك المدن الصغيرة المجاورة لها، التي لا حصر لها، حاصرتها وفتحتها بمركبات حربية (شوكبوس آرامي)(٩٩). وآلات الحصار، وبالمشاة، وبسلالم تسلق القلاع".

"٢٠٠١٥٠ نسمة كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً، خيولاً، بغالاً، حميراً، جمالاً، أبقاراً، وأغناماً، بدون حصر جلبتها منهم وجعلتها أسلاباً. ونفسه (حزقيا) أسرته كطير سجين (كما اصور قوبي) في عاصمة ملكه أورسالمو"(١٠٠).

ومن هذا نفهم أن غاية واضعي تاريخ أحداث التوراة من ذلك التشويه هو بغيته طمس معالم اندحارهم وفشلهم وهو ما أوضحه التنقيب الآثاري وقراءة المصادر المسمارية.

وإذا ما اجتزنا "الملوك الثاني" لنأتي إلى "الأيام الثاني" ونتتبع حصار "سنحاريب" لمدن اليهود نرى هناك فرقاً في إيراد بعض النقاط. لقد جاء في الإصحاح٣٢:

"وبعد هذه الأمور وهذه الامانة أتى سنحاريب ودخل يهوذا ونزل على المدن الحصينة وطمع بإخضاعها. ولما رأى حزقيا أن سنحاريب قد أتى ووجهه على محاربة أورشليم تشاور هو ورؤساؤه وجبابرته على طمر مياه العيون التي في خارج المدينة فساعده. فتجمع شعب كثير وطموا جميع الينابيع والنهر الجاري في وسط الأرض قائلين: لماذا يأتي ملوك آشور ويجدون مياه غزيرة..."[١٠١]. بعدها يشير النص إلى محاولات لإضفاء المعنوية على نفوس اليهود. ثم يقول ذات الإصحاح:

"بعد هذا أرسل سنحاريب ملك آشور عبيده إلى أورشليم. وهو على لخيش وكل سلطنته معه. إلى حزقيا ملك يهوذا وإلى يهوذا الذين في أورشليم يقولون. هكذا يقول سنحاريب ملك آشور. على ماذا تتكلون وتقيمون الحصار في أورشليم. أليس حزقيا يغوي بكم ليدفعكم للموت بالجوع والعطش..."[١٠٢]. ثم قال عن الآشوريين "وصرخوا بصوت عظيم باليهودي إلى شعب أورشليم الذين على السور لتخويفهم وترويعهم لكي يأخذوا المدينة"[١٠٣].

والملاحظ هنا أنه لا يوجد أي ذكر لحوار "الرابشاقي". ومما يشير إليه ذات الإصحاح إلى صلاة حزقيا وأشعيا ليتخلصوا من حصار الآشوريين بالقول: "فأرسل الرب ملاكاً فأباد كل جبار بأس ورئيس وقائد في محلة ملك آشور"[١٠٤]. وكما نرى أنه لا يوجد ذكر للأعداد المبالغ فيها للقتلى، كما في الملوك الثاني أو الحديث عن بقاء بضعة أشخاص بينهم الملك، بل اكتفى النص بالإشارة إلى أن سنحاريب رجع إلى أرضه. ولم يشر النص إلى من خلفه في حين يشير الملوك الثاني إلى أن الذي أتى بعده ابنه "آسر حدون"[١٠٥] دون أن يعطي أي تفاصيل على الرغم من أنه لعب دوراً كبيراً في سياسة المنطقة، ومن ذلك حملته على مصر لإخراج الأحباش. وكذا لا نرى في كتاب الهيود ما يشير إلى "آشور بانيبال"، ابنه صاحب المنجزات الحضارية والسياسية الرائعة. وبهذا يكون كتاب اليهود قد أهمل الحديث عن عاهلين آشوريين كبيرين حكما للفترة بين ٦٨١-٦٢٦ ق.م أي لما يزيد على النصف قرن. والذي يبدو أن ما أنجزاه من مهام ليس فيه ما يرضي اليهود.

على أي حال، قبل أن ننهي ما ورد من حديث عن الآشوريين في العهد القديم لا بد وأن نشير إلى ملك بابلي لعب دوراً في تأزم العلاقات بين شمال وجنوب القطر، ذلك هو

"مردوخ بلدان الثاني" ٧٢١-٧١١ ق.م الذي سبق ذكره وورد اسمه صحيحاً في المصادر العربية، كما مر بنا.

جاء ذكر "مردوخ بلدان" لأول مرة زمن العاهل "تجلات بلاصر" الثالث ٧٤٤-٧٢٧ ق.م وعلى الرغم من أنه كان موجوداً خلال الصراع من "موكن زيري" رئيس قبيلة "آموكاني" الجنوبية إلا أننا نجهل الدور الذي لعبه في ذلك الصراع.

بدأ "مردوخ بلدان" حكمه بالادعاء بأنه مختار الإله "مردوخ" لتصحيح الأخطاء والتي ولدتها السطوة الآشورية، الأمر الذي دفع الملك "سرجون" ٧٢٢-٧٠٥ ق.م إلى القول بأن "بلدان" كان غريباً، ويحتل منطقة بابل بشكل غير شرعي(١٠٦). وعلى أي حال، لا نريد أن ناتي على كل الأحداث التي جرت على "مردوخ بلدان" بل بالإشارة إلى أنه سيطر على رقعة كبيرة من الأرض الجنوبية شملت بابل، وكيش، بورسبأ وأور خلال النصف الأول من حكم الملك "سرجون". لذا قام العاهل البابلي بحملة لاكتساح المنطقة وكذا "عيلام" جنوب إيران، مما دفع (بلدان) لأن يبحث عن ملجأ له. وبعد أحداث عام ٧٠٩ ق.م لم يعد اسم "مردوخ بلدان" يتردد حتى ارتقاء ابنه "سنحاريب" العرش. لقد قام العاهل الجديد بحملات ضد الثائرين، وكان "بلدان" يلتجئ مرة إلى الأهوار، وأخرى إلى الخليج العربي (البحر الأسفل)، وأخرى إلى "عيلام" ويبدو أنه مات قبل الحملة التي قام بها العاهل الآشوري ضد لاجئي "بيت-ياكين" الكلدان في "عيلام عام ٦٩٤ ق.م لأن النصوص لم تعد تشير إليه.

على أي حال ما يهمنا من التطرق إلى سيرة "بلدان" هو لذكر التوراة له، فلقد أرسل وفداً لملك اليهود الذي أطلعهم على كنوز قصره، مما جلب استياء النبي أشعيا لأنه تنبأ بقدوم اليوم الذي ينقل فيه البابليون خزائن الملك إلى بابل، وإن خلفاء الملك سيشتغلون كخدم في قصره.(١٠٧).

وقبل أن ننهي حديث كتاب اليهود عن جانب من العصر الآشوري لا بد من إيراد فقرات بما قاله أشخاص بارزون ممن عرفوا بالأنبياء عن آشور بغية إيضاح الأحقاد التي حملها اليهود ضدها.

لقد جاء في سفر "ناحوم الالقوشي" الموسوم "وحي على نينوى"، بثلاثة إصحاحات، ويبدأ الأخير منها بالقول:

"ويل لمدينة الدماء.." ثم يقول : "ويكون كل من يراك يهرب منك ويقول خربت نينوى من يرثى لها. من أين اطلب لك معزين"(١٠٨) وجاء أيضاً: "تشرق الشمس فتطير ولا يعرف مكانها أين هو. نعست رعاتك ياملك آشور اضطجعت عظماؤك، تشتت شعبك على الجبال ولا من يجمع. ليس جبر لانكسارك. جرحك عديم الشفاء".

وفي سفر "سفنيا بن كوشي" يأتي في نهاية الإصحاح الثاني ما نصه:

"وأنتم أيها الكوشيون قتلى سيفي. ويمد يده على الشمال ويبيد آشور ويجعل نينوى خراباً يابسة كالقفر.. هذه هي المدينة المبتهجة الساكنة مطمئنة القائلة في قلبها أنا وليس غيري..." ثم يبدأ الإصحاح الثالث بالقول مخاطباً آشور بالطبع:

"ويل للمتمردة النجسة المدينة الجائرة".

على أي حال، لقد انتهى العصر الامبراطوري الآشوري قبيل نهاية القرن ٧ ق.م ليحل العصر البابلي الامبراطوري. ولما كانت غاية هذه السطور ليست سرد كل شيء يخص هذا العهد بل تصحيح ما تناولته المصادر العربية وما اعتمدت عليه ولا سيما العهد القديم.

قبل أن نوغل في الحديث عن العصر البابلي الحديث من المفيد إدراج أسماء ملوكه، سيما وإن كتاب اليهود يذكر بعضهم:

نبو بولاسر	٦٢٦-٦٠٥ ق.م
نبو خذ نصر	٦٠٤-٥٦٢ ق.م
أويل مردوخ	٥٦٢-٥٦٠ ق.م
نرجال شار اوصر (نرجلسار)	٥٦٠-٥٥٦ ق.م
لباشي مردوخ	حكم بضعة شهور
نبو نائيد	٥٥٦-٥٣٩ ق.م.

على أي حال، لا يظهر ملك بابل العظيم نبوخذ نصر مذنباً على طول الخط في كتاب اليهود. هذا ما يحدثنا عنه مثلاً سفر "ارميا بن حلقيا" من الكهنة الذين سكنوا أرض "بنامين". لقد جاء في الإصحاح ٢٥ منه:

"لذلك هكذا قال رب الجنود، من أجل أنكم لم تسمعوا لكلامي. هأنذا أرسل فأخذ كل عشائر الشمال يقول الرب وإلى نبوخذ راصر عبدي ملك بابل وآتي بهم على هذه الأرض وعلى كل سكانها وعلى كل هذه الشعوب حواليها فأحرمهم واجعلهم دهشاً وصفيراً وخراباً أبدية. وأبيد منهم صوت الطرب وصوت الفرح صوت العريس وصوت العروس صوت الارحية ونور السراج. تصير كل هذه الأرض خراباً ودهشاً هذه الشعوب ملك بابل سبعين سنة. ويكون عند تمام السبعين سنة أني أعاقب ملك بابل...".

ومهما كانت الحسابات التوراتية، فإن أول حملة على اليهود كانت عام ٥٩٧ ق.م ولو حسبنا من نهاية العصر البابلي الحديث ٥٣٩ ق.م فإن الفترة بينهما هي ٥٢ عاماً لا ٧٠.

أما فيما يخص الحملتين البابليتين الأولى والثانية على "يهوذا" فسوف لا أتحدث عنهما لأن ما أشارت اليهما مصادر التاريخ فيه ما يكفي فالأولى كانت عام ٥٩٧ ق.م والثانية عام ٥٨٦ ق.م.

لم تكن الحملتان البابليتان على اليهود في فلسطين السبب الأول والأخير للأهتمام بأخبار "نبوخذ نصر" بل يضاف إلى ذلك معاصرته لبعض أنبيائهم.

من الأسفار المهمة التي تناولت جانباً من العصر البابلي الحديث سفر النبي "حزقيا" أو "حزقيال" الذي يقع في ٤٨ إصحاحاً، ويختلف هذا الرجل عن الأخرين الذين كتبوا عن ذات الفترة، وثبتت التوراة ما دونوه.

لا يتميز سفر "حزقيال" بما أشرت إليه سابقاً، بل يبدأ الحديث ابتداءاً من بداية السفر الأول بالإشارة إلى حادثة فريدة في منطقة "الخابور" وهي "الخابور" البابلية قرب مدينة "نفر"، ليس بعيداً عن "عفك" وهي ليست "الخابور" السورية، يقول "حزقيال":

"كان في سنة الثلاثين في الشهر الرابع في الخامس من الشهر وأنا بين المسبيين عند نهر خابور أن السموات انفتحت فرأيت رأي الله في الخامس من الشهر، وهي السنة الخامسة من سبي يوياكين الملك. صار كلام الرب إلى حزقيال الكاهن ابن بوزي في أرض الكلدانين عند نهر خابور. وكانت عليه هناك يد الرب. فنظرت وإذا بريح عاصفة جاءت من الشمال. سحابة عظيمة ونار متواصلة وحولها لمعان ومن وسطها كمنظر النحاس اللامع من وسط النار. ومن وسطها شبه أربعة حيوانات وهذا منظرها. لها شبه إنسان. ولكل واحد أربعة أوجه ولكل واحد أربعة أجنحة. وأرجلها أرجل قائمة وأقدام

أرجلها كقدم رجل العجل وبارقة كمنظر النحاس المصقول. وأيدي إنسان تحت أجنحتها على جوانبها الأربعة. ووجوهها وأجنحتها بجوانبها الأربعة. وأجنحتها متصلة الواحد بأخيه. لم تدر عند سيرها فهذه أوجهها. أما أجنحتها فمبسوطة من فوق. لكل واحد اثنان متصلان أحدهما بأخيه وأثنان يغطيان أجسامها. وكل واحد كان يسير إلى جهة وجهة. إلى حيث تكون الروح لتسير تسير. لم تدر عند سيرها".

ثم يستمر "حزقيال" بهذا الوصف الطريف للمركبة الهابطة من السماء:

"فنظرت الحيوانات وإذا بكرة واحدة على الأرض بجانب الحيوانات بأوجهها الأربعة منظر البكرات وصنعتها كأنها كانت وسط بكرة. لما سارت سارت على جوانبها الأربعة لم تدر عند سيرها. أما أطرها فعالية ومخيفة. وأطرها ملآنة عيوناً حواليها للأربع. فإذا سارت الحيوانات سارت البكرات بجانبها وإذا ارتفعت الحيونات عن الأرض ارتفعت البكرات.. وعلى رؤوس الحيوانات شبه مقبب كمنظر البلور الهائل منتشراً على رؤوسها من فوق... فلما سارت سمعت صوت أجنحتها. فكان صوت من فوق المقبب الذي على رؤوسها. إذا وقفت أرخت أجنحتها..." ثم يوالي "حزقيال" وصف تلك المركبة التي ربما يذكرنا وصفها باللوناخود الروسية التي حطت على سطح القمر. وفي الإصحاح الثاني يخبرنا عن الصوت الذي خرج من المركبة مكلماً إياه واصفاً اليهود الذين كانوا في أسر "نبوخذ نصر" بما يمكن متابعته:

"فقال لي يا ابن آدم قم على قدميك فاتكلم معك. فدخل في روح لما تكلم معي وأقامني على قدمي فسمعت المتكلم معي. وقال يا ابن آدم أنا مرسلك إلى بني إسرائيل إلى أمة متمردة قد تمردت علي... أما أنت يا ابن آدم فلا تخف منهم ومن كلامهم لا تخف لأنهم مريس وسلاء لديك وأنت ساكن بين العقارب... لأنهم بيت متمرد".

ومن يكمل هذه القصة يرى الطرافة في جوانبها فهل هبطت سفينة؟ إن بعض المختصين حاولوا تشكيل نموذج لها عبر الوصف المذكور. وعلى أي حال، لا نريد أن نزيد على ذلك أكثر من القول أن ملك مدينة "كيش"، "ايتانا" الراعي"، قرب بابل، التي نزلت الملكية فيها بعد الطوفان، كان عقيماً، لذا أرشده إله الشمس إلى نسر في حفرة وأنه بإمكانه أن يستقل ظهره ليرقى إلى السماء السابعة حيث يجد النبات الذي يساعده على الإنجاب[١٠٩] ومن العصر الأكادي لدينا ختم أسطواني لهذه القصة ما نقش

عليه يمثل "يتانا" على ظهر النسر ومن حوله نجوم السماء ويعود عمر الختم لنحو ٤٣٥٠ عاماً.

أما الإصحاحات التالية في سفر "حزقيال" فهي لا تتحدث عن العاهل البابلي الذي عاش زمانه بسوء، بل بالعكس من ذلك، فبعد أن يذكر ملك مصر بتقريع واضح يأتي ليقول:

"لأنه هكذا قال السيد الرب. سيف ملك بابل يأتي عليك. بسيوف الجبابرة أسقط جمهورك. كلهم عتاة الأمم فيسلبون كبرياء مصر ويهلك كل جمهورك"[١١٠] وجاء أيضاً من سفر آخر: "هكذا قال السيد الرب. إني أبيد ثروة مصر بيد نبوخذ نصر ملك بابل"[١١١]. وقال بعد تقريع ملك مصر أيضاً: "واشدد ذراعي ملك بابل واجعل سيفي في يده"[١١٢]، ويكرر هذه العبارة مراراً صاباً جام غضبه على ملك مصر وشعبه دون تبرير واضح.

أما "دانيال" الذي يلي سفره "حزقيال" فقد خص العاهل البابلي بذكر مستمر عبر إصحاحاته الاثني عشر، بل إن الأول فيها يبدأ بعبارة:

"في السنة الثالثة من ملك يهويا قيم ملك يهوذا ذهب نبوخذ نصر ملك بابل إلى أورشليم وحاصرها".

أما الإصحاح الثاني فيبدأ بالقول:

"وفي السنة الثانية من ملك نبوخذ نصر حلم نبوخذ نصر أحلاماً فانزعجت روحه وطار عنه نومه". ثم يشير إلى طلبه للمفسرين على اختلاف أصولهم ومراتبهم إلا أنهم لم يستطيعوا حسب زعم كاتب السطور الأمر الذي جعله يستشيط غضباً "وأمر بإبادة كل حكماء بابل.. فطلبوا دانيال وأصحابه ليقتلوهم"[١١٣]. وهناك تتدخل رحمة "دانيال" واليهود لإنقاذ الحكماء كما نفهم من العبارة: "فمن أجل ذلك دخل دانيال إلى اريوخ الذي عينه الملك لإبادة حكماء بابل. مضى وقال له هكذا. لا تبد حكماء بابل. أدخلني إلى قدام الملك فأبين للملك التعبير"[١١٤]. ثم يأتي تفسير الحلم الذي تعرضه قصة مفادها أن الملك رأى تمثالاً عظيماً رأسه من ذهب جيد وصدره وذراعاه من فضة وبطنه وفخذاه من نحاس في حين كانت ساقاه بعضها من حديد وبعضها من خزف. وفي النهاية تدعي القصة تهشيم التمثال ثم يأتي التفسير المفترض بالقول:

"أنت أيها الملك ملك ملوك لأن إله السموات أعطاك ملكاً واقتداراً وسلطاناً وفخراً... فأنت هذا الرأس من ذهب وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك ومملكة ثالثة أخرى من نحاس فتتسلط على كل الأرض. وتكون مملكة رابعة صلبة كالحديد.. وبما رأيت القدمين والأصابع بعضها من خزف والبعض من حديد فالمملكة تكون منقسمة ويكون فيها قوة الحديد من حيث أنك رأيت الحديد مختلطاً بخزف الطين"(١١٥). ولما في هذا التفسير من الأخبار "السارة" يقول كاتب النص:

"حينئذ خر نبوخذ نصر على وجهه وسجد لدانيال وأمر بأن يقدموا له تقدمه وروائح سرور"(١١٦)!!.

أما الإصحاح الثالث لدانيال فيخبرنا أن الملك صنع "تمثالاً من ذهب طوله ستون ذراعاً وعرضه ستة أذرع ونصبه في بقعة دوراً في ولاية بابل". واذا اعتبرنا أن طول الذراع هو نصف متر يكون طول التمثال ثلاثين متراً وعرضه ثلاثة، أي إنه بارتفاع مبنى بعشرة طوابق. وهذا كذب فاضح.

ثم يستمر الإصحاح بالقول إن الملك طلب من الجميع أن يسجدوا له فسجدوا باستثناء اليهود. لذا غضب الملك وطلب تهيئة أتون من نار شديدة: "والأتون قد حمي جداً قتل لهيب النار الرجال الذين رفعوا شردخ وميشخ وعبد نغو"(١١٧) كانوا "يتمشون في وسط النار وما يهمهم ضرر"(١١٨). الأمر الذي دفع الملك إلى تقدير هؤلاء الثلاثة. حينئذ قدم الملك شردخ وميشخ وعبد نغو في ولاية بابل.

وفي الإصحاح الرابع لم يخلص العاهل البابلي من "كابوس الأحلام"، على الرغم من أن كاتب النص يظهره كمؤمن بالله:

"من نبو خذنصر إلى كل الشعوب والألسنة الساكنين في الأرض كلها لكثر سلامكم. الآيات والعجائب التي صنعها معي الله العلي حسن عندي أن أخبر بها. آياته ما أعظمها وعجائبه ما أقواها ملكوته ملكوت أبدي وسلطانه إلى دور فدور". بعدها يقول:

"أنا نبوخذ نصر قد كنت مطمئناً في بيتي وناظراً في قصري. رأيت حلماً فروعني والأفكار على فراشي ورؤى رأسي أفزعتني. فصدر مني أمر بإحضار جميع حكماء بابل قدامي ليعرفوني بتعبير الحلم".

ثم تشير السطور كالسابق إلى عدم مقدرتهم جميعاً ليأتي دور "دانيال" في تفسير الحلم المزعوم ليقول: "الشجرة التي رأيتها التي كبرت وقويت وبلغ علوها إلى السماء ومنظرها إلى كل الأرض.. إنما هي أنت أيها الملك الذي كبرت وتقويت وعظمتك قد زادت وبلغت إلى السماء وسلطانك إلى أقصى الأرض". ثم ينزل من السماء من يقطع الشجرة.بعدها يأتي بيت القصيد من وراء تلك الأقاويل. يقول الكاتب اليهودي:

"فهذا هو التعبير أيها الملك وهذا هو قضاء العلي الذي يأتي على سيدي الملك يطردونك من بين الناس وتكون سكناك مع حيوان البر ويطعمونك العشب كالثيران ويبلونك بندى السماء. فتمضي عليك سبعة أزمنة حتى تعلم أن العلي متسلط في مملكة الناس ويعطيها من يشاء ..." ثم يقول:

"أيها الملك فلتكن مشورتي مقبولة لديك وفارق خطاياك بالبر وآثامك بالرحمة للمساكين لعله يطال اطمئنانك". والغريب أن الإصحاح بدأ واعترف بأن العاهل البابلي آمن بملكوت الله وعظمته فكيف تنقلب الأمور في عين الإصحاح.

ثم تأتي السطور التالية للتعبير عن المعاني الخفية بغية النيل من ملك بابل بالقول، في عين الإصحاح الرابع:

"كل هذا جاء على نبو خذنصر الملك. عند نهاية اثني عشر شهراً كان يتمشى على قصر مملكة بابل/ وأجاب الملك فقال: أليست هذه بابل العظيمة التي بنيتها لبيت الملك بقوة اقتداري ولجلال مجدي". ثم يقول النص مباشرة: "والكلمة بعد بفم الملك وقع صوت من السماء قائلاً لك يقولون يا نبوخذ نصر الملك أن الملك قد زال عنك ويطردونك من بين الناس وتكون سكناك مع حيوان البر ويطعمونك العشب كالثيران فتمضي عليك سبعة أزمنة حتى تعلم أن العلي متسلط في مملكة الناس وأنه يعطيها من يشاء" ثم يقول الكاتب:

"في تلك الساعة تم الأمر على نبوخذ نصر فطرد من بين الناس وأكل العشب كالثيران وابتل جسمه بندى السماء حتى طال شعره مثل النسور وأظفاره مثل الطيور. وعند انتهاء الأيام أنا نبوخذ نصر رفعت عيني إلى السماء فرجع إليَّ عقلي وباركت العلي وسبحت وحمدت الحي إلى الأبد..." علماً بأن نبوخذ نصر قالها منذ بداية الإصحاح كما أشرت. وكما نفهم من كتب التاريخ أن الذين أكلوا الحشيش هم ملوك اليهود لا العراق.

ومن الغريب أن هذه القصة السخيفة المليئة بالكذب بغية تشويه سمعة ملك بابل العظيم قد انسلت إلى موسوعات علمية[119]. على الرغم من أن التنقيبات الأثرية أثبتت القدم الراسخة لملك بابل، وأن تشويه سمعة من قدموا العطاء للحضارة ليست جديدة على العقل اليهودي. حتى أن أنبياءهم لم يسلموا من الطعن حتى بأعراضهم.

أما الإصحاح الخاص لدانيال فينتهي من العاهل البابلي "نبوخذ نصر" ليأتي إلى ملك يسميه "بيلشاصر" يقول الإصحاح في بدايته.

"بيلشاصر الملك صنع وليمة عظيمة لعظمائه الألف وشرب خمراً قدام الألف. وإذ كان بيلشاصر يذوق الخمر أمر بإحضار آنية الذهب والفضة التي أخرجها نبوخذ نصر أبوه من الهيكل الذي في أورشليم ليشرب بها الملك وعظماؤه وزوجاته وسراريه..." ولعل أكثر الأمور خطأ في هذه الفقرة أن الكاتب جعل "بيلشاصر" (واسمه الحقيقي بيل-شار-أصر) هو ابن (نابونائيد) ٥٥٦-٥٣٩ ق.م آخر ملوك بابل وليس ابن "نبوخذ نصر" وإن نبو نائيد" ليس من الخط الملكي وإن أصله يعود إلى حران في أعالي سورية[120].

ثم يأتي بيت القصيد، بما عودنا كاتب هذا السفر بالحديث عن الاحلام والرؤى:

"في تلك الساعة ظهرت أصابع يد إنسان وكتب بآراء النبراس على مكلس حائط قصر الملك والملك ينظر طرف اليد الكاتبة. حينئذ تغيرت هيئة الملك وفروعته أفكاره وانحلت خزر حقوية واصطكت ركبتاه".

وكالسابق يأتي الملك بالمنجمين والعرافين لتأويل ما رآه ولكن دون جدوى. ثم يأتي من جديد دور "دانيال" لحل المبهمات. لقد كانت الكتابة التي زعم كاتب النص أن الملك رآها على الحائط: "منا تقيل وفرسين". ويكون تفسير ذلك:

"منا: أحصى الله ملكوتك وأنهاه. تقيل: وزنت بالموازين فوجدت ناقصاً. فرس: قسمت مملكتك وأعطيت لمادي وفارس"[121]. وعلى الرغم من هذا التفسير الذي لا يسر أحداً، وما فيه من دعاية لفارس ولتثبيط عزائم البابليين، ينتهي الإصحاح بالقول:

"حينئذ أمر بيلشاصر أن يلبسوا دانيال الأرجوان وقلادة من ذهب في عنقه وينادوا عليه أنه يكون متسلطاً ثالثاً في المملكة. ثم يأتي بيت القصيد عبر العبارة التالية:

"في تلك الليلة قتل بيلشاصر ملك الكلدانيين فأخذ المملكة داريوس المادي وهو

ابن اثنين وستين سنة". أما الإصحاح السادس لدانيال فيبدأ بالحديث عن مملكة دارا الأخمينية. وعلى الرغم من ذلك يعود الكاتب ليتحدث من جديد عن حلم دانيال في السنة الأولى لحكم "بيلشاصر" في الإصحاح السابع ويتحدث الثامن عن حلم آخر لدانيال في السنة الثالثة لحكم بيلشاصر. وتتحدث الإصحاحات التالية لدانيال عن الفرس ليختفي ذكر بابل.

بعد أن عرضت لسطور عديدة من العهد القديم لا بد من الإشارة إلى أنها ليست لتقريع جانب ديني يمس وحدانية أو شخصاً محسوياً على الله. بل وفيها إيضاح لحقائق تاريخية. لأن كل ما لا يتماشى مع الواقع وما أظهرته التنقيبات من وثائق لا يمكن أن يكون مقدساً لأن غايات الكتبة اليهود في الكثير مما دونوا معروفة. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بما جاء في قوله تعالى: "يحرّفون الكلم عن مواضعه"(١٢٢). وقوله: "ونسوا حظاً مما ذكروا به"(١٢٣). وعلى أي حال حين نراجع فقرات أخرى من التوراة نرى ما يؤكد هذه الحقيقة، إذ قبل إنهاء هذه السطور لا بد من إيضاح المزيد من ذلك عبر الوجيز من الحقائق الأمر الذي يؤكد بأن ما ذكره الكتبة اليهود عن العراق القديم بعيد عن الصحة في جوانب عديدة.

من المعروف أن الأديان السماوية جاءت لخير الإنسان وتعليمه قيم الأخلاق والتضحية من أجل الإصلاح لا الفساد والدمار. والآن، حين نتابع سطوراً أخرى من التوراة هل نرى فيها ذلك؟.

في الإصحاح ١٢ من الخروج يوصي موسى وأخوه اليهود (حسبما ورد)، أن يكون لكل بيت "شاة صحيحة ذكر ابن سنة... ثم يذبحه كل جمهور جماعة إسرائيل في العشية ويأخذون من الدم ويجعلونه على القائمتين والعتبة العليا في البيوت التي يأكلونه فيها..."(١٢٤). أما الغاية من ذلك فتوضحها السطور التالية:

"فإني أجتاز في أرض مصر هذه الليلة وأضرب كل بكر في مصر من الناس والبهائم... ويكون لكم الدم علامة على البيوت التي أنتم فيها. فأرى الدم وأعبر عنكم. فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر"(١٢٥). إن السطور مارة الذكر تؤكد أن عنصرية التوراة ليست مع الناس فحسب بل حتى مع البهائم.

وتكريماً لتدمير مصر (يقول الرب):

"ويكون لكم هذا اليوم تذكاراً فتعيدونه عيداً للرب سبعة أيام تأكلون فطيراً"[١٢٦].

ويأتي اليوم (الموعود): "وكان صراخ عظيم في مصر. لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت"[١٢٧].

وإذا كانت مصر قد (استعبدت) اليهود فحين نأتي إلى ديار العجم فهل سلمت من دسائسهم سيما وأن "كورش" الأخميني ومن تلاه قد تساهل معهم وسمح لهم بالذهاب إلى فلسطين بعد انتهاء الحكم الوطني ببابل؟ حين نقلب صفحات العهد القديم نأتي إلى سفر لامرأة تدعى "استير". إنها ليست (نبية) ولا (رسولة) بل لا علاقة لها بالدين من قريب أو بعيد. انتقمت من الفرس لا لأنهم نكلوا بها أو أساؤوا معاملتها، بل إنها كانت إحدى ملكاتهم. لقد كانت زوجة الملك "احشويرش" ٤٨٥-٤٦٥ ق.م ولأعمالها في القتل والتآمر جعل اليهود لها سفراً بعشرة إصحاحات. ويكفي أن نتأمل فقرة من الإصحاح التاسع لنعلم شيئاً، فبعد أعمال قتل وتصفية في القصر أمام الملك، يقول كاتب السفر عن أعمال تكميلية أخرى:

"وباقي اليهود الذين في بلدان الملك اجتمعوا ووقفوا لأجل أنفسهم واستراحوا من أعدائهم وقتلوا من مبغضيهم خمسة وسبعين ألفاً"[١٢٨]. واحتفالاً بتلك المجازر:

"لذلك دعوا تلك الأيام فوريم على اسم الفور"[١٢٩]. ويكون الاحتفال ليومين في آذار من كل سنة.

وعلى أي حال، إن نقد الفكر التوراتي ليس بالأمر الجديد فقد تناولته أقلام كثيرة منذ مئات السنين من ذلك ما ذكره ابن حزم الأندلسي (ت-٤٥٦هـ) في كتابه "الفصل في الاهواء والملل والنحل" بما يزيد عن المئة صفحة في جزئه الأول، بما هو متداول من النسخ.[١٣٠].

وممن نقد فكر التوراة الكاتب اليهودي "ابرهام بن عزرا"[١٣١]، وهو من الأندلس والمولود في "طليطلة" عام ١٠٩٢م وفي عام ١٦٧٨م أصدر "ريشارد سيمون" كتابه الموسوم "التاريخ النقدي للعهد القديم" الذي نفى فيه نسبة الأسفار الأولى إلى موسى[١٣٢].

من الباحثين الذين ينبغي للعالم العربي أن يلتفت إلى ما كتبوا في مجال اليهودية الدكتور "مهنا يوسف حداد" بما طرحه في رسالته للدكتوراه التي حصل عليها من جامعة "اترخت" الهولندية المعنونة "الرؤية العربية لليهودية"[١٣٣].

يستعرض د. مهنا في الفصل التاسع من كتابه "فكرة الإله في اليهودية أو تحريف فكرة الإله في الديانة اليهودية"، الذي يقول فيه:

"وتجابهنا التوراة بعد موسى بأعداد كبيرة من الأنبياء بحيث يصعب معرفة من هو النبي ومن هو ليس كذلك"(١٣٤). ثم يأتي ليعزز رأية بما قاله النبي "ارميا" في سفره عنهم:

"وهكذا قال رب الجنود لا تسمعوا كلام الأنبياء الذين يتنبأون لكم. فإنهم يجعلونكم باطلاً. يتكلمون برؤيا قلبهم لا عن فم الرب". ومن ثم فإننا سوف لا نسأل النبي "ارميا" عما أورده الحاخام "دانيال" عن بابل من نبوءات، لأنه سيؤيدنا بما ذهبنا إليه.

وعلى أي حال، لا أريد أن أطيل أكثر من ذلك بهذه المادة ما دام ما يخصنا هو ما تعلق بموضوع العراق القديم، الا أنه من المفيد الإشارة إلى مصدر يهودي له أهميته في الفكر اليهودي، وربما أثر في صياغة أفكار أناس من غير اليهود ذلك هو ما يعرف بالتلمود بنوعيه "البابلي" و"الفلسطيني" الذي انتهوا أتباعه من صياغته عام ٥٠٠ م ويخص إرشادات الحياة اليومية لليهود بقسميه "المشنى" و"الجمارا". لقد جاء عن مفهوم كتبه هذا المؤلف عن الله:

"حين حرق الهيكل يكون الله بمثابة ملك من البشر. سقطت مملكته، قبل ذلك الوقت كان الله مغرماً بالرقص واللعب. وبعد سقوط الهيكل توقف هذا الفرح ولم يقدر سوى على النواح والبكاء بسبب الخطأ الذي وقع فيه. وسماحه بسبي شعبه وهدم مدينته"(١٣٥).

فهل كان الجيش البابلي وملكه أقوى من الخالق؟ لقد سبق أن أشرنا إلى ما ورد في التوراة من أن "نبوخذ نصر" الذي أزال الهيكل ومملكة اليهود لم يكن إلا عبداً لله اصطفاه لتأديبهم.

بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ التي شنها الإرهابيون العنصريون ضد العرب، حدثت رجة بين المفكرين العرب وبينهم المسيحيون. لقد وافقنا مجلة "الأسبوع العربي، الصادرة عام ١٩٦٨ في ١٧ أيار بعددها ٤٩٨ ص٥٢-٥٣ بما يلي:

"من طرابلس الغرب، يكتب أنيس فاخوري، عن النزاع المصيري والصهيونية،

كاشفا عن جانب مهم من حقيقة اليهودية، المشوهة للحقيقة المسيحية وداعياً إلى خدمة القضية العربية بطريقة مجدية تكون كانتصار الحق بمحو الهالة المقدسة عن اليهود" ومنها ايضاً:

"معركة علمية تاريخية تستطيع أن تفقد فيها إسرائيل الدعم الغربي القائم على مفاهيم خاطئة" وفي (ص٤٩) جاء:

"اليهودية رفضت المسيح لأنه كسر طوق العنصرية وأبطل أسطورة الشعب المختار".

"فضح التظليل الديني اليهودي يفصل الغرب عن الصهيونية".

ولكن أين ذهبت تلك المقترحات البناءة. إنها لم تذهب، وآمل أن تعيدها سطور هذه الدراسة.

الخلاصة

لقد وافتنا السطور السالفة بمعلومات عن مادة تاريخية تخص العراق القديم، اعتمدت على ما تيسر لها من فقرات عبر المتوارث من القول. وربما اعتمد بعض القدماء على كتاب دون غيره فصاغ استنتاجاته وجداوله في ترتيب أسماء الملوك وسني حكمهم تبعاً لذلك. ومما لا شك فيه أن لصبغة فترة معينة علاقة لما يكتب من مادة.

وعلى أي حال، لما كانت المصادر والمراجع العربية قيد التداول، بات ضرورياً إضافة استدراكات إلى القارئ لتلافي وقوعه في الأخطاء، وقد رأينا كيف أن الكتّاب اليهود والفرس قد أوغلوا في تشويه العديد من تلك النصوص، ثم نقلها العرب وغيرهم من المسلمين عنهم دون تحميص، وربما لعدم وجود البديل والسند الذي يعتمدون عليه لوضع مادة ما بصورة أفضل.

إن إيضاح أخطاء ما وقع فيه الأقدمون من أخطاء، عبر منطق علمي، على جانب كبير من الأهمية، لأن تركها دون إصلاح يعني وقوع من ينقل عنها بعين الأخطاء مسألة واردة. أضف إلى ذلك أن من يحاول الإساءة إلى تراثنا بإمكانه وضع ما يريد من معلومات غير سليمة. ولنأخذ على سبيل المثال ما ذهب إليه كاتب حديث، صدر له مؤلف عام (١٩٨٣) تحت عنوان "اعجام الاعجام". لقد قال عن "نبوخذ نصر" ما يلي:

"كان حاكم بلاد بابل من قبل ملك الفرس، ثم سار بأمره إلى الشام، فصالح ملكها، وترك عنده رهائن بذلك..." وقال:

"وكلمة بختنصر مركب مزجي كحضرموت وبعلبك، وتركيبه من بخت موب بوخت بمعنى ابن، ونصر اسم صنم وجد عنده هذا الملك لقيطاً أول ولادته فنسب إليه، إذ لم يعرف له أب"[١٣٣]. وكما مر بنا أن اسم "نبوخذ نصر" محرف عن اسمه البابلي "نابو كدري-اصر"، أما أبوه فهو مؤسس السلالة البابلية الحديثة "نبوبولاسر" ٦٢٦-٦٠٥ ق.م.

وعلى أي حال، فإن شأن ما وضعته من مادة يمكن أن يعد مدخلاً لتمحيص علمي شامل بما يحقق كتابة تراث رصين.

الهوامش

١. ابن خلدون، عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، بيروت ١٩٧١، ج/١ص/٣-٤.

٢. المصدر السابق، ج/١ ص/٩،

٣. صالح مهدي عباس، تصنيف العلوم العربية وتعريفها عند شمس الدين بن الأكفاني، الندوة القطرية الخامسة لمركز إحياء التراث، ج/١،بغداد ١٩٨٩،ص/٥٩٨-٦٢٨.

٤. ولا تزال الحروف اليونانية إلى الأن تحتفظ بأسمائها العربية: "الفا، بيتا، كاما، دلتا، ..الخ أي: (حيوان اليف، البيت، الجمل، الباب، وهي من دالتو الأكادية).

٥. حول جلجامش يراجع: طه باقر، ملحمة كلكامش، (سلسلة الثقافة العامة ٨) وزارة الإعلام بغداد ١٩٧١، ص/١٣-٤٦.

٦. حول الموضوع يراجع: طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بغداد ١٩٧٣، ج/١، ص/١٤٥-١٤٩-٢٨٧-٣١١.

٧. الفقطي، جمال الدين، تاريخ الحكماء، لا يبزك، ١٩٠٣، ص/١١.

٨. البيروني، أبو الريحان، القانون المسعودي، الدكن، ١٩٥٤، ج/١، ص/١٤٩.

٩. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب الكاتب (ابن واضح الاخباري) تاريخ اليعقوبي، النجف، ١٩٦٤، ج/٣، ص/٦٨.

١٠. طه باقر، مقدمة، ج/١، ص، ٢٩١-٣٠٧-٣٠٨.

١١. المسعودي، أبو الحسن، مروج الذهب ومعادن الجوهر، باريس، ص/٧٨-٩٢. تاريخ ابن خلدون. ج/٢، ص/٧٠.

١٢. ابن خلدون،ج/٢. ص/٦٩. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله، المعارف، "تحقيق ثروة عكاشة" مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٠، ص/١٩. وقد أشار الطبري أنه عاش ألف عام. تاريخ الطبري (ذخائر العرب- ٣٠) (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم). دار المعارف، مصر، ج/١، ص، كما أشار إلى ما ذكرته التوراة من أنه عاش ٩٣٥ سنة ص/١٥٨.

١٣. الطبري، ج/١، ص/١٧٤. وأشار إلى أنه عاش، ٣٥٠ عاماً بعد الطوفان وأيضاً ابن قتيبة، المعارف، ص/٢١.

١٤. اليعقوبي، ج/١،ص/١٦.

١٥. ابن خلدون. ج/١. ص/٩

١٦. ابن خلدون. ج/٢. ص/٥.

١٧. ١٨. يراجع الهامش ٩-١١.

١٩. تاريخ ابن خلدون ج/٢، ص/٧٠.

٢٠. المسعودي، ج/٢، ص/٩٥-١٠٤.

٢١. المسعودي، ج/٢، ص/٩٥.

٢٢. المسعودي. ج/١، ص/١٤٩.

٢٣. البيروني أبو الريحاني، القانون المسعودي، الدكن، ١٩٥٤،ج/١، ص/١٥١.

٢٤. ٢٥. البيروني، ج/١، ص/١٥٤.

٢٦. وفي النص: وقضيتها.

٢٧. البيروني، ج/١، ص/١٥٦.

٢٨. وبالنص: الاثوريون. وقد صححت.

٢٩. المسعودي، ج/٢، ص/٩٤.

٣٠. البيروني، ج/١، ص/١٥١.

٣١. طه باقر، مقدمة. بغداد، ١٩٥٦، ج/٢، ص/٥١٦.

٣٢. وفي النص: (صديقه) يبدو هناك مزج بين "حزقيا" و"صدقيا" ملكا اليهود.

٣٣. الطبري، ج/١، ص/٥٢٢.

٣٤. الطبري، ج/١، ص/٥٣٣.

٣٥. الطبري، ج/١، ص/ ٥٣٤.

٣٦. الطبري، ج/١، ص/٥٣٤-٣٥.

٣٧. الطبري، ج/١، ص/٥٣٥.

٣٨. النويري: شهاب الدين أحمد، نهاية الأرب في فنون الأدب، (سلسلة تراثنا) وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية، مطابع كوستاتوماس، السفر ١٥، ص/٢٦١.

٣٩. ٤٠. ابن خلدون، ج/٢، ص/١٠٤-٥.

٤١. وفي النص: آبنائك.

٤٢. ٤٣. ابن خلدون، ج/٢، ص/١٠٥.

٤٤. ابـن العـبري، غريغوريـوس الملطـي، تـاريخ مختصـر الـدول، بـيروت ١٩٥٨، ص/٣٨.

٤٥. المصـدر السـابق، ص/٣٩، وقـد وردت كلمـة "الآشـوريون" بصـيفة الاثوريـون وقد أصلحت.

٤٦. ابن قتيبة، المعارف، ص/٤٦.

٤٧. يراجـع: حيـاة ابـراهيمن نبوخـذ نصـر الثـاني، وزارة الثقافـة والإعـلام، بغداد/١٩٨٣. ص/٥٣-٥٤.

٤٨. الطبري، ج/١، ص/٥٠٤-٥١٦.

٤٩. ويقصد : صدقيا.

٥٠. الطبري، ج/١، ص/٥٤١.

٥١. الطبري، ج/١، ص/٥٤٢.

٥٢. حياة ابراهيم، ص/٧٨.

٥٣. الطبري، ج/١، ص/٥٣٩.

٥٤. ابن قتيبة ص/٤٧-٤٨.

٥٥. وبالنص: سنجاريف.

٥٦. ابن خلدون، ج/٢، ص/١٠٨.

٥٧. النويري، السفر، ١٥، ص/٢٦١.

٥٨. ابن خلدون، ج/٢، ص/١٠٧.

٥٩. النويري، السفر ١٥، ص/٢٦١.

٦٠. ابن العبري، ص/٣٩.

٦١. ابن العبري، ص/٦٦.

٦٢. ابن العبري، ص/٤١.

٦٣. الطبري، ج/١، ص/٥٤٣.

٦٤. ابن خلدون، ج/٢، ص/١٠٨.

٦٥. الطبري، ج/٢، ص/٢٠٣.

٦٦. الحمير، محمد عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، (تحقيق احسان عباس) مكتبة لبنان، ١٩٨٤، ص/٧٣.

٦٧. ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧.ج/١، ص/٣٠٩-٣١٠

٦٨. كثير ما يذكر هذا الاسم في المصادر العربية كملك بابلي، رغم أنه لا يوجد ملك بهذا الاسم، ويأتي ضمن قصص خرافية يبدو أنها من ترويج الفرس واليهود، ويبدو أن الاسم أتى من اسم مدينة "بورسب" إلى الجنوب من بابل، وقد عالجت هذا الموضوع في كتاب خاص عن أعياد الربيع وأصل النوروز.

٦٩. ياقوت الحموي، ج/١، ص/٤٤٨.

٧٠. ياقوت، ج/١، ص/٢١.

٧١. وفي النص (الكنعانيين) وقد اطلعت.

٧٢. ابو الفداء عماد الدين، تقويم البلدان، ص/٣٠٢-٣.

٧٣. ياقوت، جم، ص/٣٣٩.

٧٤. الحميري، الروض المعطار، ص/٥٨٥-٦.

٧٥. التكوين (١١: ١-٨).

٧٦. حول هذا الربح يراجع: كريشن، فريتز، عجائب الدنيا في عمارة بابل، (ترجمة د. صبحي انور رشيد) المؤسسة العامة للآثار ٣ بغداد ١٩٨٢، ص/٧-٣٤.

٧٧. الشورى ١١.

٧٨. ارميا (٢٨: ٤، ١٠) (٢٩: ١، ٤).

٧٩. ارميا (٤٦: ٢٦)

٨٠. ملوك ٢ (١٦: ٧-١٠)

٨١. ملوك ٢ (١٦: ١٧-١٩)

٨٢. سوسة، أحمد، العرب واليهود في التاريخ، وزارة الإعلام، دار الحرية للطباعة ١٩٧٢، ص/٣١٢.

٨٣. المصدر السابق، ص/٨٧. طه باقر، مقدمة، ج/١، ص/٥١٣-٥٥٠-٥١.

٨٤. الأيام ٢ (٢٨: ١٦-٢١)

٨٥. الأيام ٢ (٣٣: ١- ١١)

٨٦. يونان (١: ١)

٨٧. طه ٢٤.

٨٨. طه ٤٣.

٨٩. يونان (٣: ١-١٠).

٩٠. ملوك ٢ (١٧: ١- ١٦)

٩١. ملوك ٢ (١٨: ١- ١١)

٩٢. أيام ٢ (٢٨: ٢٠- ٢١)

٩٣. ملوك ٢ (١٢- ١٦)

٩٤. ملوك ٢ (١٨: ١٧-٢٤)

٩٥. ملوك ٢ (١٨: ١٧- ٢٦-٢٩)

٩٦. ملوك ٢ (١٩: ١)

٩٧. ملوك ٢ (١٩: ٢٥-٢٦)

٩٨. ملوك ١ (٢٠: ٢٩- ٣٠).

٩٩. ١٠٠. الشمس، ماجد عبد الله، من تاريخ الفترة الآشورية في القسم الجنوبي من العراق/ مجلة سومر، بغداد، ١٩٧٣، م-٢٩، ص/٢٩٦.

١٠١. أيام ٢ (٣٢: ١- ٤)

١٠٢. أيام ٢ (٣٢: ٩- ١١)

١٠٣. أيام ٢ (٣٢: ١٨)

١٠٤. أيام ٢ (٣٢: ٢٠- ٢١)

١٠٥. ملوك ٢ (١٩: ٢٧)

١٠٦. *Brinkman A.j. Marodach – Baladan II, U.S.A. 1964, P.13.*

يراجع أيضاً : الشمس، ص/٢٩١.

١٠٧. ملوك ٢ (٢٠: ١٢-٢١)

١٠٨. ناحوم (٣: ١- ٧).

١٠٩. د. الاحمد، سامي سعيد، الأدب في العراق القديم، (سلسلة الموسوعة التاريخية الموسعة) دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٩٠.

١١٠. حزقيال (٣٢: ١١).

١١١. حزقيال (٣٠: ١٠).

١١٢. حزقيال (٣٠: ٢٤)

١١٣. دانيال (٢: ١٢- ١٣)

١١٤. دانيال (٢: ٢٤)

١١٥. دانيال (٢: ٣١- ٣٣)

١١٦. دانيال (٢: ٤٦)

١١٧. دانيال (٣: ٢٢)

١١٨. دانيال (٣: ٢٥)

١١٩. موسوعة المعرفة، لبنان ١٩٨١، م ١٨، ص/٣٠٦٧.

١٢٠. طه باقر، ج/١، ص/٥٥٠-٥١.

١٢١. دانيال (٥: ٢٥- ٢٧)

١٢٢. ١٢٣. المائدة ١٣.

١٢٤. خروج (١٢: ٥- ٧)

١٢٥. خروج (١٢: ١٢- ١٣)

١٢٦. خروج (١٢: ١٤)

١٢٧. خروج (١٢: ٢٠)

١٢٨. استير (٩: ١٦)

١٢٩. استير (٩: ٢٦).

١٣٠. ابن حزم الأندلسي، الفاصل في الأهواء والملل والنحل، (بغداد، عن الطبقة المصرية) م ١، ص/ ١١٦- ٢٢٤.

١٣١. حسين ذو الفقار صبري، (أصول التوراة لماذا أسقطت أربعة قرون من التاريخ، مجلة العربي، الكويت، العدد ٢٥٢، تشرين ٢، ١٩٧٩، ص/٤٥.

المصادر

الاحمد، سامي سعيد، الادب في العراق القديم، (سلسلة الموسوعة التاريخية الموسعة)، دائرة الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٠.

ابن حزم الأندلسي، الفصل في الأهواء والملل والنحل، بغداد، (عن الطبعة المصرية).

ابن خلدون، عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون (المقدمة) بيروت ١٩٧١.

ابن العبري، غريغوريوس الملطي، تاريخ مختصر الدول، بيروت، ١٩٥٨.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله، المعارف، (تحقيق ثروة عكاشة)، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٠.

البيروني، أبو الريحان، القانون المسعودي، الدكن، ١٩٥٤، ج/١.

حسين ذو الفقار صبري، "اصول التوراة لماذا اسقطت أربعة قرون" مجلة العربي، الكويت، تشرين الثاني، ١٩٧٩.

الحميري، محمد عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، (تحقيق احسان عباس)، مكتبة لبنان، ١٩٨٤.

حياة ابراهيم، نبوخذ نصر الثاني، وزارة الثقافة والإعلام بغداد ١٩٨٣.

سوسة، أحمد، العرب واليهود في التاريخ، وزارة الإعلام، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٢.

الشمس، ماجد عبد الله، "من تاريخ الفترة الآشورية في القسم الجنوبي من العراق" مجلة سومر، بغداد، ١٩٧٣.

صالح مهدي عباس، "تصنيف العلوم وتعريفها عند شمس الدين ابن الأكفاني" الندوة القطرية –٥ (مركز إحياء التراث العلمي العربي) بغداد ١٩٨٩، ج/١.

الطبري، أبو جرير، تاريخ الطبري، (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) ذخائر العرب –٣٠ دار المعارف، مصر.

طـه بـاقر، مقدمـة في تـاريخ الحضـارات القديمـة، دار البيـان- ٥٣، بغـداد ١٩٧٣، ج/١.

ملحمة كلكامش، (سلسلة الثقافة العامة -٨) وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧١.

القفطي، جمال الدين، تاريخ الحكماء، ليبزك، ١٩٠٣.

كريشـن، فريتـز، عجائـب الـدنيا في عمـارة بابـل، (ترجمـة د. صـبحي أنـور)، المؤسسة العامة للآثار-٣ بغداد، ١٩٨٣.

المسعودي، أبو الحسن، مروج الذهب ومعادن الجوهر، باريس.

النويري، شهاب الدين، نهاية الأرب في فنون الأدب، (سلسلة تراثنا) وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية- مطابع كوستا توماس، السفر -١٥.

Brinkman, A.j, Marodach – Baladan II, U.S.A. 1964.

الكتاب الثالث

العلاقات العراقية المصرية في العصرين البابلي - الآشوري الوسيط والإمبراطوري

المقدمة

حبا الله قطرين عربيين بأهم ثلاثة أنهار في المنطقة نمت على ضفافها أزهى وأعرق حضارات ناضجة في التاريخ. وعلى الرغم من أن كلاً من الحضارتين كانت لها خصائصها المميزة إلا أنهما التقيتا مع بعضهما في جملة خصائص عامة في الفن والدين والعلم ومفاهيم اجتماعية، وهذه العناصر جعلت منها أسس القربى في عالم السياسة خلال قرون تالية.

بعد تلك العهود الزاهرة، على أرضنا العربية، تتابعت غزوات الأجنبي، فهذه فارس تسيطر على مناطق واسعة من أرضها وتلك هي روما تستبيح أرجاء منها.

ومع ذلك شاء الله أن يجعل من هذه الأرض مقراً لإشعاع فكري وروحي جديد في العصر الإسلامي، في وقت كانت فيه أوروبه تغط في سبات من الغفلة بعيداً عن المفاهيم العربية السامية، بل عادتها بكل صلافة بدلاً من أن تحترمها.

وفي جانب من العهود الإسلامية الزاهرة أمست أرض الرافدين والنيل رقعة موحدة وعلى الرغم من الشتات السياسي الذي عهدته عهود تالية، إلا أن ذلك لم يباعد مفاهيم العلم والفن بين القطرين، بل وحتى يومنا هذا لا زالت وديان الأنهر الثلاثة نبع عطاء فكري وممهداً لوحدة عربية شاملة.

ومما سبق نفهم أن دراسة مادة العلاقات العراقية المصرية في الفترة موضوع البحث أمر مهم طالما تحدثنا بمادة علمية جيدة عن تاريخ الفكر السياسي القائم آنذاك وما ترتب عليه من علاقات.

ترجع الصلات بين العراق ومصر إلى عهود موغلة في القدم. فمن يزر متحف القاهرة للفنون القديمة تطالعه خزانات لأختام أسطوانية ومنبسطة عراقية عثر عليها المختصون في مصر كانت قد أتت إليها عبر التبادل التجاري بينهما. وإضافة إلى ذلك قطع النحت التي تعود إلى نفس العهد، أي منذ فترة الوركاء قبل نحو ٥٢٠٠ سنة مضت.

ومن يتتبع التاريخ يجد أن عهداً لم يمر دون أن يترك طبعاته قائمة على نوع من الصلة بين البلدين.

إن دراسة العلاقات القديمة لقطرين عربيين عملاً من أجل الحقيقة وتطوير العلوم عبر آلاف السنين فهي من الأهمية بمكان لدارسة التراث العلمي والفني بحضارة وديان الأنهر الثلاثة وتنبيه الجيل العربي إلى ماضي صلاته القديمة وأهميتها في وحدة عالمنا العربي.

ومن الواضح الجلي أن تمحيص ماضي الوطن العربي بغية اختيار العناصر الباعثة على نهوض الأمة، لهو المنهج القويم لردع المناهج المثبطة التي تقيمها عناصر العداء لها، وما خلق المستعمرة اليهودية الرجعية إلا لتكون الأساس الفاعل والبديل للأعداء التقليديين للأمة العربية. ومن هنا جاءت خطورة المنهج التاريخي والحاجة المستمرة في تقويمه لبناء عالم أفضل.

الفصل الأول

الوضع السياسي العام في الشرق العربي القديم

امتاز العصر العربي (كبديل عن المصطلح السامي غير المبرر) البابلي القديم (٤٠٠٠-٣٥٠٠سنة مضت) بظهور وتطور عناصر حضارية مهمة إلى جانب ما حققته من وحدة سياسية زمن بعض قادتها وفي مقدمتهم عاهل بابل العظيم حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ق.م.) سادس ملوك سلالة بابل الأولى. أما في مصر فقد حكمت السلالة الوسطى في فترة توازي العصر البابلي القديم[١]. بعد هذه الفترة حلّ العصر البابلي الوسيط في وسط وجنوب العراق في حين حكم الآشوريون شمالي العراق خلال تلك الفترة. أما في مصر فقد تلا عصر الأسرات الوسطى نفوذ الهكسوس الذين أتوا عبر سيناء[٢].

وبعد مكوثهم فترة بمصر قام" طوطمس الثالث" بابعادهم عن مصر، ومنذ ذلك الحين بدأ عصرها الامبراطوري (١٥٠٠-١٠٨٥ق.م.) وهو العصر الذي بدأت فيه الصلات الدبلوماسية الفعلية مع بابل وآشور وسورية وبلاد الأناضول. أما في شمال سورية وأجزاء من بلاد الأناضول فقد حكمت مملكة سميت" ميتاني"[٣]. التي كانت ذات صلة قوية بمصر خلال الفترة المذكورة، في حين كان يحكم لبنان وفلسطين حكام كان بعضهم تابعاً للنفوذ المصري.

من الدول المهمة التي لعبت دوراً في العلاقات الشرقية الحثيون[٤] الذين سكنوا آسيا الصغرى وأسسوا دولة قوية فيها لغاية القرن الحادي عشر ق.م.، وقد زاد في معلوماتنا عن العلاقات مكتشفات عاصمتهم" بوغاز كوي" (حتوشاش قديماً).

أما في العراق فإن أهم مملكتين سيطرتا عليه: الكاشيون في الوسط والجنوب والآشوريون في الشمال، كما مرّ سابقاً. وقد كان من الطبيعي أن تنشأ علاقات سلام وحرب وادعاء تفوق بين المملكتين.

مما تشير إليه المصادر أن أقدم الصلات بين الشمال والجنوب خلال الفترة موضوع البحث، بدأت منذ عهد الملك الآشوري" بوزور آشوري"(١٥٢١-١٤٩٨ق.م.) مع الملك البابلي" بورنابورياش" الأول اللذين أقسما يميناً وعينا بينهما حدوداً ثابتة[٥].

على أي حال إن متاعب الآشوريين لم تقتصر على سياسة الجنوب أحياناً فقد واجهت أجزاء منها سطوة " الميتانيين"، ولكن سرعان ما دبّت بوادر الاستقلال عنها منذ عهد "آشور بيل نشيشو"(١٤٤١-١٤١٤ق.م.) الذي كان من أعماله عقد معاهدة مع ملك بابل "كريتداش"، وهو أمر يشير إلى أن آشور قد تمتعت بالاستقلال عن الميتانيين" أو على الأقل ضعف السيطرة الميتانية عليها"[٦]. إلاّ أن الأمور سارت بشكل أفضل مع الآشوريين فيما تلا من الأيام.

في عهد الملك "آشور أوبالط"(١٣٦٥-١٣٣٠ق.م.). رأى الآشوريون أن من مصلحتهم ترسيخ الوحدة الوطنية فقد حصل تزاوج بين البلاطين الآشوري والبابلي ضماناً لذلك.

لم يستمر مشروع السلام بين مملكتي بابل وآشور ففي عهد خليفة "آشور أوبالط" "انليل نيراري"(١٣٢٩-١٣٢٠ق.م.) تغير مجرى الأحداث إذ حاربه ملك بابل " كوري كالزو الثاني"، ونفهم من المراسلات الدولية مع مصر أن ابن الأخير أبلغ " إخناتون"(امنوفيس الرابع) ملك مصر أن آشور تابعة إليه[٧]. على أي حال كان الأجانب الحثيون يرون خيراً في سيطرة بابل على آشور بأسلوب خبيث يمكن أن نفهمه من رسائل ملك الحثيين "حاتو شيلش" إلى كدشمان كوركو ملك بابل[٨].

إن ما نفهمه مما مر أن الشرق العربي كان مجزأ إلى ممالك ينظر بعضها إلى بعض نظرة ريبة وتحفظ، ولم يكن بمقدورها الحرب مع بعضها أحياناً لتعادل الكفة ولشعورهم بالاكتفاء الذاتي من الناحيتين الاقتصادية والإقليمية. إن هذا الأمر جعلهم يلتجئون إلى الدبلوماسية ليقنعوا أنفسهم بأنهم أصحاب وجود أكبر مما هم عليه، كل في مملكته. وعلى أي حال لقد تحقق أمر وحدة العالم العربي زمن الامبراطورية الآشورية العاربية لذا يمكن أن نعد مراسلات الفترة السابقة لها كانت ممهداً لتلك الوحدة التي لم تستمر طويلاً لتدخل الأجنبي الحبشي في شؤون مصر ومن ثم فقد كان ملوك مصر دخلاء أجانب آنذاك.

مصر	بابل	آشور
تحوتمس الثالث	كاريندااش الأول	آشور-رابي الأول
١٥٠١ ق.م	١٤٦٠ق.م	١٤٨٠ق.م
امنحوتب الثاني		آشو نيراري الثالث
	١٤٤٧ ق.م	١٤٦٠ق.م
		آشور بل نيشيشي الثاني
		١٤٤٠ق.م
تحوتمس الرابع	كوريكالزو الثاني	آشور – ريم نيشيشي
١٣٢١ق.م	١٤١٠ق.م	١٤٢٠ق.م
امنحوتب الثالث	كادشمان انليل الأول	آشور – نادن – آخي
١٤١١ق.م	١٣٩٠ق.م	١٤٠٠ق.م
امنحوتب الرابع	بورنابورياش الثاني	آريبا آدد ١٣٨٠ق.م
		آشور – أوبالط الأول
		١٣٦٥- ١٣٣٠ق.م

جدول لحكم ملوك وادي الرافدين ومصر زمن علاقات العمارنة، وقد اشير إلى الملوك المهمين فقط، حسب اقتراح "البررايب" ونقله سليم حسن مع بعض التغيير في الأسماء وإضافة آشور أوبالط (حسب طه باقر، مقدمة،ج/١، ص/٦٩٧) مع ملاحظة الاجتهاد في ترتيب أسماء السلالة الكاشية.

موضوعات رسائل عصر العمارنة ومحتوياتها

أولاً: العثور على الرسائل الدبلوماسية:

احتل موضوع هذه الرسائل مكانة بارزة في تاريخ الشرق العربي القديم. وعلى الرغم من أن الكشف عنها جاء بمحض المصادفة إلا أنها أوضحت طبيعة العلاقات القائمة بين ممالك العالم العربي وآفاق الفكر السياسي وأساليب التخاطب الدولي آنذاك.

في جانب من عصر مصر الامبراطوري احتل الملك إخناتون مكانة الطليعي ليعلن إلغاء آلهة مصر التقليدية وليتوجه إلى عبادة قرص الشمس أو حقيقتها. ولم يكتف هذا الملك بثورته على الألهة الوثنية بل قام بتغيير حتى اسمه من "امنوفيس الرابع" إلى إخناتون (أخت آتون) بمعنى الشمس راضية[٩]. ولم يكتف العاهل الجديد بذلك بل غير عاصمته متخذاً مكاناً جديداً لها على الشاطئ الشرقي من نهر النيل في الطرف الشمالي من "اسيوط" بين "ملوي" و "ديروط"[١٠]. وعلى الرغم من أن أسباب هذه الثورة ودوافعها الشخصية غير واضحة، إلا أن الملك الشاب الجديد كان يطمح بإله عالمي بدلاً من محدودية آلهته المحلية السابقة التي ربما تعطيه بعداً عالمياً في السيطرة على العالم القديم، إذ لا يمكن أن يأتي شيء من لا شيء. على أي حال، يمكن القول بأن ثورة إخناتون تشابه من بعض الوجوه الثورة التي قام بها العاهل العاربي الملك "سرجون" الأكادي قبل ٤٣٥٠ عاماً.

وعلى الرغم من أن أي مصدر لم يبحث بشكل واضح أسباب الثورة العاربية

الأكادية، إلا أنه يمكن القول بأن عمل "سرجون" لم يكن آنياً أو لمجرد ما نقل عنه بأن تسلمه السلطة كان يحب الإلهة "عشتار" له، لأن هذا التبرير يهم عامة الناس في حينه لا الباحث اليوم.

إن ما يمكن قوله في الثورتين "السرجونية" و"الإخناتونية" إنهما كانتا خاضعتين لتنظيم سياسي منسق ولم يكن بمفرد شخص واحد إن يبث مقوماته. على أي حال إن اسم الأكاديين غير معروف وكذا عاصمتهم. إلا أنه من الواضح أن اسم البستاني الذي ترعرع عنده سرجون كان يدعى "آكي" لذلك يبدو محتملاً أن اسم الأكاديين إنما هو انتساب إلى ملقن "سرجون" معنى الثورة. ومن الجلي أن مقومات الثورة "السرجونية" كانت واضحة كتنظيم حزبي، كأقدم تنظيم للأحزاب في العالم، فقد اصر "سرجون" على مد فتوحاته إلى إيران وبلاد الأناضول وسوريا بعد توحيده العراق واحدث ثورة في الإدارة والفن. وهذا عين ما يمكن قوله في ثورة "إخناتون" على الرغم من الفاصلة الزمنية بين الملكين ووجود اختلافات واضحة في عين الوقت بين منهجيهما. أطلق إخناتون على عاصمة الديرة اسماً قريباً من اسمه "خو-اين- اتن"[١١] تمجيداً لإله الشمس.

على أي حال، نحن في دراستنا للموضوع لا نطلق اسم الرسائل المعثور عليها في هذه المدينة طبقاً لاسمها القديم، بل "تل العمارنة" نسبة إلى قرية "بني عامر" في هذا المكان عثر جماعة من أهالي قرية "الحاج قنديل على نحو ستمائة رقيم حينما كانوا يحفرون أسس مباني عاصمة "إخناتون". وقد جاء هذا الكشف المهم قبيل نهاية القرن الماضي[١٢].

إن الطريقة السهلة التي عثر فيها أهالي القرية على ألواح الطين لم تستمر لتعرفنا على ماهيتها فقد أتت الأحكام عفوية على تلك الألواح الطينية، حتى أن البعض عدها نقوشاً مزورة بقصد ترويجها بين الأجانب، وبذا تكاد تشبه قصة نصوص "العمارنة" أمر العثور على رسوم كهوف قبل التاريخ في جنوب إسبانيا التي عثر عليها بمحض المصادفة في نهاية القرن الماضي أيضاً إلا أنها لجمالها وروعة تمثيل بعضها عدها الانثروبولوجيون مزورة آنذاك.

تمدنا الكتب التي ألفت بعد استخراج الرقم بمزيد من التفاصيل، ومما قيل إنها انتقلت إلى تجار الآثار في "اخيم" و"الأقصر" و"القاهرة" بعد الكشف عنها، وإن مدير

مصلحة الآثار المصرية السيد "جريبو" والسيد "نورمان" مدير المدرسة الفرنسية بالقاهرة سمعا بالعثور عليها، اللذان قاما بدورهما بشراء ما تيسر لهما وارسالهما إلى قارئي المسماريات "اوبير" "بباريس" و"سايس" في لندن، فلم يجد هذان العالمان مناصاً من القول بأن الكتابة بابلية.

ولكن الخبر لم يكد يذاع حتى قوبل بالدهشة في جميع الدوائر العلمية، ثم تحولت الدهشة إلى ريبة، والريبة إلى سخرية وإنكار[١٣]. وهذا ما يخبرنا به الكاتب المصري "عبد القادر حمزة" الذي خص فصلاً مهماً في كتابه عن هذا الموضوع. إلا أن باحث الآثار المصرية "فلندز بتري" يخبرنا أن "اوبير" نفسه عدها مزورة[١٤]. علماً بأن "بتري" ألف كتاباً في نهاية القرن الماضي عن رقم الطين المكتشفة. ومما أشار إليه أن كميات نقلت إلى "الأقصر" باكياس مما أدى إلى تحويل معظمها إلى كسر في الطريق، ثم أشار إلى نقلها إلى المتحف البريطاني وبرلين وسانت بطرسبورغ وباريس ومتحف القاهرة، إضافة إلى وقوع بعضها بحوزة أشخاص[١٥].

إن الألواح الستمائة التي عثر عليها الفلاحون جعلت الباحثين يشكون في أمر استنتاجهم في أن الألواح مزورة لأن من يقم بهذا العمل الشاق لا يصل إلى تلك الكمية من الألواح[١٦]. ومما تخبرنا به المصادر أن أول من قرأ أسماء ملوك بابليين وحكاماً سوريين كان قارئ المسماريات "سايس" وأكمل تلك القائمة "أدولف ارمان" كما قام عدد من الباحثين[١٧] بطبع الكتابات ونشرها لتكون بتناول الباحثين في العالم[١٨] وكان من نتيجة ذلك قيام قارئ المسماريات "هاليفي" بمحاولة لقراءة مجموعة من الرقم تخللها النقص والخلل، إلا أنه نسب إليه التعريف بأن تلك الرقم إنما كانت رسائل دبلوماسية متبادلة بين حكام وملوك الشرق[١٩]. أما كتاب المتحف البريطاني الصادر عن الألواح المحفوظة لديه عام ١٨٩٢ فلم يشر إلى تفاصيل أحداث العثور على الألواح، إلا أننا نفهم من كتابهم الذي تولى "بيزولد" كتابته أن الرقم كانت موزعة بين عدد من الأطراف حصل المتحف البريطاني منها على (٨٢) في حين كانت حصة متحف برلين (١٦٠، و٦٠) لمتحف الجيزة، وأن عدداً قليلاً منها كان بحوزة أشخاص[٢٠].

بعد الكشف عن محتويات الرسائل أمكن معرفة الجهات المرسلة لها واليها من ذلك ست رسائل من ملك بابل، وتسع من ملك "الاشيا" (قبرص)، أربع من ملك "ميتاني"

ست وأربعون من "ريب آود" أحد الحكام في سورية ونحو مائه رسالة من حاكم كان بمدينة القدس هو "آراد خيباً"، وحاكم في سورية هو "ازيرو". كانت الرسائل المذكورة مرسلة إلى اثنين من ملوك مصر "امنوفيس" الثالث وابنه "إخناتون". أما الفترة التي غطتها الكتابات فيه حوالي النصف قرن[٢١]. على أي حال إن تلك الرقم لم تكتب فقط في عاصمة "إخناتون" وإنما نقلت كميات من العاصمة السابقة[٢٢] إلى مكان يبدو انه كان بمثابة محفوظات "لوزارة الخارجية" المصرية[٢٣]، إن صح تعبير البعض.

ثانياً: مواصفات الرسائل:

بعد أن عد اصحاب الاختصاص رُقُم "العمارنة" بمثابة رسائل حقيقية بكل معنى الكلمة شرعوا بوضع العديد من الأبحاث لاستقصاء ما غمض منها. وقبل البدء بمعرفة ما تتضمنه بعض الرسائل لا بد من إيضاح مواصفات هذه الرقم من حيث شكلها وأسلوب كتابتها[٢٤]. وعلى أي حال، يمكن وبصورة عامة وضع تلك المواصفات بالآتي:

إن جميع الألواح عملت من الطين الذي يتراوح لونه بين البني الفاتح إلى الغامق ومن اللون اللحمي إلى لون الطابوق الأحمر، وبما أن تلك الرسائل جاءت من مصادر مختلفة فإن طبيعة الطينة قد تشير إلى الأقطار التي أتت منها.

أما من حيث الشكل فإن معظمها مستطيل المقطع الطولي، في حين كان القليل منها بيضوياً. أما الوجهان الواسعان فقد يكونا مستويين أو فيهما تحدب.

أما أحجام تلك الرسائل فكان ينبغي أن يراعى فيه سهولة النقل وفيها من المساحة ما يكفي موضوع الرسالة: لذلك جاءت ألواح الطين المحفوظة في المتحف البريطاني بطول نحو تسعة إنشات وعرض يتراوح بين ٤ ٧/٨ إلى ٢ ١/٨ إنش. أما السمك فحوالي ١ ١١/١٦ إنش. وفيما يتعلق بأطول نص في لوح واحد فقد بلغت سطورة ثمانية وتسعين سطراً، في حين ضم أصغرها عشرة سطور.

وهناك نقطة مهمة تتعلق باللغة التي كتب بها.

لعل اختيار لغة للتخاطب العالمي أصعب المهمات، إذ ينبغي أن يراعى فيها انتشارها الثقافي، وأن تكون مفرداتها في متناول الأقطار التي تتبنى التخاطب بها من بلاد الأناضول وسورية والعراق ومصر.

وكما عودتنا الأرض العربية المعطاء بأن تعمق أواصر القربى بتعميم إحدى لهجاتها المختارة بغية أن تكون واسطة اتصال بينها، فالآرامية كانت لغة التخاطب لدول قبل الإسلام حتى داخل بلاد فارس والصين وأوروبة. أما عبر العصور الإسلامية فإن لغتنا العربية الحالية كانت واسطة الاتصال الثقافي والروحي مع أرجاء العالم. وفي عصر "العمارنة" كانت لغة المراسلات الدولية الأكادية[٢٥] أو الآشورية-البابلية[٢٦]، أحد فروع لغتنا العاربية الشرقية القديمة.

على أي حال، أن وجود رسائل بلغة أجنبية لدى البعض يحتم عليه إيجاد كتبة ومحررين بتلك اللغة، اضافة إلى لغة الملك أو الحاكم المحلية كالمصرية القديمة والحثية، وفي هذه الحالة تكون هناك احتمالات لاستيعاب الكاتب ما يملي عليه، فهل كان آشوريا أو بابلياً درس المصرية أو بالعكس؟.

بعد نصف قرن من الكشف على الرسائل الدبلوماسية عثر على ثمانية ألواح أوضحت جانباً آخر للموضوع. لقد حوت المجموعة الجديدة على ستة تمارين مدرسية لطلبة "الاكاديمية" المصرية المحلية كانوا يدرسون اللغة البابلية العالمية[٢٧]. وبصورة عامة يشير "سيريل" إلى أن تلك الوثائق كتبت بعد تلقين غير دقيق من جيل إلى آخر مما أدى تحولها إلى لغة عالمية *Valo Puk*، وهي اللغة الاصطلاحية أو المبسطة المفردات والنحو ليسهل التفاهم بها *Jargon* وأشار كذلك إلى أن من يريد دراسة تلك الرسائل عليه أن لا يلم بالأكادية أو البابلية فحسب بل إن معرفة لغة أخرى كانت سائدة في رأس "شمرة" بسورية (أوغاريت) وبرأيه أن هذا الأمر يجعل قلة من المختصين الذين بمقدورهم ترجمة النصوص بدقة "كما أن صعوبة تأويل النصوص هي بضخامة المشاكلات الناجمة عن الترجمة"[٢٨].

ومن الأمور التي تبغي الإشارة إليها أن الرسائل منذ بداية الكشف عنها حوت معجماً جرى تقسيمه إلى ثلاثة أجزاء متساوية، حوى الأول منها كلمات باللغة المصرية، والثانية التي أمامها بالبابلية، في حين ضم الثالث كيفية نطق الكلمة البابلية مكتوبة بالهيروغلفية[٢٩]. ومما تشير إليه المصادر أن أحد الألواح حمل هامشاً يشير إلى أن ملك مصر هو الذي أمر بوضع المعجم[٣٠].

ومما أمكن تتبعه في أحد الألواح ختم حمل اسمين هما :"تيتو- نو" و"شا ماش-

نيكي" وقد افترض الباحثون أن الاسم الأول مصرياً والثاني بابلياً[٣١]، هذا إضافة إلى اسم شخص آخر مكتوب بالحبر باللغة المصرية أطلق على نفسه "الكاتب الملكي رع ابييني" الذي من المحتمل أن يكون أميراً لدار المحفوظات وبمعيته الشخصان المذكوران آنفاً[٣٢]. ومن الواضح أن وجود شخص بابلي في مصر بمثابة كاتب هو لتصحيح ما يكتب ومساعدة الكتبة المصريين في وضع الرسائل، وكان ينبغي له معرفة لغة مصر.

عند التطرق إلى مادة الرسائل المكتشفة من المفيد معرفة الأسلوب الذي كتبت به العلامات المسمارية والشكل العام لها، سيما وأن الخط المسماري كان يختلف نسبياً بمرور الوقت بما يطرأ عليه من تبسيط أو إضافة أو ضوابط عديدة في التنسيق أو ربما قلة العناية. وفيما يخص رسائل العمارنة يمكن أن نضع المواصفات العامة الكتابية بمايلي:

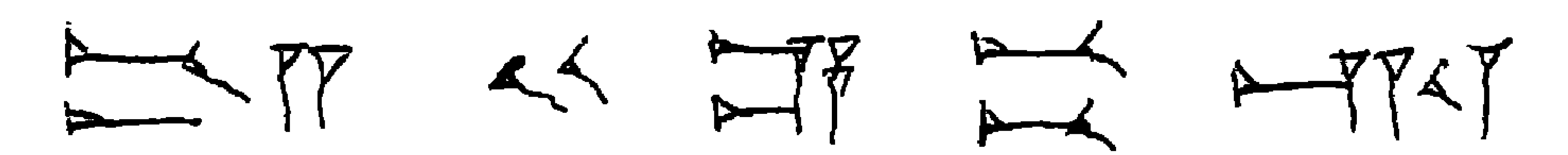
إن الخط المسماري المستعمل يشبه إلى حد بعيد الخط البابلي الوسيط، إلا أنه مع ذلك يحوي خصائص لا تماثل ما نراه في أي فترة، بل إنه غريب حتى عن الشكل المألوف في نينوى وآشور. واننا عندما نقارنها مع الكتابات الأنيقة والمعتنى بها للملوك الآشوريين نرى أنها لم تكتب بأيدي حذاق من الكتبة. ومما يلاحظ أن الكتابة على الرُقُم الكبيرة تكون حرة، وعلى بعض الرُّقُم الصغيرة مضطربة.

ينهي الكاتب في النصوص البابلية والآشورية السطر بكتابته كاملاً، في حين يشيع في نصوص العمارنة إكمال الكلمة في نهاية السطر، وفي بعض الأمثلة توضع باقي الكلمة في بداية السطر الثاني، إلا أنها تكتب على العموم تحت القسم الأول من الكلمة ويمكن تمييزها بوضع العلامة المسمارية أو قبلها. وللحصول على درجة أعلى من الضبط.

جرت محاولة لاستعمال النقط الفاصلة باستخدام اللون الأحمر. وهي مأخوذة عن تقاليد عراقية قديمة موروثة.

ج- من المعروف أن الخط المسماري مقطعي ويمكن كتابة الكلمات إما بمقاطع أو برمز واحد يدل على الكلمة *Ideograph* أي دون اللجوء إلى المقاطع بالاعتماد على صيغ مصطلحة موغلة في القدم بدأت منذ الشكل الصوري للكتابة في عديد من الأمثلة. ومما لوحظ وجود حذف في بعض المقاطع، أو أنهاكتبت دون عناية غالباً[٣٣].

د- بما أن العلامة الدالة أو الشارحة والموضحة لاسم *determinative* قد لا تكون مفهومة لدى بعض الكتبة، ما دامت اصطلاحية لذاتها، فقد اعتمد كاتب الرسائل الدبلوماسية أسلوباً يشرحها أو يعيد كتابتها بأسلوب مقطعي، إلا أنه بغية التمييز بينها ومقاطع أخرى يقوم بوضع مسمار أو مسمارين مائلين للفصل بين الكلمة الاصطلاحية والنهجي المقطعي لها مثلاً:



ومن الواضح أن المقطع (اش) يقرأ لدى السومري بما يعني "تراب" ويلفظ من الأكادي أو البابلي ليعني تراب ولكنه يلفظ باللفظ الأكادي وهو ما فسرته المقاطع الثلاثة (أي-بي-ري)، بما يقابل كلمة "غبار" بعربيتنا.

هـ- لم يقتصر شرح العلامة الموضحة لكلمة ما بالأكادية، بل ورد ايضاً إيضاح لفظها بالكنعانية، وكما هو الحال في السابق يفصل العلامة الموضحة عن المقاطع التي تبين لفظها بمسمار مائل، مثل:

و- إيضاح معنى كلمات آشورية بما يماثلها باللغة الكنعانية، ويتم الفصل بين

الكلمتين بمسمار أو مائل أيضاً مثل:

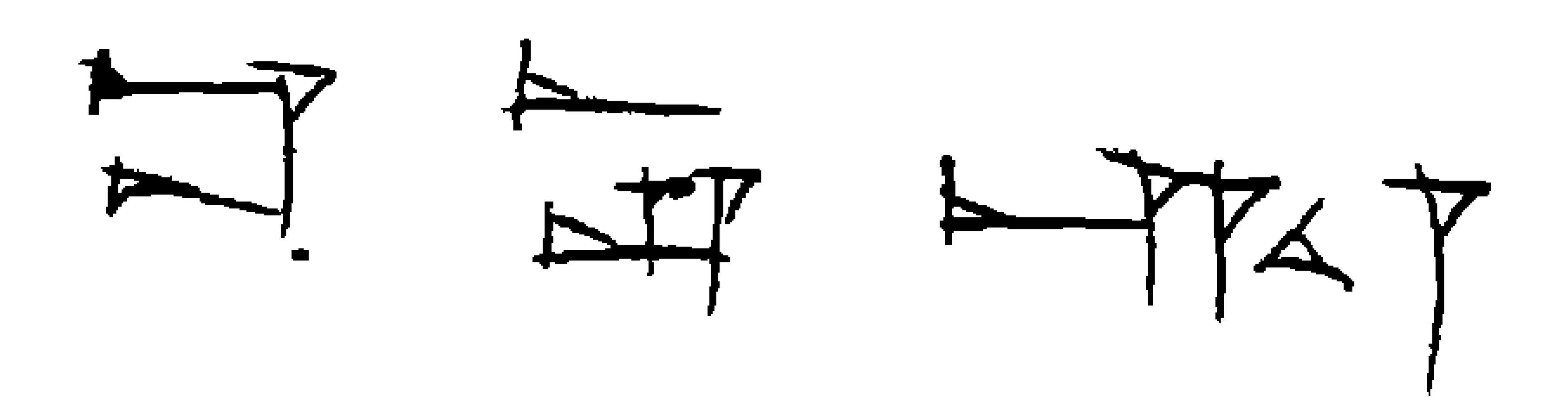
(زو-كي-ني)

(زو-كي-ني). وتعني الكلمة "هاكم".

لي-آخ-شو-أش-مي

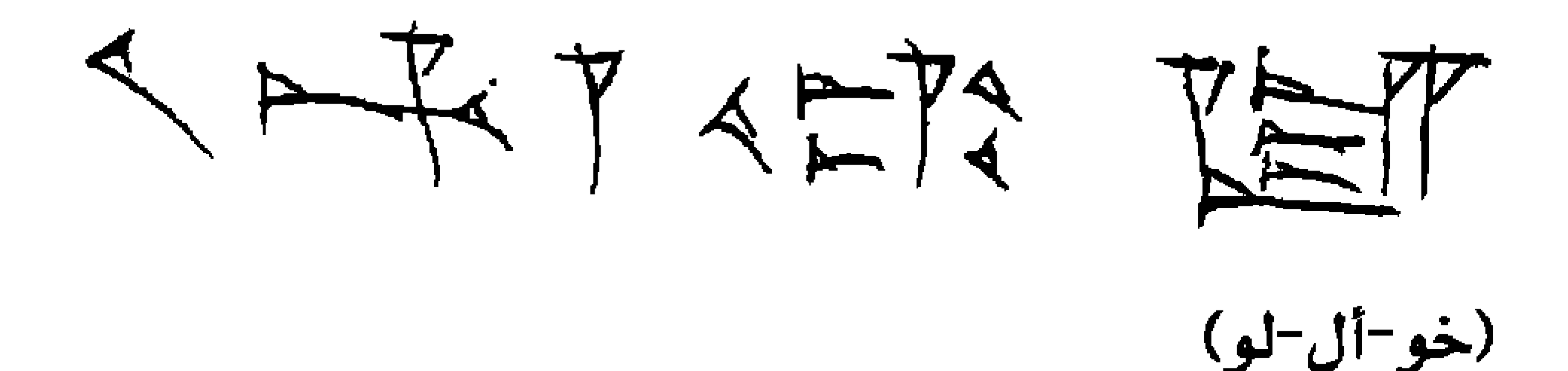
يا- أز-كو-أر-مي

بمعنى "دعه يتأملني (أو يذكرني).



(ني- ري)

والكلمة (نيري) الآشورية عينها "نير" بالعربية



(خو-أل-لو)

إلا أنه قد ترد ثلاث كلمات آشورية تتم ترجمتها في عين النص إلى الكنعانية:

(لا-دي-او) (إ-نا- قات-تي-شو)

ويعني "في يديه".

ز- لقد جرى في الكتابات الصورية والمسمارية المشتقة عنها استعمال جملة علامات للتعبير عن شيء مصنوع من مادة معينة، أو في حالة المثنى والجمع. وفي ألواح العمارنة هناك استخدامات غير سليمة لتلك الأدوات أو بعبارة أخرى جرى فيها بعض التصرف ضمن حالات غير مألوفة في الكتابات العراقية المسمارية. وعلى سبيل المثال تجمع الاسماء باستخدام العلامات و أو عن طريق

تخفيف العلامة الدالة كما هو متتبع إلا أننا نرى في تلك الرسائل استخدام [cuneiform] أو بتضعيف العلامة زائداً إلا أنه غالباً ما يتوضح الضمير بعد علامة الجمع. أما في رسائل العمارنة فإن الضمائر تأتي قبلها أحياناً. ومن المعروف أن العلامات المذكورة عراقية تقليدية متوارثة.

واضافة إلى ذلك هناك أمران من المفيد إيضاحهما الأول يتعلق باستخدام مسمارين عموديين إلى جانب بعضهما للتعبير عن المثنى مثل العلامة التي تشير إلى العين والتعبير عن العينين [cuneiform] وللقدم [cuneiform] في حين يكتب قدمان بهذه الصيغة وهو الأسلوب المتبع في المسمارية الاعتيادية. إلا أن رسائل العمارنة تضع المسمارين الدالين على المثنى قبل الكلمة.

أما الأمر الثاني فيخص العلامة الدالة المركبة وقد استعمل كاتب "العمارنة" طريقة قلب العلامة مثل:

[cuneiform] ل [cuneiform] و [cuneiform] ل [cuneiform]

[cuneiform] ل [cuneiform]

وهكذا. علماً بأن خاصية القلب مألوفة في لهجاتنا.

إن ما ينبغي الإشارة إليه أن الرسائل المكتشفة هي ليست نُسخاً ثانية يحتفظ بما يرسله البلاط المصري منها، بل إن معظمها مرسل من البلاط البابلي والآشوري والميتاني والحثي إضافة إلى المناطق التابعة للبلاط المصري في سورية وفلسطين. وعليه فإن الرسائل المرسلة بالمواصفات التي سبق ذكرها تشملها جميعاً. وعلى الرغم من أن اللغة التي كتبت بها هي العراقية العاربية القديمة (الأكادية-البابلية) إلا أن المواصفات المقترحة لها ولكي تسمى لغة تخاطب عالمي قد أخذ بها البلاط العراقي نفسه وهذا يعني أن الكتبة الذين كانوا يدونون بالمسمارية العراقية في قطرنا قد وضعوا نصب أعينهم التحوير المطلوب.

إن الموضوع المشار إليه على جانب كبير من الأهمية لأن أخبار محرري رسائل

في أقاليم الوطن العربي يعني أن المسؤولين اتخذوا خطوات مسبقة لإرسال الرسائل تمثلت في أبسط مفاهيمها تهيئة اجتماعات للمختصين بالخط المسماري واللغة البابلية إلى جانب ما كان سائداً من اللهجات العاربية القديمة في سورية كالكنعانية. ومن ثم فإن كاتب اللغة الاصطلاحية الدبلوماسية، إن صح التعبير، ينبغي له أن يلم بالعديد من المواصفات، ومن هنا جاء عدم هضم المواصفات المطلوبة في الخط المسماري العراقي التقليدي. وبعبارة أخرى فإن المدرسة التي نشأت في العالم القديم وتوزع محرروها هنا وهناك كانوا يتبعون مؤسسة واحدة، أول الأمر على الاقل، إلا أنه مما يبدو أن مدارس إقليمية نشأت فيما بعد كما مر بنا في رسائل مصر التي حررها الطلبة بمصر للتمرين عليها بمواصفات مماثلة. وعليه فإن إنشاء المؤسسة "اللغوية الاصطلاحية" عملية مهمة سبقتها رسائل متبادلة وضرورات ملحة لإقامتها، وربما سيقدم لنا التاريخ بعضاً منها لإلقاء الضوء على كيفية تأسيسها.

من الرسائل المتبادلة بين العراق ومصر

قبل البدء بعرض ترجمة للرسائل المتبادلة ينبغي التعرف على معطيات أسماء كاتبها ومرسلها، سيما وأن تلك الأسماء كانت غريبة في تهجئتها عن الجانب الآخر، كما وأن ترجمة الكتابات المسمارية خضعت إلى التعديل أحياناً، أضف إلى ذلك أن اسماً لملك واحد قد يأتي بعدة صيغ بتغيير مقطع أو أكثر في اسمه، فعلى سبيل المثال جاء اسم "امنوفيس" الثالث في النصوص بصيغة "نب مواريا"[٣٤] وايموريا[٣٥] و"ميموريا[٣٦] و"نيموريا".

ومن الواضح أن صيغتي "ميموريا" و"تيموريا" فيها ابدال لحرفي الميم والنون كأمر مألوف في الكتابات العربية القديمة. أما عن اسم "امنوفيس" الثالث فقد جاء اسمه بالمصرية بصيغة "نب-مات-رع".

ومما تشير إليه بعض المصادر أن "ميموريا" هو "طوطمس" الرابع، إلا أنه لا يوجد مبرر لهذه الفرضية ما دام الرقيم موجهاً إلى "امنوفيس" الثالث[٣٧]. أما الملك الذي تلا امنوفيس" الثالث فهو ابنه "امنوفيس" الرابع (إخناتون) إلا أن الصيغة التي خاطبه بها حكام بابل والرسائل الأخرى فهي "نفخوريا" عن اسمه بالمصرية "نفر-خفيرو-رع"[٣٨]. وعموماً فإن ملوك بابل وآشور وميتاني كانوا يسمون ملك مصر بالاسم الأول الذي كان يسمى به[٣٩]. ومما تمدنا به كتابات العمارنة اسم الملك "توت عنخ أمون" الذي أتى بعد إخناتون وألغى ثورته في الوحدانية، وربما يمثله الاسم "خنزورو" الوارد في الكتابات المسمارية[٤٠]. إلا أن مجيء الملك المذكور يشير إلى عدم استمرار تلك المراسلات.

أما أسماء ملوك بابل الذين ورد ذكرهم في الرسائل فهم "كاد شمان انليل"

(وكان اسمه يقرأ سابقاً كالليماسن)، "بورنا بورياش" "وكوري كالزو" الثاني الذين لقبوا بملوك "كاردونياش" أي بابل[41].

وفيما يخص الآشوريين الذين تراسل المصريون معهم فقد جاء اسم "آشور أوبالط". وكما أشرنا أن ما وصل من رسائل لا يمثل ما كانت عليه الرسائل من حيث العدد. إلا أننا من جهة أخرى يمكن القول أن علاقة مملكة بابل بمصر كانت أوثق منها مع آشور التي كانت مملكة "ميتاني" تستولى على أجزاء من أراضيها.

لو أتينا إلى تحليل جانب من منطلقات مراسلات العمارنة نراها تشتمل على نواحي الحياة التي كانت مألوفة لديهم:

تأكيد حسن نية الملوك إلى بعضهم.

ضمان عدم التدخل بطريقة تقوي الأواصر.

تبادل المواد التي يطلبها أي من الجانبين المتراسلين.

المصاهرة بغية إحلال علاقات اوثق. وبناء على ذلك فإن تلك الرسائل تناولت ما أمكن تناوله من موضوعات، فهي اذن مرحلة متطورة، "ومن هذا التقسيم يتضح، كما يقول ميروي، إن سياسة الحماية المستترة بستار المحالفة ليست اختراع العصر الحديث بل هي سياسة كان المصريون يعرفونها ويجرون عليها في علاقاتهم مع بعض الأمم المجاورة لهم"[42]. ومن ثم فإن تلك الرسائل تمثل منطلقاً ناضجاً لعهود من الخبرة الطويلة لا أسلوباً ساذجاً في التعبير لمنطلقات مودة، كما يرى البعض[43]. ممن بهرتهم دبلوماسية اليوم بعدم الأخذ بعامل الزمن لتحديد صيغة تطورها.

وخلال عرض الرسائل سأتناول بشكل خاص ما هو متبادل بين مصر وبابل وآشور، في حين ستكون الإشارة إلى مملكة "ميتاني" عابرة.

نماذج مختارة للرسائل

كما مر بنا سابقاً يمكن القول بأن الرسائل غطت ثلاثة موضوعات على الأقل تناولتها رسائل العمارنة متمثلة بالآتي: تبادل الهدايا، المصاهرة، وأمور سياسية مختلفة.

١. النوع الأول:

يتناول الحديث فيها رسائل متبادلة بين "أمنوفيس" الثالث و"كادشمان انليل" وبالعكس. وأخرى بين "بورنابورياش" و"امنوفيس" الرابع وكذا بين "كوري كالزو" الثاني و"أمنوفيس" ايضاً.

مما تشير إليه بعض المصادر إلى أن ما بقي من رسائل "امنوفيس" الثالث و"كادشمان انليل" خمس إحداها من الفرعون نفسه والأخرى من "كادشمان". أما فيما يخص النوع الأول فقد وصلتنا منها رسالة مرسلة من "كادشمان" إلى "امنوفيس" الثالث يقول فيها بأنه بحاجة إلى الذهب لإكمال متطلبات بناء معبد راجياً أن يصله خلال شهري تموز وآب. كما ذكر أنه بحاجة إلى كمية كبيرة لدرجة أن ملك مصر لو ارسلت ثلاثة آلاف "تالنت"(٤٤) من الذهب فإنه سوف لن يرضى به وسيعيده إلى مصر(٤٥). ولكن يبدو أن جواب الرسالة ربما واجه التلف عند نقل الرقم الستمائة حيث لم يصلنا عنه شيء. إلا أنه من المحتمل أن تكون ترتيبات معينة قد تمت مستنتجين ذلك من أن ملك بابل قرر ارسال ابنته إلى مصر لتكون زوجة لامنوفيس(٤٦). على أي حال، إن الذهب في مصر بكثرة التراب حسبما يرى العاهل البابلي(٤٧).

أما عن الرسائل المتبادلة بين "بورنابورياش" و"امنوفيس" الرابع (إخناتون)، فلعل المحفوظ منها في المتحف البريطاني يمثل أهمها لأن فيها ضرباً من التبرير والاستدراج بما لا نعهده في الرسائل السابقة. على أي حال لم نعثر على رسائل متبادلة بين "بورنابورياش" و"امنوفيس" الثالث أو بين "إخناتون" و"كادشمان انليل" لذا يفترض وفاة الأخير و"امنوفيس" الثالث في وقت متقارب. أو لربما لم يصلنا منها شيء لكثرة التالف من الألواح.

لنأتِ إلى نص الرسالة الطريفة التي أرسلها "بورنابورياش" إلى "إخناتون" فهي تحتوي على أكثر من موضوع على الرغم من أن الطلب في رغبة ملك بابل في الحصول على ما يعينه لبناء معبد قال "بورنابورياش".

"إلى نفخوريريا ملك مصر

هكذا يقول بورنابورياش ملك بابل، أخوك. إنني بخير، فعسى أن تكون أنت وبنيك وزوجاتك أولادك ونبلاوك وخيلك وعرباتك بأحسن حال".

"منذ أن عقد أبي وأبوك الود فيما بينهما كانا يتهاديان أنفس الهدايا ولم يمنع أحدهما ما كان يطلب الآخر مهما عز وغلا.

والآن لقد أهدى إلي أخي "منين" من الذهب فوددت لو أنك ارسلت الي ذهباً بقدر ما كان يهديه أبوك. وإذا كان لا بد من تقليل المقدار فأرسل إليَّ نصف ما كان يرسله أبوك. فلِمَ أرسلت "منين" من الذهب فقط؟ إنني الأن باذل جهداً كبيراً في بناء المعبد. وقد تعهدت العمل بقوة وسوف أنجزه بدقة فأرسل إليَّ قدراً كبيراً من الذهب وإذا رغبت في شيء من بلادي مهماً كان فأبعث رسلك يأتوك به".

"في عهد أبي "كوريكالزو" أرسل إليه الكنعانيون يقولون لنذهب إلى حدود مصر ولنغزها جميعنا وسوف نعقد معك حلفاً. أما أبي فقد أجاب على هذه الرسالة قائلاً: "كفوا عما تتشدونه من الحلف. إذا كنتم أعداء ملك مصر، أخي، فليكن الحلف فيما بينكم. ولكن لتحذروا جانبي. إذ لما كان ملك مصر حليفي فمن ذا الذي يصدني عن أن أغزوكم"؟

"وهكذا فلأجل أبيك لم يسمع أبي قولهم. وإنما ما يخص بعض الآشوريين من أتباعي "كذا" أفلم أخبرك برسالة في شأنهم؟ فلم دخلوا بلادك؟ وبما إنك تحبني فيقيني أنك لن تدخل معهم في شيء وإنك ستعمل على إحباط جهودهم وسعايتهم.

"و(بالختام) لقد أرسلت إليك هدية، ثلاث "منات" من اللازورد وعشرة أفراس لخمس عربات من الخشب"(٤٨).

في الواقع تدخل نصف هذه الرسالة ضمن النوع الأول والأخر ضمن النوع الثالث الذي يخص النواحي السياسية. على أي حال سنرى بأن "امنوفيس" الثالث كان أطول باعاً" من ابنه في ميدان العلاقات، ولربما كان ذلك لانشغاله في شؤون ثورته الإصلاحية الجديدة(٤٩). على أي حال مما تشير إليه المصادر أن "بورنابورياش" الثاني كان يشكو في بداية حكمه من أن "إخناتون" لم يتبادل معه التهاني والهدايا، كما نجده يطلب تعويضات عن قوافل تجارية له تعرضت إلى المتاعب(٥٠). على أي حال إن أحد الرسائل التي أرسلها تشتمل على جانب دبلوماسي طريف لا نعهده في رسالة أخرى، سأعرض له عند التطرق إلى النوع الثالث من الرسائل، إلا أنه لما كانت خاتمة الرسالة تتعلق بالحصول على بعض المواد التي احتاج إليها العاهل البابلي فيجدر تناول هذا الجزء منها:

"لقد حجزت رسولي، وقد أعطيت رسولك قراراً وسيرته، فأعط رسولي قراراً عاجلاً واسمح له بالعودة. ولما أخبروني أن الطريق طويلة جداً وأن مورد الماء قد قطع. وإن الجو حار فإني أرسل إليك هدايا جميلة كثيرة، وقد أرسلت فقط هدية جميلة صغيرة من اللازورد الجميل لأخي، وكذلك أرسلت خمسة أزواج من الجياد، وإذا صار الجو حسناً فإني سأرسل عن طريق رسول من قبلي سأرسله لأخي بهدايا جميلة، وكل ما يحتاج إليه أخي".

"دع أخي يكتب لي! وسيحضرونها له من بيوتهم ولقد شرعت في عمل، وعلى ذلك كتبت لأخي فليرسل إلي أخي ذهباً كثيراً لأجل أن أنفذ بها عملي. والذهب الذي سيرسله أخي لا يجعله أخي في يد ضابط، بل تلحظه عينا أخي، وليختمه أخي ويرسله! وذلك لأن الذهب الذي أرسله أخي من قبل ولم يفحصه بنفسه، بل ختمه ضابط أخي وارسله والاربعون مائة لم تكن مراقبة في الميزان (بعد صهرها)"(٥١).

إلى جانب تلك الرسالة الطريفة التي أرسلها "بورنابورياش" لإخناتون، توجد رسالة أخرى يبدؤها بالسلام وتذكيره بصداقة والد الملك البابلي بوالد" إخناتون"، وأنه يأمل أن يستمر ذلك على الدوام. إلاّ أن الذي يهمنا في هذه الرسالة أن ملك بابل أبدى تذمره من وفود رسل مصر إلى بلاده ثلاث مرات فارغي الأيدي من الهدايا!، لذا فإنه سوف لن يرسل شيئاً لملك مصر. ثم تذمره في رسالة أخرى مشيراً إلى أنه لم يستلم العشرين مانا من الذهب التي أرسلت بمعية مرسلها، وأنه استلم خمسة مانات لا غير. إلاّ أن ملك بابل رفض استلامها(٥٢).

على أي حال إن بعض الرسائل قد تحمل لنا أسماء المراسلين فالملك "بورنابورياش" يذكر أنه سيرسل العربات مع مراسله، " شندي شوكاب"(٥٣).

إذا كانت النماذج المختارة تمثل دبلوماسية تبادل الهدايا بين بابل ومصر فإن حظ آشور منها كان قليلاً، وما لدينا منها يمثله رقيم واحد مرسل من ملك آشور، " آشور أوبالط" إلى "إخناتون" يذكّره فيه أن ملك خاني كلبات(٥٤) في منطقة ديار بكر استلم منه هدية مقدارها عشرون مانا من الذهب، وأنه يقدم طلبه للحصول على عين الكمية(٥٥). على أي حال، إن التقارب بين مصر وآشور، على الرغم من محدوديته لم يرق لملك بابل، كما سنتحدث عن ذلك في النوع الثالث من المراسلات.

حينما نستعرض موضوع التبادل بين ملوك الشرق نستنتج أن ما كان العراق يرسله من اللازورد والخيل، إضافة إلى العربات هو ليس لزيادة في اقتصاد مصر، بل كمجرد هدية تضاف إلى محتويات قصورها زيادة في الثقة وتذكر الملوك لبعضهم. أما فيما يخص ما ترسله مصر إلى ملوك بابل وآشور كان لزيادة مدخرات الدولة من الذهب. ومن الواضح أننا لا ينبغي أن نتوقع أن تشرح الرسائل كيفية اتفاق ما يرسله من الذهب، هل للمقايضة به مع دول أجنبية بغية جلب بعض المواد كالأخشاب والأحجار، لأنه من المتوقع أن يغطي القصر البابلي والآشوري نفقات العمال والفنانين المحليين أجر عملهم بالحنطة والشعير أو السمسم وغير ذلك من المواد المنتجة محلياً بما نعهده من صيغ أجور العمال في ألواح اقتصادية وإدارية. أضف إلى ذلك أن تلك الكميات من الذهب يمكن أن تكون البديل عند شحة في الإنتاج الزراعي والحيواني في تلك الفترة. هذا إذاً ما استثنينا استخدام الذهب لأغراض فنية في أجزاء داخلية في المعابد التي تبنى.

٢. النوع الثاني :

تشكل المصاهرة مادة مهمة في رسائل تل العمارنة وقد لعب الجانب البابلي (الكشّي) والميتاني خاصة دوراً فيها بما كان يقدم لمصر من نساء البلاطين. إلاّ أننا كما سنرى أن مصر كانت في غنى لأن تبادل نساءها بالمثل مع الجهتين المذكورتين ما دامت تشعر بالاكتفاء والحصانة السياسية على الرغم من أن ثورة "إخناتون" ينبغي أن تكون قد أحدثت ضرباً من الخلل الداخلي. وحينما نستعرض تلك النماذج الطريفة من المراسلة ستتكون لنا فكرة معينة عن مآرب المصاهرة الملكية.

قبل عرض بعض المهم من رسائل المصاهرة، يمكن الاستفسار عن الكيفية التي بدأ فيها هذا الأمر. يقول" ستانلي كوك": "....إن بابل المسالمة على الدوام عرضت صداقتها، فكانت النتيجة خروجاً لم يسبق له مثيل عن السنّة المصرية. إذ طلب" تحوتمس" الرابع يد أميرة ميتانية لتكون زوجة له وملكة، وهذه أول سابقة لتحالف سياسي يدعمه زواج ملكي"(٥٦). ومما قيل أن" موتيموا" _ كان اسم الملكة المذكورة التي أمست، أمّا للامبراطور التالي "امنحوتب" الثالث، ولكن "لعل الملكة الميتانية الأصل لم تكن موتيموا بل التي خلفتها في المركز"(٥٧). وإذا كان هذا النص سليماً تكون المصاهرة الميتانية قد سبقت البابلية التي جاءت تقليداً لها.

من الرسائل التي وصلتنا كانت واحدة مرسلة من "كادشمان انليل" ملك بابل إلى "امنوفيس" الثالث موضحاً أن ابنته التي سأل بطلبها قد كبرت وأنها سترسل للزواج.

ومما أشار إليه أن والد ملك مصر قد تعوّد على إرسال مبعوثه بسرعة في حين أبقى ابنه مبعوثه ست سنوات. أن ما تشير إليه إحدى رسائل "كادشمان انليل" إلى امنوفيس" أنه غير مطمئن من إرسال ابنته" صوخارتي" إلى مصر، ما دام لم يسمع عن عمتها التي تزوجت من ملك مصر بأمر من والدهن قائلاً أن أحداً لم يرها أو يعلم فيما إذا كانت ما تزال على قيد الحياة(٥٨). ومما قاله" كادشمان انليل" بأنه ينبغي أن يكون هناك دليل على كون أخته على قيد الحياة وأنها تعامل بما يليق بزوجة ملك. لذلك عمد ملك بابل إرسال مبعوث له يدعى " ريقا بن زقادا" بصحبته عدد من الموظفين لاستقصاء أخبار شقيقته. إلاّ أن ما نفهمه من إحدى الرسائل أن أحداً لم يوفق في التعرف عليها وقد برر ذلك بالقول بأن أحداً من المرسلين لم يكن في عمر يستطيع تذكرها فقد حدث الزواج زمن والده لذا نصح بإرسال رجل حكيم يمكنه التعرف على أخته والكلام معها(٥٩).

لقد كتب ملك بابل، إلى حدّ التأثر، بأنه على الرغم من أن رسله قد شاهدوا زوجات "امنوفيس" اللاتي تجمعن أمامهم، وأن امرأة معينة قد أشارت إليهم كأخته، إلا أنه ليس بإمكانهم التأكد من ذلك(٦٠). إننا لنفهم من الألواح أن ملك بابل أرسل إلى مصر مجموعتين من الرسل، ونفهم من أحد الرقم تذمر "امنوفيس" من تلك السفارتين لأنهما رفعتا تقارير كاذبة عن البلاط المصري. والذي يبدو أن ملك مصر طلب من ملك بابل أن يرسل فرقة عسكرية مع ابنته، لذلك جاء طلب "كادشمان انليل" بأنه لا جند لديه!، وأن ابنته "صوخارتي" ليست جميلة!. إن هذا الأسلوب جعل "امنوفيس" يفكر أن هذه الكلمات هي ليست "كادشمان انليل"، وإنه يثق بأن رسله لم يقولوا الحقيقة"(٦١). ومما نفهمه من رسالة أخرى أن "كادشمان انليل" طلب يد أميرة مصرية إلا أن رد "امنوفيس" جاء مخيباً للآمال:

"إن ابنة ملك مصر لا تعطى لأي إنسان". وطبقاً لذلك فقد توعد العاهل البابلي في حالة عدم تلبية طلبه فإن أي سيدة من العراق سوف لن تذهب إلى مصر(٦٢). لقد كانت هذه الإجابة محل تأويلات، من ذلك" أن ملوك مصر كانوا يأبون بناتهم وإخواتهم على

حلفائهم ملوك آسيا، لأنهم كانوا يرون أن بنات "الدم المقدس" أرفع من أن يهبطن إلى مضاجع هولاء"، على حد قول كاتب يدعى "موري"[٦٣]. إلا أن ملك مصر، تحت إلحاح العاهل البابلي وافق على زواج فتاة من نبلاء مصر بملك بابل[٦٤]. والذي يبدو أن السبب الحقيقي الكامن وراء رفض ملوك مصر إرسال أميرات مصريات إلى الأقاليم الآسيوية هو ليس من شعورهم بالاستعلاء لأن الأمر لو كان ذلك لرفضت المعاهدة أصلاً ولحافظت مصر على نقاء دم عائلتها المالكة. إن النظرة الأسلم في تعليل منطق بلاط مصر يكمن في أن مصر كانت تشعر بالاكتفاء وأنها دولة موحدة لا يعوزها إلا أن تشعر بالاطمئنان على دوام تلك الوحدة بمهادفة الأطراف الخارجية، كما أن إعطاء بناتهن إلى البلاط الأجنبي سيكون بمثابة غلطة قد تعني ادعاء ملوك بابل وآشور وميتاني والحثيي حق تملك مصر فيما بعد لو رزقوا أطفالاً من أم مصرية أخوالهم ملوك دولة راسخة. لنأخذ حالة جاءت بعد "إخناتون"، عند موت"توت عنخ آمون" إذ بعثت أرملته سراً إلى ملك حاتي (حدود سوريا الحالية تقريباً) تطلب منه أن يرسل أحد أبنائه لتتزوجه وتجعل منه ملكاً على مصر ولكن المؤامرة عرفت، وقتل هذا الأمير في سورية وهو في طريقه[٦٥]. على أي حال، لقد ورد في إحدى الرسائل أن بور نابورياش الثاني؟ أرسل منين لازورد إلى "ابنة زوجة ابنه" في مصر ومن ثم فإن "حقيقية كون ابنة امنوفيس الرابع قد تزوجت من أمير عراقي هو أمر جديد"، وفيما إذا كان هو" كاونيواش" فهو أمر لا يمكن تأكيده[٦٦]. ونفهم من رسالة أخرى أن" بورنابورياش" أرسل إلى" إخناتون" هدايا ثمينة لقصره تتمثل بعرش ذهبي وعربات خشبية وعدد من قطع الذهب والعاج. ويعلل البعض ذلك بأنه ربما يمثل صداق ابنه ملك مصر "الذي كان على وشك أن يكون قريباً لملك بابل"[٦٧].

ومن الواضح أن هذا الأمر يشير إلى خروج الفكر السياسي المصري من منطلق التخوف زمن والد" إخناتون" إلى منطلق الثقة في عهد "إخناتون" نفسه، سيّما وأن صاحب"ثورة" أراد بها الغاء التحجر الذي كانت عليه عبادة الأوثان المصرية إلى التوجه إلى حقيقة له يظل جميع الشعوب بظله. وقد رجح البعض أن يكون "إخناتون" نفسه من أمه "تي" غير المصرية بنظرهم"[٦٨].

إلا أن الأبحاث التالية أثبتت خطأ هذا الافتراض فقد اتضح بأنها مصرية ومن عامة الشعب.

٣- النوع الثالث :

لهذا النوع من الرسائل أهمية خاصة، وكان النوع الثاني بمثابة تهيئة وأرضية له، سيما إذا علمنا أن بلاط أي من الممالك كان في غنى عن النساء الأجنبيات وقد علمنا بما سبق كيف أن بلاط مصر رفض تزويج ملك بابل من أميرة مصرية. وقد أشرت إلى أن الغرض لم يكن يتعلق بالنقاء والعنصرية لأن الأمر لو كان كذلك لما اقترن ملوك مصر بالآسيويات، بل لخشيتهم من أن يعني ذلك تدخلاً مستقبلياً للبلاط العراقي في شؤون مصر بل تجسيداً لأطماع سياسية ربما. على أي حال إن ما نفهمه من عدم معرفة"امنوفيس" الثالث لأخت "بورنابورياش" يدل على أن تلك الزوجات لم يكن على قيد الذكرى، وعلى الرغم من أن تلك المصاهرات كانت تحقق غايات سياسية إلاّ أن هناك صعوبتين لا يمكن أن تفوت الباحث هما: اختلاف العقيدة الدينية، وثانياً اللغة. ولكن على أي حال يبدو أن الآلهة كانت محط احترام البلاط من كلا الجانبين فالملك الميتاني أرسل إلى ملك مصر الإلهة "عشتار" من نينوى لتكون سبب شفاء الملك المصري(٦٩).

يخص الجانب السياسي من المراسلات ارتباطات معينة إضافة إلى طلب الحماية والتعويض فيما يخص القوافل التجارية. ومن خلال بعض السطور يمكن أن تكون فكرة عن أسلوب اللف والدوران الذي اكتنف جانباً من تلك العلاقات كأسلوب لا تخلو منه أي سياسة.

لنأتِ إلى رسالة ليس فيها طمع ولا جشع، بل هي من نوع مراسلات تطمين الجانب، وذلك عبر رسالة من ملك مصر "امنوفيس" الثالث:

"إلى "كادشمان انليل"، ملك كاردونياش (بابل)، أخي هكذا قال امنوفيس، الملك العظيم، ملك مصر، لأخيه: إنني بخير، وأملي أن يكون الأمر كذلك معك، ومع حكومتك وزوجاتك وأطفالك، ونبلائك، وخيولك، وعرباتك، وأن يعّم السلام أرضك، وأمل أن يكون الأمر معي كذلك، وحكومتي وزوجاتي، وأطفالي، ونبلائي، وخيولي، وعرباتي، وجيشي، وأن يعّم السلام أرضي"(٧٠). إن مثل هذا الأسلوب الدبلوماسي الطريف كان سائداً كصيغة عامة للتخاطب فهذا ملك ميتاني يخاطب "امنوفيس" الثالث قائلاً:" إلى امنوفيس، ملك مصر العظيم، وأخي، وصهري الذي أحبّه

ويحبني أقول: أنا تشراتا ملك ميتاني العظيم، وأخوك الذي يحبك. صحتي جيدة، وأني أبعث بتحياتي إليك وأنت أخي وصهري، وإلى أقاربك وزوجاتك وأبنائك ورجالك"[٧١]. أما ملك "الاشيا" (قبرص) فقال مخاطباً ملك مصر:" إلى ملك مصر، وأخي، أقول: أنا ملك الاشيا، أخوك، صحتي جيدة، وأني أبعث بأفضل تمنياتي إليك، وإلى أقاربك، وإلى خادماتك، وإلى أبنائك، وإلى زوجاتك. وأبعث بالتهنئة لك على عرباتك العديدة، وخيولك كما أبعث بتمنياتي لبلادك مصر"[٧٢]. إلاّ أن مثل ذلك الإطناب قد لا نراه في أمثلة أخرى، على الرغم من أن ما وصلنا عنها نموذج واحد وذلك عبر خطاب الملك الآشوري "آشور أوبالط إلى "إخناتون".

" إلى أخي نفخوريا، فإني" آشور أوبالط"، ملك آشور، وأخوك الذي يدعو لك بالسلامة ولبلادك"[٧٣] ويلاحظ هنا أن الكاتب لم يذكر الأزواج والأبناء[٧٤].

إذا كانت الصيغ السابقة تخص ما تبدأ به الرسائل فإن أمثلة من المواضيع التي تناولتها تمدنا بما يوضح عناصرها.

تشير إحدى الرسائل المرسلة من "بورنابورياش" لإخناتون تذمّره من سرقة إحدى قوافله التجارية بقيادة مرسل له يدعى"خلمو"، وكان الاعتداء قد أعدّ له اثنان من رؤساء الكنعانيين لذلك أرسل مطالباً بالتعويض. وفي مناسبة أخرى أرسل مكاتباً ملك مصر قائلاً إن تجاراً بابليين قتلوا وسرقوا في أرض كنعان بمنطقة تدعى" خيتّاتوني"، لذلك حمّل إخناتون مسؤولية ما حدث قائلاً: " إن أرض كنعان هي لك، وملوكها خدمك". وعليه فقد أرسل مطالباً بالتعويض المنصف وبقتل المعتدين[٧٥]. إلاّ أننا قبل هذه الفترة لدينا رسالة تفيد أن ملك مصر "امنوفيس" الثالث، أرسل" كادشمان انليل" رسولاً لعمل اتفاقية تجارية يمكن وضع أهم نقاطها بالآتي:-

إن أي شخص في وادي الرافدين إذا ما تنقل في أرض مصر بقصد المتاجرة ينبغي له أن يقدم خدمات معينة لملك مصر، وأن على المسافر، سواء كان تاجراً أو من أي صنف آخر، الذي يرفض ذلك فإنه سيعامل بالقوة لإنجاز ما ينسب له، وإن من بين ما يطلب منه الفضة، الزيت، الدهن، الملابس، ومواد أخرى ذات قيمة[٧٦].

ومن الرسائل الدبلوماسية ذات الأغراض السياسية بما سبق عرضه في الرسالة المتبادلة بين" بورنابورياش" و" إخناتون" حول دخول الآشوريين إلى بلاط مصر وتذمّره من

ذلك مشيراً إلى أنهم أتباعه ليس إلاّ، مذكراً إياه إلى أن والده كان يرفض الأحلاف الثنائية كالتي طلبها الكنعانيون ضد "امنوفيس" الثالث.

إضافة إلى تلك الرسائل الطريفة المهمة لدينا نموذج لحالة خاصة تعرضها رسالة من" بورنابورياش" إلى "امنوفيس" الرابع:

" إلى نفخوريا الملك العظيم، ملك مصر أقول هكذا يقول"بورنابورياش" أخوك: إن الحال على ما يرام من جهتي ومن جهة بيتي وخيلي وعرباتي، وكبار رجالي وأرضي، وإنه منذ اليوم الذي جاء إليّ فيه رسول أخي، كانت صحتي ليست بالحسنة، ولذلك فإن رسوله لم يتناول قط طعاماً أو نبيذ بلج في حضرتي، ولي الحق لو سألت رسولك فإنه سيخبرك بأن صحتي لم تكن طيبة، و... ليس لدي شيء يجعلني (صحيح الجسم)، وعندما كانت صحتي سيئة، ولم يرفع أخي رأسي (بالسؤال عني) فإنني عند ذلك صببت جام غضبي على أخي قائلاً: " ألم يسمع أخي بأني كنت مريضاً ؟ لماذا لم يرفع رأسي (أي يواسيني)؟ لماذا لم يرسل رسوله، وينظر في ذلك؟". وقد تكلم رسول أخي كما يأتي قائلاً: إن الطريق ليست قصيرة، وإذا كان أخوك قد سمع، فإنه لا بد أن يرسل إليك التحيات والطريق لأخي بعيدة. فمن ذا الذي كان قد أبلغه حتى كان يرسل إليك بسرعة تحياته؟. فهل سمع أخوك بأنك عليل ولم يرسل إليك رسوله؟ وقد أجبت علي هكذا، سل رسولك فيما إذا كانت الطريق طويلة، ومن الجائز أن أخاك لم يكن قد سمع، وبناء على ذلك لم يرسل شيئاً لتحيتك. وعلى ذلك عندما استخبرت من رسولي وقال لي إن الطريق طويلة، فأني لم أصبّ جام غضبي على أخي. وكما يقولون" إنه يوجد كل شيء في أرض أخي، وإن أخي ليس بحاجة إلى أي شيء. وقد توارثنا من الملوك علاقة طيبة من قديم الزمن، وإنا بناء على ذلك نبعث التحيات متبادلة، وهذه العلاقة ستدوم حقاً بيننا. سلامي عليك". ويرى الدكتور"بدوي" أن مصدر هذه الرسالة شيء آخر غير المرض، ويحتمل أن يكون ملك مصر قد طلب من ملك بابل شيئاً لم يكن بمستطاعه تأديته[77]. مستعيناً بقوله في الرسالة، حسب ترجمته لها، " إن سفير أخي قد اعتذر ببعد الطريق"، وقوله أيضاً: "والواقع أني سألت عن ذلك من رسولي فقال إنها رحلة طويلة جداً. ومن ذلك اليوم طابت نفسي ولم يتحمل لأخي شيئاً من جفاء"[78].

ثم قال بدوي" على أننا لا نستطيع أن نتصور أن يكون صاحب بابل من الغفلة بحيث يجهل بعد الطريق إلى مصر"[79]. على أي حال أن ما أورده "بدوي" ليس إلاّ افتراض لعدم وجود ما يشير إلى طلب ملك مصر شيئاً من الملك البابلي.

العلاقات العراقية المصرية
في العصر الامبراطوري الآشوري

يمكن اعتبار الفترة الآشورية الامبراطورية (٩١٠-٦١٢ق.م) بمرحليتها[٨٠] أكثر عصور الآشوريين ازدهاراً ومنعة. ولعل أبرزها ما حفلت به هذه الفترة اتساع رقعة التحرك الفكري في الوطن العربي وخارجه، وتضم مناطق لم تكن يوماً تحت سيطرة الآشوريين كمصر، سيما وأنها منطقة حضارية مستمرة العطاء كوادي الرافدين. على أي حال، إن الضعف السياسي لوسط وشمال العراق حدا بالآشوريين إلى توحيد الوطن تحت سيطرتهم، وبالتالي أن يكون مركزاً لمملكة مترامية شملت إيران، آسيا الصغرى، سوريا، فلسطين، وأجزاء من جزيرة العرب، ومصر. وتبعاً لهذه التشكيلة الجديدة شملت أنماطاً جديدة من الفن. إن دارس الفترة المذكورة يعلم أن سوريا وفلسطين كانتا من الأهمية بمكان للآشوريين ما دام البحر المتوسط منفذاً لا غنى عنه ومصدراً للخامات والبضائع: لذلك فإن " القصبة المرضوضة" -ملك مصر- كما يصفه الرابشاقي، قائد الجيش الآشوري عند حصار الدويلة اليهودية في القدس، فيه ما يعكس الفكرة التي كونتها آشور عن مصر في كونها منطلق تحريض اليهود وأجزاء أخرى على الثورة، ما دامت عاجزة عن التدخل العسكري المباشر. وعليه فإن هذا الأمر كان منطلقاً رئيسياً ليفكر الآشوريون في احتلالها.

إذن "القصبة المرضوضة" لم تكن بمستوى المسؤولية الدبلوماسية التي يمكن للآشوريين الاعتماد عليها، كما كان الأمر زمن "آشور أوبالط". لذا كانت القوة العنصر الأساس الذي كان بإمكانه أن يحقق سياسة استقرار للامبراطورية الآشورية. إلاّ أنه على الرغم من انتصار الآشوريين العسكري إلاّ أنهم تركوا أبناء مصر يحكمون أنفسهم باستثناء رقابة آشورية.

لقد سبقت الإشارة إلى الحوار الدبلوماسي الطريف الذي دار بين "بورنابورياش" وإخناتون حول رغبة الكنعانيين بغزو مصر فيما إذا حالفهم البابليون، وماذا قال والده لهم. فبابل لم تكن بحاجة إلى مصر طالما لم تكن تحرض أحداً ضدهم، كما أن وجود الكتل المتعددة يعني أن تتمكن مصر من التحالف مع بعضها للإضرار بالمصلحة البابلية. أما خلال الفترة الآشورية الحديثة فقد تغير المنطق والمنطلق.

في عصر العاهل الكبير شلمنصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ق.م) اتسع تحرك الآشوريين العسكري والسياسي ليشمل رقعة أكبر من الوطن العربي، وهو في مسلته يرينا مسؤول اليهود ساجداً أمام أقدامه وهو أمر يؤكد سيطرته الكاملة على الدويلة اليهودية. وفي عصر الملك سرجون (٧٢٢-٧٠٥ق.م) تمكن من ضرب "بيت عومري"- حسب النصوص الآشورية (والمسماة خطأ إسرائيل في زمن متأخر) وتدميرها، تم إجلاء أهلها إلى إيران والعراق، في حين بقيت يهوذا ليسحقها عاهل بابل العظيم نبوخذنصر. أما الملك سنحاريب (٧٠٥-٦٨٢ق.م) فقد لعب دوراً في توجيه الضربات لدويلة يهوذا. إن انتصارات الآشوريين في سوريا وفلسطين أعطتهم الثقة والشرعية في حكمها وتوحيدها في مملكتهم وهي منطلقات لم تكن لترضي ملوك مصر الذين كانوا غرباء على مصر، كما مرّ سابقاً.

في عهد سرجون ألفت دويلات سورية وكذا السامرة، عاصمة"بيت عومري"، حلفاً، "وقد أحست مصر خطورة بشأنها فاضطرت أن تظهر سافرة في الميدان وأرسلت جيشاً لمساعدة ملك غزة.... التقى الجيشان في رفح واستطاع سرجون أن يكسب هذه الجولة"(٨١). إلاّ أن العاهل الآشوري لم يتوغل إلى داخل مصر.

على أي حال، كان الآشوريون يشعرون أن قادة مصر الدخلاء كانوا مصدر شغب على ممتلكاتهم، إلاّ أن الرقعة الكبيرة التي سيطروا عليها وتفاقم المشكلة البابلية زمنهم، وكذا قيامهم بأعمال بناء كبيرة كانت تؤخر في إنجاز مشروعهم لتحرير مصر لا غزوها. وإذا كان سرجون الآشوري قد وقف عند حدود مصر، إلاّ أنه سنحاريب ابنه (٧٠٥-٦٨٢ق.م) كان توّاقاً لتحرير مصر، رغم المشاريع الإعمارية التي قام بها. ويبدو أن سنحاريب وضع الخطط وهو في فلسطين لتحرير مصر" وشرع بالزحف في الطريق البري التاريخي من فلسطين حتى بلغ موضع العريش و"رفح"، على بعد

نحو(٣٠) ميلاً شرقي القناة آلاف ولكن هذه الحملة لم تحرز النجاح بسبب العواصف والزوابع الترابية التي حالت دون مواصلتها السير إلى داخل الأراضي المصرية"(٨٢).

أما هيرودوتس فيروي قصة، لعلها من أمهات أفكاره، إن سبب إخفاق سنحاريب دخول مصر إنما رجع إلى الجرذان التي قضمت الجلود والحبال في سلاح الجيش، وهو ما لا تذكره مصادر الآشوريين(٨٣).

أما الملك الذي تلا سنحاريب فهو ابنه أسرحدون (٦٨٢-٦٦٨ق.م) فقد أخذ على عاتقه أمر تحرير مصر، ونفهم من إصراره على عمله هذا من الوقت الطويل الذي أمضاه في تحقيق ذلك، والحملات الثلاث التي أعدها في الأعوام (٦٧٤، ٦٧١، ٦٦٩)ق.م.(٨٤). فهي إشارة إلى ذلك. أما الأولى فكانت كحملة أبيه الأول من حيث النتيجة ومعلوماتنا عنها قليلة، وما نعلمه أن الآشوريين قاسوا من محاولات الجيش لصدهم عند الحدود المصرية(٨٥).

بعد عامين من محاولة أسرحدون الأولى عاد بالتفكير في فتح مصر واضعاً جيشه تحت إمرة" شار- نابو- شو". وفي هذه المرّة نجح في احتلال وادي النيل حيث انهزم طهارقا ثم سلمت مدينة ممفس. وبعد أن استتب له الأمر قسم البلاد إلى اثنتين وعشرين ولاية يديرها ولاة بعددها واضعاً أمام كل واحد منهم حاكماً آشورياً.

وليفخر بما أنجزه، وهو في عودته إلى آشور ماراً ببلاد الشام أقام لنفسه نصباً على نهر الكلب مفتخراً بما قام به من عمل(٨٦).

إن الدخول في مزيد من التفاصيل عن حملة أسرحدون من الأمور الطريفة وذلك من خلال ما ذكره هو عن حملتيه على الرغم من الحالة غير الجيدة لما وصل عنه من رقم لهذا الموضوع.

على أي حال، يشير أسرحدون إلى أنه خلال حملته الأولى أخضع اثنين وعشرين ملكاً من ملوك ساحل ووسط البحر. كما يشير إلى حملته العسكرية ضد ملّوخا التي يرى البعض أنها بلاد "ميروي"(٨٧). والأصح المنطقة الواقعة بين إيران وبلاد السند ومن الأمور الطريفة التي أشار إليها أسرحدون قطعه للمسافة الشاسعة حتى وصوله أرض مصر حيث لم يكن هناك ماء مشيراً إلى أنه جلب المياه إلى جيشه بالدلاء. ويشير أيضاً إلى أنه استعان بجمال ملك بعض القبائل العربية ليتم عمله. كما وذكر إلى قطعه

مسيرة خمسة وعشرين يوماً، بما يعادل (٣٠) كاسبو بمسافات الأطوال لديهم، وإن أربعة كاسبو من الأرض كانت صخرية صعبة الاجتياز، ومسافة مثلها قطعها بسيره يومين بأرض تعيش فيها أفاعٍ برأسين. ولمسيرة يومين آخرين أشار إلى أنه واجه ذباباً مجنحاً، إلا أن سيده مردوخ أنقذ جيشه من تلك الملمات. بعدها تأتي جمل، ناقصة من الرقيم تشير إلى دخوله أرض مصر إلى مدينة طيبة.

على أي حال، لقد عثر المنقبون في قصر أسرحدون بنينوى على أجزاء من تمثال طهراقا[٨٨] تحمل كتابه (هيروغليفية).

بدأ أسرحدون في أمر تحرير مصر من الأحباش بداية حسنة إلا أن قرب طهراقا من بلاده الحبشة (كوش حسب المصادر المسمارية) ساعد في مده بالعون كلما سنحت الفرصة عند ابتعاد الملك الآشوري إلى عاصمة ملكه. لذلك حينما اعتلى ابنه الفذ آشور بانيبال العرش كانت أمامه مهام جسام في ارجاء الامبراطورية المترامية كافة. أما فيما يخص مصر فقد انصرف لها مرتين إلا أن انشغاله بأجزاء أخرى من الامبراطورية جعلت زمام الأمور تفلت من يديه فيما بعد.

لقد رأى آشور بانيبال إرسال قائد جيشه إلى سوريا لاستنفار الجيوش وتعبئتها وكان على أثره جمع جيشاً قوياً سار به إلى الحدود المصرية وكان فيه من المقدرة ما دحر به طهارقا وجنده ليجبره على الهرب من ممفس وطيبة التي لم تغنه عن قوة الآشوريين شيئاً فقد استطاعوا فتحها هي الأخرى. ومن الجلي أن وجود الجيش الآشوري على مسافة ١٣٠٠ ميل والمحافظة على إمداداته أمراً لم يكن من السهولة بمكان. لذلك فقد عمد العاهل الآشوري إلى تسليم الحكم لأبناء مصر من المناوئين لحكم طهارقا، وهي السياسة عينها التي اتبعها سلفه. وقد ساند ذلك حاميات آشورية في طيبة والدلتا.

إلا أن الذي يبدو أن بعد المسافة ولربما صعوبة اللغة المصرية القديمة على الآشوريين ورغبة الأمراء بالحصول على امتيازات أعلى دفعتهم إلى الثورة بتحريض من طهرقا.

سطر لنا آشور بانيبال في حولياته ما دار في مصر مشيراً إلى أنه في مسيرته إليها ذهب إلى "ما كان" "وملوخا" وإلى ما قام به والده أسرحدون من عمل ضد طهراقا.

(طارقو). وأشار أيضا إلى أن الحكام الذين عينهم والده قاموا بأعمال السرقة والقتل وأنهم استولوا على ممفس. وقال إنه خلال حملته خضع له اثنين وعشرين ملكاً من ملوك شاطئ البحر وأواسطه مع ما يملكون من جيش وسفن. ثم قال العاهل الآشوري: "لقد طرق وقع حملتي سمع طارقو ملك مصر وكوش. لذا قام بجمع جنده للحرب. إلا أن آشور وبيل ونابو والآلهة العظام حاربوا إلى جانبي. وفي معركة على طول السهل تغلبت على جيشه. وسمع طارقو اندحار جيشه وهو في وسط ممفس. إن (قوة) آشور وعشتار قد طرحته أرضاً لذا ولى هارباً... لقد ترك ممفس، ولينقذ نفسه هرب إلى وسط طيبة". بعد ذلك يذكر استيلاء الجيش الآشوري على المدينة وتعيينه لاثنين وعشرين ملكاً وجاء "مانتميانخي" في آخر القائمة كملك على طيبة. كما أشار إلى تمرد هؤلاء قائلاً "وقد جلبتم مرة أخرى، وأعدتهم إلى اماكنهم. إن مصر وكوش التي استولى عليها والدي سيطرت عليها مرة أخرى... عائداً بسلام إلى نينوى بالغنائم الثقيلة"[٨٨].

الا أن آشور بانيبال يعود ليتذمر من وضع أولئك الملوك والحكام قائلاً بأنهم "لم يحفظوا العهد أمام الآلهة العظام، وتناسوا الجميل الذي صنعته لهم، وسولت لهم أنفسهم أمراً.. إلى تارقو ملك كوش أرسلو رسلهم لتأسيس حلف فيما بينهم، قائلين: دع حلفاً يقم بيننا وليقم التعاطف فيما بيننا.. لقد سمع قوادي (ما خطط له الأعداء) مما جعلهم يقبضون على رسلهم واطلعوا على أعمال التحريض. لقد أمسكوا بأولئك الملوك وكبلوا أيديهم وأرجلهم بسلاسل الحديد...". ثم يشير إلى الضربة العسكرية التي وجهها الجيش الآشوري إلى مدن مثل سايس، منيدس وصيعانو" والمدن الأخرى التي رتبت عمل السوء معهم. لقد أجهز عليهم بالسلاح صغيرهم وكبيرهم".. وهؤلاء الملوك بمكائدهم الشريرة ضد جيش آشور جلبوا أحياء أمامي إلى نينوى".

لقد كان من جملة الأعمال المهمة التي قام بها العاهل الآشوري تعيين "نيخو" ملكاً على مصر، الذي يشير آشور بانيبال، بأنه كان بعيداً عن وسط الملوك الآخرين، لذا فقد وعد بالحسنى وأبقى على حياته إلى جانب إغداقه العطايا عليه ومنحه شارة الملكية من الذهب "وقدمت له سكيناً من حديد بقبضتها الذهبية واضعاً اسمه عليها. وقدمت له العربات والخيول ... وأرسلت له قوادي وحكامي ليكونوا عوناً له وسنداً.. وعينت ابنه نابو شيز بائي على "اثر يبس". إلى جانب صنيع آخر قدمته له أكثر مما فعله والدي معه"[٨٩].

أما فيما يتعلق بخصمه العنيد طهراقا الحبشي فقال: "لقد ولى هارباً وطرحته قوة سلاح آشور سيدي (أرضاً)[٩٠]. فيما بعد جلس اورد اماني ابن شاباكو على عرش ملكه وجمع جيشه في طيبة بحرب جيشي الآشوري الذي كان في ممفس، وفرض الحصار عليهم. وكان من ورسولي أن أتى مسرعاً إلى نينوى ليخبرني بذلك"[٩١].

وفي حملته الثانية يخبرنا آشور بانيبال بأمور أخرى تتعلق بالوضع في مصر وما اتخذه من اجراءات. وعلى الرغم من أن سرد تلك الحملة جاء مختصراً في أحد نصوصه. قال العاهل الآشوري: والحكام الذين عينتهم في مصر فقد أتوا للقائي وخروا أمامي ساجدين".

ثم سعيت متعقباً اورد اماني إلى مدينة طيبة صدر قوته. وعندما رأى دنو معركتي القوية ترك طيبة مولياً إلى كيكبيي. وبعون آشور وعشتار وقعت المدينة بقبضتي.." ثم يشير آشور بانيبال إلى حصوله على الذهب والفضة وأصناف الملابس وكذا الخيول والعبيد من الرجال والنساء وعمودين كبيرين وألفين وخمسمائة قطعة من السلاح. مشيراً إلى جلبه لها من طيبة إلى آشور. وفي ختام نصه قال: "لقد جعلت سلاحي قوياً على جميع أرض مصر وكوش، وعدت سالماً إلى نينوى عاصمة ملكي"[٩٢].

إن ما نفهمه من سير الأحداث قضاء آشور بانيبال على طهراقا في الشمال وأسس حكومة جديدة يديرها ملك مصري هو "نيخو" الذي كان معادياً للحكم الحبشي. الا أن مصر العليا (جنوب مصر) ظلت متأثرة بالولاء للأحباش، ثم مد الأحباش سيطرتهم إلى ممفس وربما قتلوا نيخو. لذلك عاد آشور بانيبال الكرة متوغلاً إلى مصر العليا مدمراً طيبة معقل المتمردين.

ثم خلف نيخو ابنه بسماتيك /٦٦٤-٦١٠ق.م/ الذي كان على ولاء تام للآشوريين كأبيه. الا أن محن آشور كانت كثيرة وكان أخطرها تحالف الماذيين الفرس والبابليين، لذلك أرسل بسماتيك جيشاً لنصرة حلفائه الآشوريين. ثم انتهى عهد بسماتيك بخلف ابنه نيخو /٦١٠-٥٩٤ ق.م الذي لم يكن له نصيب في الدفاع عن الآشوريين، فقد انتهى عصرهم الذهبي ومن ثم فقد انصرف نيخو إلى مد سلطانه على سوريا ونفذ إلى أجزاء من آسيا الصغرى حيث كان هناك في تلك الأثناء نبوخذ نصر قبل توليه العرش. لقد رجع العاهل البابلي عند مرض أبيه ثم تسلمه عرش المملكة البابلية.

لقد أحست مصر أن وضعها الوطني قد تحسن بعد أن حرر الآشوريون أرض مصر من الأحباش. إلا أن هذه المملكة توجست الخيفة من التوسع البابلي بل وربما عدم هضمها لنوايا عاهل بابل العظيم نبوخذ نصر. لذا فقد التجأ حوفرا أو افريز الذي خلف بسماتيك ابن نيخو إلى تحريض دويلة يهوذا ضد السلطان البابلي وكان على اثرها توجيه العاهل البابلي العظيم الحملة الأولى سنة ٥٩٧ ق.م ثم الحملة الثانية عام ٥٨٦ ق.م وتحرير فلسطين من المتمردين. ومن الواضح أن الحملات الآشورية جعلت من اليهود أن يلقبوا الآشوريين "سوط الرب" ليلفح ظهورهم كلما كثرت خطاياهم.

على أي حال إن رغبة نبوخذ نصر في إيقاف مصر عند حدها كانت واضحة بعد أن كانت سبباً في تحريض متمردي يهوذا ومدناً سورية وفلسطين وأخرى. ومما تذكره بعض المصادر أن العاهل البابلي أمضى أربع سنوات في حملة ضد مصر بعد إخضاعه مدينة صور بادئاً زحفه عام ٥٦٨/٥٦٧ ق.م إلا أن النص البابلي المتوفر عن ذلك لا يشير إلى صدام بين القوتين. ومما ورد في النص مدينة "بوطوياما‌ن" التي يرى البعض أنها "قورنية" على الساحل الليبي، علماً بأن كاتباً يونانياً يدعى ميكاشينس أشار إلى وصول نبوخذ نصر ليبيا زمن اماسيس والذي يبدو أن الإغريق قد قاموا بمساعدته[٩٤]. ومن المحتمل أن العاهل البابلي وصل إلى سواحل المحيط الاطلسي حسب أحدث دراسة.

أما في زمن آخر عاهل بابلي، وهو نابو نائيد، ففي خلال عام حكمه العاشر وضعت المنافسة بين مصر وبابل أوزارها لمواجهة أطماع ميديا المشتركة، ويبدو أن ذهب نابو نائيد إلى تيماء في جزيرة العرب سنة ٥٥٣ ق.م ارتبط بالسيطرة على الطريق القادمة من مصر إلى بابل ما دامت التجارة بين القطرين تمر بشكل اعتيادي بسوريا وفلسطين.

ومن الواضح أن العراق اعتمد كثيراً على مواد كان مصدرها مصر كسلفات الألمنيوم التي كانت مهمة جداً في صناعة نسيج الصوف ناصع البياض، وقد ورد في النصوص البابلية أن المادة المذكورة كانت تدعى (كابو)، وقد أشار المؤرخ "بليني" إلى أهمية هذه المادة، علماً بأن ما لا يقل عن ستة نصوص بابلية من زمن نابو نائيد قد ذكرتها[٩٥]. وهذه المادة لم تستخدم في صناعة النسيج فقط بل في عمل الزجاج والتزجيج أيضاً. ولم يقتصر الأمر على المواد بل تشير مصادر إلى استخدام عمال مصريين مهرة في السنة الثالثة عشرة لحكم نبوخذ نصر في بابل، وقد وردت قوائم بأسمائهم.

وفيما يخص الفترة الآشورية هناك مئات من قطع العاج التي عثر عليها الآثاريون في نمرود فيها مشاهد مصرية صرفة مؤكدة الصلة الفنية الوثيقة بين القطرين.

وخلاصة القول: إن الصلات العراقية المصرية كانت منذ أقدم الفترات قائمة على الفائدة المتبادلة منذ عصر الوركاء، أما خلال الفترة البابلية والآشورية الوسيطة فقد تنامت علاقات فاقت زمانها مشيرة إلى خطى التعاون الحضاري والسياسي بين البلدين العربيين مصر والعراق وكذا سوريا، عبر منطلقات سلمية هادفة.

مما مضى تتكون لدينا فكرة جلية أن رخاء الشرق العربي ومنعته إنما كان يعتمد باستمرار على سلامة كل من القطرين اللذين قادا مسيرة العالم الحضارية وعنهما أخذ الرومان والإغريق والفرس أسس الحضارة ومنهما تعلموا كيف يعيشون عبر عطاء أبناء الوطن العربي.

الهوامش

١. احتلت المملكة الوسطى حيزاً مهماً في تاريخ مصر القديم ٢٠٤٠/-١٧٨٦ ق.م وقد شغل حكمها السلالتان الحادية والثانية عشرة حسب تقسيمات "مانيثو" المؤرخ المصري.

أسس المملكة الوسطى أمنحوتب الثاني وقد اتخذ لنفسه لقباً جديداً هو "سماتوي" بمعنى "الذين وحدوا القطرين". وبعد توحيده مصر وإرساء أسسها السياسية توجه بحملات ضد نوبيا، ليبيا، سوريا، وسيناء.

من ملوك هذه الفترة المهمين أمنحوتب الأول وكذا امنحت الثالث الذي أمضى خمسة وأربعين سنة في الحكم تاركاً أعمالاً مهمة.

٢. بعد عهد المملكة الوسطى جاءت فترة من الضعف، وكذا دخول موجة آسيوية عبر سيناء.

أطلق المصريون على الحكام الجدد لقب "حيقا وخاسوت" أي أمراء المنطقة العليا، وهي التسمية التي يبدو أن المؤرخ ما نيثو قد أخذ اسم "الهكسوس" منها وهي التسمية التي نطلقها عليهم.

شغل حكم الهكسوس عهد الأسرات (١٣-١٧)، وقد خصص مانيثو لهم حكم ٦٠ ملكاً.

لا يعرف إلى الآن الكيفية التي تغلغل بها الهكسوس من شمال مصر إلى جنوبها، الا أن ما يعرف أن العاصمة ممفس سقطت بأيديهم سنة ١٦٧٤ ق.م وكان من ملوكهم دوديموس، وحسب مانيثو هو ساليتس، ويبدو أن هناك مزجاً بين اسمين، لأن ما يبر شيشي، هو أول حاكم للهكسوس. وعلى الرغم من التحديد التقريبي لفترة الهكسوس إلا أن أيا من الباحثين لم يعط تحديداً فعلياً لها. إلا أن ما يمكن قوله فيهم أنهم لم يتدخلوا في نمط الحياة الاجتماعية والدينية بمصر، وقيل إنهم أول من أدخل العربات والخيول إلى مصر.

كان الحاكمان الهكسوسيان خايان وأوسيري ابوي الأول، اللذين حكما مصر ما لا يقل عن نصف قرن، أقاما خلالها علاقة حسنة مع الأقطار الأجنبية. وقد استعملا لقب "ملك مصر العليا والسفلى".

وفي عام ١٥٨٠ق.م بدأ الصراع مع الهكسوس. ثم جاء أحمس الأول مؤسس السلالة الثامنة عشرة ١٥٧٠-١٥٤٦ ق.م حيث تأسست المملكة الحديثة.

يراجع: *71–The New Ency. Brit. U.S.A, 1977, vol. 6.pp. 470*

٣. الميتانيون من الشعوب التي استوطنت شمالي سوريا وأجزاء من وادي الرافدين، ولعبوا دوراً مهماً في أحداث المنطقة في الألف الثاني ق.م ويرى البعض أنهم والحوريون، الذين كان مراكزهم في محافظة التأميم (ارابخا قديماً) مجموعة سياسية واضحة وكذا عين تسمية خانيبكلبات ونهارينا أو نهاريما.

يراجع: حاشية (٢) في: العلاقات السياسية للدولة الآشورية، تلسيد وليد محمد صالح الفرحان، (رسالة مسحوبة على الاستينسل)، بغداد، ١٩٧٦، ص/٤٠.

٤. الحثيون شعب احتلت فعالياته حيزاً مهماً في أحداث الشرق القديم خلال الالف الثاني ق.م سكن الحثيون بلاد الأناضول، ومن الصعب تحديد الأصل الذي أتو عنه.

يمكن تقسيم الفترة الرئيسية التي عاشها الحثيون إلى: -المملكة القديمة (١٧٠٠-١٥٠٠ ق.م) ثم المملكة الحديثة ١٤٠٠-١١٩٠ ق.م وفي عهد المملكة الحديثة لعبوا دوراً مهماً في أحداث الشرق ولا سيما مع مصر حيث سادت بينهم حروب خاصة انتهت بتوقيع بروتوكولات سلام بينهما. يراجع: فتحية البزاوي: أصول العلاقات السياسية الدولية، مصر، ١٩٨٥ (حول المعاهدة ص/١٩-٢٣).

من ملوك الحثين المهمين حتوسيلس وابنه مورسيلس (مور شيلش) الذي دحر الميتانيين، ثم قيامه بحملة على بابل ونهب كنوزها، ممهداً بتسلط حلفائه الكاشيين بعد أن اسقط عهد بابل القديم.

ثم انتهى الوجود الحثي في بلاد الأناضول بدخول الإفرنجيين إليها، أما عاصمة الحثيين فهي بوغازكوي اليوم (حتوساس سابقاً) التي جرى التنقيب فيها عام ١٩٢٧، يراجع: *The New Ency. Brit. vol. 1,pp. 816-190*

يراجع أيضاً كتاب كورني "الحثيون" (سلسلة الألف كتاب) مصر، (ترجمة د.عبد المنعم ماجد).

٥. الفرحان، العلاقات السياسية، ص/٤٢-٤٣.

طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بغداد، ١٩٧٣، ص/٤٨٧-٨٨، ص/٤٦٠

٦. الفرحان، ص/٤٤.

٧. يراجع الفصل الثالث.

٨. الفرحان، ص/٥٤-٥٥.

٩. أو "قرص الشمس منقب" (إيخون آتون) حسب: عبد القادر حمزة، على هامش التاريخ المصري القديم، مصر، ١٩٤٠ان ص/١٧٨

١٠. المصدر السابق، ص/١٧٧

١١. *Bezold. C.; The Tell El Amarna Letters In the British Museuw Oxford. 1892. p. Ix.*

١٢. لقد أعطيت سنوات متقاربة للكشف المذكور، فحسب عبد القادر حمزة، حدث ذلك عام ١٨٧٧، ص/١٧٥. في حين أشار برستد إلى عام ١٨٨٨:
Breasted, J. H; A History of Egypt. U.S.A. 1959. P.332
أما أحمد بدوي بكتابه: في موكب الشمس، مصر ١٩٥٥ ج/١، ص/٧٢٥، فقد أشار إلى أن قسماً كبيراً من الرُقُم عثر عليها عام ١٨٨٧، في حين ورد في حاشية كتاب "ول ديورانت" أن العثور على الرُقُم كان عام ١٨٩٣ على يد فلندرز بتري، قصة الحضارة.

١٣. حمزة، ذات المصدر، ص/١٧٦.

١٤. *Petrie. Flinders; Syria and Egypt from tell EL-Amarna Letters, New York. 1898, pp. 1-2.*

١٥. *Ibid. p. 2*

١٦. عبد القادر حمزة، ذات المصدر، ص/١٧٦

١٧. حول أسماء بعض الباحثين يراجع *Petrie; p. 2*

١٨. عبد القادر حمزة، ص/١٧٦-١٧٧

١٩. عبد القادر حمزة، ص/١٧٧

٢٠. *Bezold, c.; The Tell EL-Amarna Tablets in the British Museum, Oxford. 1892. p.9.*

٢١. *Bezold.; p.24*

٢٢. عبد القادر، ص/١٨٥

٢٣. عبد القادر، ص/١٨٠

٢٤. عبد القادر، اعتمد البحث بشكل خاص على مواصفات الرسائل بما نشره بتزولد عن رسائل العمارنة ص/٢٣-٢٥ (المصدر الإنكليزي المعتمد).

٢٥. *Aldred, cyril; Akken then pharaoh of Egypt – a new study. Germany. 1968. p. 197*

٢٦. *Bezold; p. 13*

٢٧. *Gordon. Cyrns, H.; Adventure in the near East, Britain, 1957, p.91*

٢٨. *Al dred; p. 198*

٢٩. عبد القادر، ص/١٨٦.

٣٠. عبد القادر، ص/١٨٦.

٣١. عبد القادر، ص/١٨٩.

٣٢. حمزة، ص/١٨٦.

٣٣. *Bezold; p.xxii*

٣٤. *Petrie; p. 37*

٣٥. *Bezold. P. 20.*

٣٦. *Bezold. P. 20.*

٣٧. *Bezold, p. 20.*

٣٨. طه باقر: مقدمة في تاريخ القارات القديمة، بغداد، ١٩٧٣، حاشية ص/٤٥٨.
يراجع أيضاً: *Desroches, christiane; Life and Death of a pharaoh, Tutankhamen. Italy. 1965. p. 50*

٣٩. *Aldred; p. 198*

٤٠. *Desroches; p. 80*

٤١. يظهر أن اسم "كاردونياش" كان مرادفاً بالأصل لمصطلح "أرض البحر الجنوبية"، التي هي بعنيها كالديا علماً بأن سنحاريب استخدم أيضاً عين المصطلح

للإشارة إلى " أرض البحر" ويرى البعض أن اصل الكلمة غير معروف. يراجع: سليم حسن، مصر القديمة، القاهرة، ١٩٤٨، ج/٥، ص/٦١٩.

٤٢. عبد القادر، ص/١٨٧.

٤٣. حول عدم هضم البعض لأهمية تلك العلاقات الدبلوماسية وتقليلهم من قيمتها يراجع هامش السيد زكي نجيب محمود مترجم كتاب "قصة الحضارة" كما ورد في الجزء الأول، ص/١٨٥، يراجع أيضاً عين المنطق للسيد أحمد بدوي في كتابه "في موكب الشمس" ص/٧٣٩.

٤٤. وزن عراقي قديم استخدمه البابليون والآشوريون. وعنهم أخذ اليونان والرومان وشعوب أخرى، وكان هذا الوزن بالنسبة إلى البابليين يعادل ٣٠٠٠ شيقل ولدى اليونان ٦٠ مينا (وهو من مانا السومرية البابلية)أو ٦٠٠٠ درهم فضة، وقد أهمل التعامل بالوزن المذكور عام ١٦٣٥ م. يراجع: *Llittle, William, the Shorter Oxford English Dictionary. Brtoitain, p. 212 6*

والنالنت هي الوزنة وبلتو بالأكادية و(كو) بالسومرية وتعادل ٣٠,٦ كغم. يراجع: د. فوزي رشيد، الشرائع العراقية القديمة بغداد، ١٩٧٩، ص/٤٠.

٤٥. *Petrie, Flinders; Syria and Egypt from tell EL Amarna Letters. New york. 1898, p. 39. Bezold; xxix.*

٤٦. *Bezold; p. xxx*

٤٧. *Breasted, James Henry. P. 333.*

٤٨. اعتمدت على ترجمة الأستاذ طه باقر للنص المذكور : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج/٢، ص/٦٩-٧٠، ١٩٥٦. ويراجع: بدوي أحمد، في موكب الشمس، مصر، ١٩٥٥، ج/١، ص/٥٣٧.

٤٩. عبد القادر، ص/٢٠٧.

٥٠. *King, Leonard; A History of Babylon, London, 1919. p. 225.*

٥١. ليفي، مارتن، الكيمياء والتكنولوجيا الكيميائية في وادي الرافدين، بغداد، ١٩٨٠، ترجمة عدد من الأساتذة، ص/٢٤٩.

سليم حسن، مصر القديمة، القاهرة ١٩٤٨، ج/٥، ص/٦٢٤-٢٥

٥٢. *Bezold; p. xxx-xxxii*

٥٣. *Ibid. xxxii*

٥٤. أصلها في ترجمة النص "خاني رابات": إن القراءة قديمة وإعادة *Rabu king; p. 222*

٥٥. *King; p. 222-24.*

٥٦. كوك، ستانلي، تاريخ العالم، مصر، ط/٢، م/١، ص/٦٩١.

٥٧. المصدر السابق، ص/٦٩٧.

٥٨. *Bezold; xxvi.*

٥٩. *Bezold; xxvi.*

٦٠. *Isid. P. xxvii.*

٦١. *Isid. P. xxvii.*

حول موضوع المصاهرة المذكور يراجع أيضاً: عبد القادر، ص/١٩٤-١٩٧.

٦٢. *Bezold; xxix*

٦٣. عبد القادر، ص/٢٠٠.

٦٤. *Perie; p. 39*

٦٥. أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم، مصر، ١٩٥٨، ص/١١٢.

٦٦. *Bezold; P. xxxii*

٦٧. *Isid; p. xxxiii*

٦٨. عبد القادر، ص/١٩١. الا أن الابحاث التالية اثبتت أنها مصرية الاصل.

٦٩. *King; pp* يراجع أيضاً: طه باقر، مقدمة، ج/٢، ص/١٩.

٧٠. *Bezold; P. xxv*

٧١. عبد القادر، ص/١٨٨

٧٢. عبد القادر، ص/١٨٨

٧٣. بدوي، ج/١، ص/٧٣٤. حول النص يراجع أيضاً، عبد القادر، ص/١٨٨

٧٤. *King; p. 225*

٧٥. يراجع أيضاً: سليم حسن، ج/٥، ص/ ٦٢٥.

٧٦. *Bezold; p. xxviii*

٧٧. بدوي، ج/١، ص/ ٧٣٥

٧٨. بدوي، ج/١، ص/ ٧٣٤

٧٩. بدوي، ج/١، ص/ ٧٣٥

٨٠. يقسم العصر الآشوري الامبراطوري إلى مرحلتين رئيستين:

١- من ٩١٠-٧٤٥ ق.م ٢- من ٧٤٥-٦١٠ ق.م

ميخائيل، نجيب، مصر والشرق الأدنى القديم، ج/٢، مصر، ١٩٦٦، ص/١٢٩.

٨١. طه باقر، ج/١، بغداد، ١٩٧٣، ص/١٦.

وحول ذكر اسم "بيت عومري" كبديل عن "إسرائيل" يراجع: سوسة، أحمد، العرب واليهود في التاريخ، بغداد ١٩٧٢، ص/٣١٣.

٨٢. طه باقر، ج/١، بغداد، ١٩٧٣، ص/١٦.

وحول ذكر اسم "بيت عومري" كبديل عن "إسرائيل" يراجع: سوسة، أحمد، العرب واليهود في التاريخ، بغداد ١٩٧٢، ص/٣١٣.

٨٣. وليد فرحان، العلاقات السياسية للدولة الآشورية، (رسالة ماجستير على الاستنسل-١٩٧٦)، ص/١٠٤.

٨٤. المصدر السابق، ص/١٠٥.

٨٥. مورت كارت، انطوان، تاريخ الشرق الادنى القديم، (تعريب توفيق سليمان) ص/٣١١-١٢.

٨٦. *Smith, George; Assyian Discovaries. London. 1895, p. 312*

٨٧. على أي حال لا يزال هناك اختلاف تحديد موقع ملوخاً الا أن معظم الباحثين يميلون إلى تحديد هذه المنطقة بما أشرنا إليه.

٨٨. فيكنيتف، فلاديمير، "تعليقات على تماثيل تاهرقة، من قصر أسرحدون في نينوى، مجلة سومر- ١٩٥٥ (ترجمة د. فرج نعيمي) ص/١٤٩-١٥٣.

وأيضاً: رسالة من سمبسن إلى د. ناجي الأصيل (حول التمثال) مجلة سومر – ١٩٥٤ ج/٢ ١٠٢. ص/٢٩٣-٩٤ طه باقر: مقدمة ج/١، ص/٥٩٣.

٨٩. *Ibid; p. 49.*

٩٠. ومع الترجمة جاء عبارة وردت حرفياً : "وذهب إلى مصير ليلة".

٩١. *Smith; p. 49.*

٩٢. *Smith; p.51*

٩٣. *Wiesman, D.J; 'Some Egyptians in Babylania' Iraq. England, 1966, part 2, vol. Xxv, p. 155.*

٩٤. *Ibid. p. 155.*

٩٥. *Smith, p.95-97.*

المصادر العربية

أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، مصر، ١٩٥٨

بدوي، أحمد، في موكب الشمس، مصر، ١٩٥٥

البزاوي، فتحية، العلاقات السياسية الدولية، مصر، ١٩٨٥

سليم حسن، مصر القديمة، القاهرة، ١٩٤٨

طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بغداد، ١٩٥٦، ج/٢، مقدمة، دار البيان/٥٣، بغداد، ١٩٧٣، ط/٢، ج/١.

عبد القادر حمزة، على هامش التاريخ المصري القديم، مصر، ١٩٤٠

الفرحان، وليد محمد، العلاقات السياسية للدولة الآشورية، (رسالة ماجستير على الاستنسل)، بغداد، ١٩٨٧

فوزي رشيد، الشرائع العراقية القديمة، بغداد، ١٩٧٩.

فيكنتيف، فلاديمير، "تعليقات على تماثيل تاهرقة من قصر أسرحدون في نينوى"، (ترجمة د. فرج بقمجي)، مجلة سومر، ١٩٥٥.

كوك، ستانلي، تاريخ العالم، مصر،

كورني، الحثيون، (سلسلة الألف كتاب)، (ترجمة عبد المنعم ماجد)، مصر.

ليفي، مارتن، الكيمياء والتكنولوجيا الكيميائية في وادي الرافدين، (ترجمة عدد من الأساتذة)، بغداد ١٩٨٠.

مورت كارت، انطوان، تاريخ الشرق الأدنى القديم، (تقريب توفيق سليمان) مصر.

نجيب ميخائيل. مصر والشرق الأدنى القديم، مصر، ١٩٦٦، ج/٣.



Aldred, Cyril; Akhenaten Pharaoh of Egypt a newstudy, Germany 1968

Bezold, c.; The Tell EL-Amarna Tablets in the British Museum, Oxford, 1892.

Breasted,, James; A History of Egypt. U.S.A. 1959.

Desroches, Christiane; Life and Death of a Pharaoh Tutankh amen, Italy, 1965.

Gordon, Cyrns; Adventures in the Near East, Britain, 1957.

King, Leonard; A History of Babylon, London, 1919.

Little. William; The Short Oxford Englis Dictionary, Britain,, 1964.

Petrie, Flinders; Syria and Egypt. From Tell EL- Amarna Letters,, New York, 1898.

Smith, George; Assyrian Discoveries, London, 1895.

Wiesman, D. J., 'Some Egyptians in Babylon'. IRAQ, England, 1966, Vol. Xxv, part-2.

الكتاب الرابع

البســــــتنة

المقدمة

تعد البستنة من عناصر الحضارة المهمة. وفي العراق قطع المواطنون شوطاً بعيداً في هذا المضمار بما تؤكده الوثائق المدونة والأدلة المادية الأخرى.

يشتمل علم البستنة على عناصر كثيرة تغطي موضوعاً بأكمله، أي بما يماثل مصطلح "علم الفلاحة" عبر الحقب العربية الإسلامية، ويمكن أن نجمل ذلك بالآتي:

زراعة الفاكهة.

زراعة محاصيل الخضروات.

زراعة الزهور ونباتات الزينة.

تخطيط الحدائق وتنسيقها.

المشاتل[1].

وسيتناول هذا البحث استعراضاً عاماً لبساتين العراق القديم والإسلامي وعناصر منتخبة تتناول التقسيم الأول من الأقسام الستة، ومراعاة التحديد في اختيار فاكهة كانت لها أهميتها في تلك العهود، إلى جانب ما تحتله من أهمية في عالمنا اليوم.

يعرف علم الفاكهة بأنه العلم الذي يبحث في "زراعة الفاكهة وطرق تكاثرها والعناية بها من حيث الري والتسميد والتقليم ومقاومة الآفات وإنتاج الأصناف الجديدة ذات المحصول الوفير والخصائص الجيدة، وإعداد الثمار للتسويق والتخزين، وهو يعد من أهم الفروع من الناحية الاقتصادية"[2]. وحينما سنستعرض المصادر الإسلامية المهمة نرى أنها تشتمل على عين ما يورده هذا التعريف من حيث الإهتمام بزراعة الفاكهة كالإنبات أو غرس الاغصان والري والتسميد والتطعيم. إلى جانب مكافحة الآفات وغير ذلك.

وقبل أن نوغل في سرد التفاصيل المتعلقة بالفاكهة نأتي إلى نقطة مهمة تخص تحول الإنسان من الاعتماد الكلي على الطبيعة في إنتاج الفاكهة إلى مغارستها كمدخل تاريخي.

بدأت الزراعة في العراق خلال الفترة المسماة بالعصر الحجري الحديث الذي بدأ قبل نحو (٩,٠٠٠) سنة، وعندما نتتبع الزراعة في هذه الفترة نرى أنها اعتمدت المحاصيل الحقلية بشكل خاص كالحنطة والشعير. وكان هذان المحصولان محور معتقداته وآماله. وتبرز أهميتهما لعدم حاجتهما إلى العناية الكثيرة والمياه. كما أن فترة إنضاجهما ليست طويلة كثيراً قياساً إلى ما تحتاجه الشجرة لتنضج. ومن ميزاتهما قدرتها على حفظ حبوبهما لفترة طويلة بعيداً عن التلف. ويصلح الدقيق المستحصل لتشكيل الكثير من وجبات الطعام عند إضافة الدهون والحليب أو الفاكهة والمواد السكرية واللحوم والخضروات وغير ذلك.

أما إذا أتينا إلى استقصاء ما زرعه الإنسان إضافة إلى الحنطة والشعير، فمن البديهي أنه اختار بذوراً أخرى تصلح للأكل بعد أمد طويل من قطافها. ومما يبدو أن المرحلة التالية كانت زراعة نباتات الخضرة للاستفادة من أوراقها وسيقانها وجذورها أحياناً. وتاتي تلك الخيارات بعد مرورها بتجارب عديدة بما يحقق فائدتها الاقتصادية ولسهولة زراعتها إلى جانب مقاومتها تقلبات الطقس.

أما أشجار الفاكهة فكما نعلم بأنها تنمو بكثافات مختلفة بحسب موارد المياه الطبيعية التي تنساب إليها والمناخ الذي تترعرع بحسبه. ومن البديهي أن عطاءها كان يغطي حاجة الناس، أول الأمر، دون التدخل في بذل جهد إضافي. وخير أمثلة على ذلك: التمور، والجوز، واللوز، والفستق، والبندق، والكستناء، والكمثرى، والأعناب.

أما تدخل الإنسان، للإكثار من عطاء أشجار الفاكهة فجاء بعد توسع المدينة وتضخم الثروة لدى أشخاص معينين إلى جانب زيادة السطوتين الدينية أو السياسية أو كلتيهما معاً، وهي أمور ساعدت على تملك أراضٍ واسعة والسعي إلى تنسيقها وزراعتها بتوفير الأيدي العاملة والمياه لها، إضافة إلى انتخاب الأصناف الجيدة وجلبها حتى من أماكن قاصية، كما سنرى عند استعراض المادة. وقد تكون الحالة الأخيرة بتوسع الفتوح العسكرية أو التجارة. إلا أن ذلك لا يعني، أن الإنسان قبل شروعه بإنشاء البساتين لم يكن يمارس زراعة أشجار الفاكهة بشكل انفرادي عند داره ليستظل بها أو في حديقته الصغيرة أو في حقل الحبوب لينعم بثمارها بشكل محدود.

إذاً كانت عملية بستنة الفاكهة عملية تالية للزراعة الحقلية. وكما سنرى من الأمثلة أن الكتابات المسمارية ميزت بين الحقل (ايكلوم) والبستان (نوكيري)[٣].

لقد احتاج التوسع في مفارسة أشجار الفاكهة إلى دراسة طباعها ومعرفة مواقعها في أماكنها الطبيعية، لذا كان ينبغي ملاحظة بيئتها الطبيعية لتحسين إنتاجها. ومن ثم فإن البساتين ليست إلا تقليداً للغابات الطبيعية. ولكي يكون النتاج وفيراً اقتضى الأمر معرفة المسافات البيئية للأشجار، وما يكون منها باسقاً أكثر من غيره أو مستظلاً بظلها. كما تطلب الأمر اختيار أنواع معينة من التربة لنوع أو صنف دون آخر، وكذا نوعية المياه المالحة منها والحلوة. وكأمور ضرورية أخرى استدعى الإكثار من مفارسة الأرض حماية القانون وتثبيت العقود للبيع والشراء والتأجير. ولتأكيد ذلك اقتضى الأمر معرفة واضحة بعلم الهندسة. ولو أتينا إلى الرياضيات البابلية القديمة لرأيناها تتحدث في الكثير من التمارين عن قضايا الحقول والبساتين، ولما كانت الأضرار التي تصيب موسماً في بساتين الفاكهة قد يعني القضاء على مجهود سنوات طوال اقتضى الأمر معرفة السبل الكفيلة بالقضاء على الآفات الزراعية. كما استدعت زيادة الإنتاج المعرفة الجيدة بسبل حفظ الفاكهة وتجفيفها والتعامل مع الأسواق المناسبة لها.

إذاً كان إنشاء البساتين مرحلة تالية لعمل الحقول لما لذلك من مبررات اقتصادية واجتماعية وسياسية. وفي هذا المجال يشير الاستاذ طه باقر إلى أن إقامة البساتين كانت منذ ٥٥٠٠ سنة، أي مطلع عصر الوركاء زمن بداية الكتابة، وإن ظهور العلامة المسمارية التي يكتب بها اسم البستان قد ظهرت منذ ذلك العهد(٤)، على الرغم من أنه لم يكن ضرورياً للحكم على كل مظهر من تاريخ الإشارة إليه تدويناً، إذ ربما يكون ذلك قبل ظهور الكتابة. ويرى الأستاذ باقر أن النخلة كانت أول شجرة غرسها الإنسان في جنوبي العراق(٥). ولكن إذا كانت الدلائل تعزز ذلك في جنوب العراق، لكونه قريباً من واحات الصحراء، حيث موطن النخيل، فإن أمر أشجار وسط العراق ربما اختلف بعض الشيء. إن الذي يدعو إلى هذا الافتراض هو أن نشوء البساتين قد يرتبط بالغابات الطبيعية. ومن ثم فإن غرس الأشجار قد يكون محاولة لتقليدها. كما أنه من الأمور المنطقية أن لا تكون المناطق غير الجبلية جرداء، إذ لربما جرفت المياه سيقان الأشجار وبذورها أو حملها الحيوان بين شعره وصوفه أو بواسطة الهواء لتنبت في مكان آخر. ولنأخذ شجرة اليوكاليبتوس، على سبيل المثال، ونقارنها بالحبة الصغيرة جداً التي نمت منها. لذا فإن البستنة قد تكون تحسين ما هو موجود في الطبيعة أصلاً من أشجار

ثم يتدخل الإنسان لقطع الزائد وزراعة نسبة أكبر منها حينما تكون الكثافة قليلة في بعض الأماكن. وقد يتبع ذلك إدخال الشتلات بين الأشجار الكبيرة التي تعيش في ظلالها، وجلب ما لم يكن موجوداً بالأصل من الأنواع الجديدة، سيما وأن مغامرات التجار والجوالين قد تجلب معها الحبوب والأغصان لغرسها. وعلى أي حال كانت التجارة واضحة منذ زمن ما قبل الكتابة، ومن ثم فإن نقل نباتات معينة من هذا المكان إلى ذاك يمكن أن يعود إلى زمن أقدم فهل كانت البساتين تقليداً لغابات الشمال أو أماكن أخرى خارج القطر أم أنها جاءت تدريجياً كمراحل لا علاقة لها بالغابات؟ أم أن كلا من الأمرين أخذ طريقه في نشوء بساتين العراق؟

الهوامش

عبدول، كريم صالح (و) النجار، سعد زغلول، مبادئ علم البستنة، مطبعة جامعة الموصل، ١٩٨٤، ص/١٥.

المصدر السابق، ص/١٥.

طه باقر، البستنة والبساتين في العراق القديم، مجلة الزراعة العراقية بغداد ١٩٥٣ العدد-٧، ص/٣١١-٣١٢

طه باقر، ذات المصدر السابق. ص/١٥

البستنة في العراق القديم
نماذج من بساتين العراق القديم

إن استعراض نماذج لبساتين العراق القديم يفيدنا في معرفة آفاق الأهتمام بها سواء كان ذلك من الأفراد الموسرين أو من الدولة والمعبد مادام البستان دليل الثروة الثابتة تقريباً.

تؤكد المصادر السومرية التي وصلتنا من عصور فجر السلالات وكذلك من العصر الأكادي والبابلي القديم الأهمية الكبيرة للبساتين. أما الوثائق الآشورية من العصرين القديم والوسيط وكذا الأمبراطوري فتمدنا بمادة إحصائية عن البساتين، من ذلك بساتين سنجار التي كان واحد منها يضم (٢٤) ألف شجرة مثمرة. ولم تكن الثمار المحصول الوحيد من البساتين، بل كانت نباتات الورود من النباتات المهمة التي زرعت فيها، فقد كانت تقدم إلى مزارات المعابد "وكثيراً ما كانوا يزينون الولائم والاحتفالات الخاصة بالأزهار والأوراد"[١].

ومن العصر الآشوري الوسيط أشارت أخبار الملك تجلا تبليزر (١١١٥-١٠٩٣ ق.م) أنه غرس في حدائقه أشجاراً ونباتات "مما لم يعرفه آباؤه وأجداده من الملوك السابقين كشجر الأرز والبن والسنديان"[٢].

ومن العصر الآشوري الوسيط أيضاً جاءتنا نصوص مسمارية من "نوزي" في محافظة التأميم أشارت إلى أن الأمير شلوا تيشوب كانت له أملاك واسعة "وإن مقاطعته الزراعية كانت تضم الكروم والبساتين والحقول والمئات من الماشية والأغنام"[٣]. أما غوريازه، أخو مات تيشوب، من نوزي أيضاً فقد أقدم "على مقايضة هذا البستان، الذي يقع على مقربة من أرض تعود إلى "تبكي بلا" وأخرى إلى مات تيشوب "بأرض مجاورة لأرض أبيه كانت تعود إلى خمسة أخوة من عائلة أخرى"[٤].

أما من النصف الأول من العصر الآشوري الامبراطوري فقد وصلتنا وثيقة مهمة سرد فيها العاهل الآشوري آشور ناصربال (٨٨٣-٨٥٩ ق.م) معلومات كثيرة منها ما يخص البساتين والحدائق التي أقامها. وتتمثل الوثيقة بمسلة حجرية كانت موضوعة عند أحد مداخل قصره، وجدت سنة ١٩٥١، وهي معروضة اليوم في متحف الموصل، لقد سرد الملك وصف احتفال تدشين قصره الذي تم سنة ٨٧٩ ق.م في عاصمته "كالخو" (نمرود حالياً). ومما قاله الملك:

"لقد جعلت كالخو جديدة، وغيرت مرتفعها القديم (أي المصطبة المشيدة)، وحفرت في الأعماق إلى مستوى (ظهور) الماء. ومن هذا المستوى عملت (١٢٠) صفاً إلى الأعلى كقاعدة"(٥). وعن أحد منجزاته المهمة قال:

"لقد حفرت قناة من الزاب عبر الجبال، وأسميتها باتي-خيكاللي (أي قناة الرخاء أو الخصوبة). ورويت المروج بمياه دجلة، وزرعت الحدائق في هذه المنطقة، وزرعت جميع أنواع الفاكهة والكروم، وقدمت الأحسن منها إلى آشور، إلهي والي معابد الأراضي التابعة لي (وجلبت) من الأراضي التي تجولت فيها والجبال التي مررت بها الأشجار والبذور التي رأيت"(٦). ثم عدد الملك اثنين وأربعين نوعاً وصنفاً من الأشجار والشجيرات التي غرسها مثل السرو والصنوبر والفستق والرمان والزيتون والسفرجل والإجاص وأنواع الكروم والتين مثل "تين الأشخوناتو" و"تين سيكامو". وجلب ثماراً لا نعرفها أيضاً مثل "ثمرة البحر الميت".

أما من النصف الثاني للفترة الآشورية الامبراطورية فيمثل ما ذكره الملك سنحاريب (٦٨١-٦٦٩ ق.م) مادة مهمة عن الحدائق والبساتين ومما هو معروف به القناة الكبيرة التي جلب عبرها عذب المياه على مسافة (٥٠) ميلاً من نينوى الأمر الذي مكّنه من الاهتمام بحدائقه وبساتينه. إلا أن أعماله الزراعية لم تقتصر على العاصمة نينوى بل أشار إلى إقامته لمعبد خاص بعيد رأس السنة خارج مدينة آشور "وهو معبد خاص أهم ما يمتاز به غرسه الأزهار والأوراد والأشجار الجميلة في ساحته وفي خارجه للاحتفال بعيد رأس السنة"(٧). وقد قدرت المساحة الخاصة لزراعة الزهور بنحو (١٦٠٠) متر مربع.

أما الملك آشور بانيبال، الذي تلا سنحاريب (٦٦٨-٦٢٦ ق.م) فقد اشتهر بمكتبته التي ضمت آلافاً من الرُقُم الطينية حوت معلومات علمية مختلفة. ومما أشار إليه الملك في

مدوناته أمره بجمع أنواع كثيرة من الأشجار والنباتات لكي تزرع في حدائق قصره قرب العاصمة نينوى. وإضافة إلى ذلك توجد إشارة مهمة إلى تشييده البساتين على ربى صناعية[٨].

وبعد أن انتهت الحقبة الآشورية أخذت بابل زمام السيطرة على الأمور وتاسست امبراطورية بابل تنامت بشكل تحدثت عنه آلاف الكتب المؤلفة وخاصة ما وصلت إليه من رقي زمن عاهل بابل الكبير نبوخذ نصر. وعلى أي حال، يخصنا في هذه الحقبة ماله علاقة بأمور البساتين وخاصة الحدائق الغناء التي شادها في بابل، وأمست إحدى عجائب الدنيا السبع. أما كلمة "الجنائن المعلقة" فيبدو أنها مترجمة عن اللاتينية من كلمة "بينسلس" وجمعها "بينسليا" بمعنى الشرفات (البالقونات)[٩].

كانت حدائق بابل المعلقة موضوعاً للكثير من الباحثين منهم المؤرخ البابلي بيرعوثا (بيروسوس حسب المصادر اليونانية) -من القرن الثالث ق.م- الذي لم يبق من مؤلفه إلا ما نقله اليونان عنه. ومن المؤرخين الشرقيين الذين ذكروا الجنائن جوزيفوس (يوسيفوس). أما المؤرخون اليونان الذين ذكروا هذا الصرح فمنهم "قتياس"، "ديرور الصقلي"، "سترابو"، "كورتيوس روفس" وغيرهم[١٠]. أما الطبيب قتياس (أو كتيزياس) فقد تحدث عن الجنائن قائلاً:

"لم تكن الحديقة المعلقة لسميرامس[١١]، بل لملك متخلف عنها... ولهذا الحديقة أربعة جوانب، وكان يصعد عليها بسلم على السطوح المرتكز بعضها على بعض بشكل مدرج كبير، وهذه السطوح الشاهقة تقوم على أعمدة تعلو تدريجياً لتدعم الجنائن... وهناك عمود واحد من هذه الأعمدة مجوف من داخله يحتوي على أجهزة آلات مائية وترتفع كمية كبيرة من مياه النهر، إلى هذه الجنائن لسقيها دون أن يبصرها الرائي من الخارج[١٢]".

أما المؤرخ سترابو فقال:

"تعد الحديقة المعلقة من عجائب الدنيا السبع، وهي ذات شكل مربع تتألف من عدة سطوح يرتفع بعضها فوق بعض مرتكزة على دعائم مكعبة مجوفة لاستيعاب جذور أكبر الأشجار... وهذه الدعائم مثل أرضية السطوح والأقبية والعقود، مصنوعة من القرميد المشوي (الطابوق) والمطلي بالأسفلت... هذه السطوح أشجار قوية ضخمة

تبلغ سماكة جذوعها ثمانية أذرع بارتفاع خمسين قدماً. وهي تحمل من الثمار بقدر ما تعطيه في تربتها الطبيعية"[١٣].

لم تكن مادة جنائن نبوخذ نصر غريبة عن أقلام الكتاب العرب فقد وصفها "المويلحي"[١٤] في كتابه "عيسى بن هشام" قائلاً:

"شيدت بالبناء على أشكال الجبال، وعقدت فيها القباب على أعمدة وأساطين أخر تحدها، وملؤوها بالطين وغرسوا فيها أشجاراً تتساب جذورها في أصولها وتورق في رؤوسها، ووضعوا فيها الدرج يصعد منها الصاعد إلى مثل رؤوس الجبال حيث تثمر الأثمار وتزهر الأزهار، وتعشب الأعشاب، وتدور الدواليب". وقال:

"أما طريقة هذه الجنائن المرتفعة فكانت برفع الماء من مجرى نهر الفرات إلى الطبقات العليا منها حيث يخزن في صهاريج ويستخدم عند الحاجة إليه. وكانت العقود مسقوفة بالإسفلت وفوقها طبقة من الرصاص لمنع تسرب الماء إلى البناء فلا يتأثر بالرطوبة. وكانت الأقبية التي تحت العقود تحتوي على حجرات وطلعات مزينة ومزخرفة بأحسن ما وصل إليه الفن الهندسي في بابل ونينوى"[١٥].

البستنة والنظام في العراق القديم

يمدنا استعراض مواد الأنظمة أو القوانين العراقية القديمة بمادة مهمة عن البستنة للفترات التي اتت منها تلك النصوص إلا أن مما يؤسف له أن معظم ما وصل إلينا من مواد يعود إلى العصر البابلي القديم (٤٠٠٠-٣٥٠٠ سنة مضت).

من القوانين التي عالجت مادة البساتين قانون لبت عشتار خامس ملوك سلالة إيسن (١٩٣٤-١٩٢٤ ق.م) الذي دوّن بالسومرية لا البابلية. وقد وجد الرقيم في مدينة نُفر، وعلى الرغم من أهميته فقد جاء ناقصاً. ومع ذلك فإن ما بقي منه يساعد على فهم جانب خاص بالبساتين فتشير المادة السابقة إلى مشاركة رجل لفلاح في بستانه، إلا أنها ناقصة، ويختتم بعبارة "وسوف يأكل (أي الفلاح) ثمره معه (أي مع صاحب البستان)"[١٦]. وتشير المادة التاسعة إلى أن من يسرق ممتلكات بستان لا تعود له فإنه يدفع عشرة شيقلات من الفضة. في حين ترينا المادة التالية أهمية الشجرة في نظر قدامى العراقيين إذ يحتم دفع غرامة مقدارها نصف المنا من الفضة، أي نحو (٢٥٠ غ)، وهي غرامة كبيرة، على كل من يقطع شجرة من بستان شخص آخر[١٧].

أما قانون مملكة اشنونا، الذي وجد في بغداد الجديدة، وسبق قانون حمورابي بأكثر من قرن، فلا يعالج أمور البساتين وهذا الأمر يذكرنا بشريعة اورنمو، مؤسس السلالة السورية الحديثة، وهي أقدم الشرائع المكتشفة. إلا أن قانون اشنونا عالج تسعير المواد وأجور النقل، وما يتعلق بالحقول الاعتيادية دون البساتين، إلى جانب الأحوال الشخصية التي سطرت في (٦١) مادة.

أما مسلة حمورابي المعروفة فقد تناولت (٢٠) مادة تخص البساتين منها إحدى عشرة مادة تخص تملك جندي أو سماك للبساتين وموقف القانون منهما عند اداء الخدمة العسكرية وما يتبعها من حالات كالأسر والتغيب وحقوقه في المغارسة بعد انتهاء الخدمة[١٨]. أما المادة (٥٩) فهي تماثل المادة (١٠) في قانون لبت عشتار في التعويض بنصف مانا عند قطع شجرة من بستان. أما المادة (٦٠) فتنص على:

"إذا أعطى رجل حقلاً لبستاني ليحوله إلى بستان، وزرع البستاني البستان، فعليه أن يرعى (ينمي أشجار) البستان لمدة أربع سنوات، وفي السنة الخامسة يقوم صاحب البستان باقتسام (محصول البستان) بالتساوي، ولصاحب البستان أن يختار (بنفسه) نصيبه"[١٩]. وتتلخص أهمية هذه المادة في أن المشرع العراقي حسب الفترة التي يمكن عندها نضج الفاكهة بأربع سنوات. إلا أن المادة التالية تحتم على البستاني زراعة الحقل كله وإلا احتسب ما بقي بوراً منها من حصته. في حين تشير المادة التالية إلى تعويض صاحب الحقل بقدر الحقل المجاور له عند الأهمال وعدم ممارسة الزراعة فيه. أما المادة (٦٤) فتتعلق بتلقيح الأشجار (ويقصد بذلك النخيل) وإن الشخص الذي يقوم بهذه العملية يجب أن يتقاضى ثلثاً والباقي من حصة صاحب البستان. إلا أن قانون حمورابي عالج أمر إهمال التلقيح إذ في هذه الحالة ينبغي دفع ما يعادل دخل البستان المجاور لمالك البستان. أما المادة (١٧٨) فهي طريفة بمحتواها وتخص حصة كاهنة الإينتوم أو الناديتوم أو إحدى حريم القصر في ممتلكات، وفي حالة عدم إنصافها تشير المادة: "فإذا لم يعطها أخوتها طعاماً وزيتاً وملابس بقدر حصتها، ولم يرضوها (فيحق) لها أن تعطي حقلها وبستانها إلى (أي) مزارع ترتضيه، وعلى مزارعها إعالتها، ولها التمتع بالحقل والبستان أو أي شيء أعطاه والدها إياها طيلة حياتها"[٢٠]. أما المادة (١٩١) فتشير إلى أن الرجل الذي يتبنى طفلاً ثم تخلى عن تبنيه له فيعطى ثلث ميراثه من أموال الرجل باستثناء الحقول والبساتين أو البيت[٢١].

الهوامش

١. طه باقر، البستنة والبساتين في العراق القديم، مجلة الزراعة العراقية، بغداد، ١٩٥٣، العدد/٨، ج/٢، ص/٣١٦

٢. طه باقر، المصدر السابق، ص/٣١٧

٣. يانو فسكا، في: العراق القديم -دراسة تحليلية لأحواله الاقتصادية والاجتماعية (تأليف مجموعة من العلماء السوفييت). (ترجمة سليم التكريتي) وزارة الإعلام، بغداد، (الكتب المترجمة/٢٨)، ١٩٧٦، ص/٣٦٣.

٤. يانو فسكا، ذات المصدر السابق، ص/٣٧١

٥. *Wiseman, A NEW STELA OF ASSUR – NASIR – PAL II " IRAQ, Part I, 1952, XIV, P,30.*

٦. *Wiseman, Ibid ,p.30*

٧. طه باقر، ذات المصدر السابق، ص/٣١٧

٨. طه باقر، ذات المصدر السابق، ص/ ٣١٩.

٩. طه باقر، ذات المصدر السابق، ص/٣١٩، حاشية /٢٨.

١٠. طه باقر، المصدر السابق، ص/٣١٩. حاشية/٢٧

١١. يرد الاسم "سميراميس" كثيراً في النصوص اليونانية للإشارة إليها كـ ملكة بابلية والاسم محرف عن البابلية "شمورامات" أي "الحمامة المحبوبة" وكانت هذه الملكة البابلية زوجة للملك الآشوري شلمنصر الخامس، الذي تولت العرش بعد وفاته لأن ابنها "ادد نيراري الثالث" كان صغيراً آنذاك، وقد امتزج اسم هذه الملكة بالكثير من الخرافات والاساطير.

١٢. ابو النصر، عادل: تاريخ الزراعة القديمة، بيروت/ ١٩٦٠، ص/١١٢.

١٣. ابو النصر، المصدر السابق، ص/١١٧

١٤. المويلحي: هو محمد بن ابراهيم /١٨٦٨-١٩٣٠/ أديب وصحافي مصري، ويعد "حديث عيسى بن هشام، أشهر أعماله: المنجد في اللغة والإعلام، الطبعة /٢٦. بيروت/٦٩٧.

١٥. أبو النصر/ المصدر السابق، ص/١١٣.

١٦. فوزي رشيد، الشرائع العراقية القديمة، (سلسلة الدراسات/١٨٨) وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٧٩، ص/٥٩

١٧. فوزي: المصدر السابق، ص/٦٠

١٨. فوزي: المصدر السابق، ص/١٢٣-١٢٥

٢٠. فوزي: المصدر السابق، ص/١٢٩

٢١. فوزي: المصدر السابق،ص/١٥٠-١٥١

فوزي: المصدر السابق،ص/١٥٤

الحقبة العربية الإسلامية

الزراعة خلال الحقبة العربية الإسلامية في العراق

دخل العرب المسلمون إلى العراق مصلحين، شأنهم في أماكن أخرى فتحوها، لذا فقد اهتموا بأمور الإدارة والزراعة والصناعة بشكل لا يحتاج إلى تعليق. ومن الجلي أن مجهودات الأقدمين كانت منطلقاً يضاف إلى همة العرب والمسلمين في عمليات الإصلاح المختلفة. وتدخل ضمن تلك الحقبة العربية قبل الإسلام إذ أشرف العرب على معطيات إيجابية في حقول الزراعة. فمدينة الحضر مثلاً كانت تسيطر على أرجاء من العراق شملت سنجار والخابور شمالاً، وإلى مناطق شمال بغداد. ومن الواضح أن هذه الأماكن كانت تكتنفها الحقول والبساتين، وقد أشارت إليها سابقاً المصادر الآشورية، أما مدينة الحيرة فقد نشأت وسط مناطق مليئة بالبساتين.

قبل أن نوغل في عرض شؤون البستنة في العراق لا بد من الإشارة إلى تقسيم الأقدمين للأرض إلى سبعة أقاليم. ومن العصر البابلي الحديث وصلتنا خريطة مثلث الأرض مستديرة وكان موقع مدينة بابل في مركزها. وحسب هذا التصور رسمت خرائط أخرى في الفترات التالية. ولنأتِ على سبيل المثال إلى ما قاله الحافظ البغدادي (ت-٤٦٣هـ):

"ذكر علماء الأوائل أن أقاليم الأرض سبعة، وإن الهند رسمتها فجعلت صفة الأقاليم كأنها حلقة مستديرة تكتنفها ست دوائر على هذه الصفة المحدقة بالدائرة الوسطى هي إقليم بابل، والدوائر الست المحدقة بالدائرة الوسطى. فالإقليم الأول منها إقليم بلاد الهند، والإقليم الثاني إقليم الحجاز، والإقليم الثالث إقليم مصر، والإقليم الرابع إقليم بابل وهو الممثل بالدائرة الوسطى التي اكتنفتها سائر الدوائر، وهو أوسط الأقاليم وأعمرها وفيه جزيرة العرب وفيه العراق الذي هو سرّة الدنيا"[1].

كان لتقسيم الأرض إلى أقاليم أهمية كبيرة في تصنيف النباتات حسب بيئتها، فلو اتينا إلى كتاب "الفلاحة النبطية" لأبي بكر بن وحشية نراه يقول فيما سطره من نبات:

"والذي أذكره في هذا الكتاب من الفلاحة للشجر والنبات كله هو ما كان موافقاً لإقليم بابل خاصة ولما أشبه مزاجه مزاج إقليم بابل من الأقاليم والبلدان"(٢).

لقد سرى مبدأ تقسيم العالم إلى الأقاليم المذكورة في جميع أرجاء العالمين العربي والإسلامي، فـ ابن بصّال في فلاحته يشير إلى الإقليم الرابع ويقول: "هذا الإقليم أفضل الأقاليم وأعدلها، تجود فيه جميع الشجر ويستوي في أعمارها، وكل شجرة تركب تلتئم ولا تنفصل إذا كانت من الشجر الذي يتركب بعضه مع بعض لتناسبه"(٣).

البستنة ومصادرها في الفكر العربي الإسلامي

تمثل البستنة جانباً مهماً في علم الفلاحة الذي وضع فيه العرب مؤلفات عديدة لم يصلنا بعضها. ويشتمل هذا العلم على كل ما له صلة بالحقول والبساتين على حد سواء، إلا أن المصادر المذكورة قامت بتصنيف الأشجار حسبما هو مألوف لديهم. وإذا ما أتينا إلى تعريف علم الفلاحة فقد قال فيه محمد بن إبراهيم الأنصاري المعروف بابن الاكفاني (ت-٧٤٩هـ):

"علم يتعرف منه كيفية تدبير النبات من بدء كونه إلى تمام نشوئه. وهذا التدبير هو بإصلاح الأرض بالماء وبما يخلخلها ويحميها من المعفنات كالسماد ونحوه، مع مراعاة الأهوية"(٤).

ومما تحدثت عنه المصادر العربية أصول النباتات وتدجينها حينما كانت برية، وقد عالج أحمد الكلداني الملقب بابن وحشية هذا الأمر قائلاً:

"إن جميع ما اتخذه الناس في بساتينهم وضياعهم من الشجر والبقول والرياحين والأزهار كلها أصلها من البراري، ومما ينبت لنفسه، والناس جلبوه من منابته واتخذوه وأفلحوه وتعاهدوه، فأفلح عندهم... فكل شيء يزرعه الناس أو يغرسونه أصله مجلوب من البر، أما بزروع أو أصول أو قضبان غُرست"(٥).

أما فيما يخص تقسيم النباتات فترتئي المصادر الحديثة تقسيمه عند الدراسة

بموجب ثلاثة تقسيمات:

التقسيم النباتي.

التقسيم البيئي.

التقسيم الزراعي.

وإذا ما اتينا إلى ابن وحشية نراه يقول في التقسيم:

"وقد تتقسم المنابت كلها صغارها وكبارها وبقولها وشجرها اقساماً من وجوه كثيرة أحدها من جهة الأماكن، ومعنى الأماكن هو: البرُّ والبساتين، فهذان يختلف فيهما خدر الشجر والمنابت الصغار اختلافاً قريباً غير بعيد، وتختلف في المقادير من جهة الصغر والكبر، وتختلف في الطباع والفعل من جهة غلبة الحر والبرد والرطوبة واليبس مختلف أفعالها"(٦). وقال ابن وحشية في الشجر:

"الشجر جنس لأنواع كثيرة وهو مختلف اختلافاً كثيراً في القدود والكبر والصغر والطباع والقوى"(٧).

وعلى أي حال سوف نحصر ما نختاره من البستنة في أنواع معينة من أشجار الفاكهة. وقبل أن نأتي إلى نقاط أخرى أشير إلى قول ابن سيده:

"اختلف في الفاكهة فقيل كل الثمار فاكهة، وقيل لا يسمى ما كان من الثمر والعنب والرمان فاكهة، واحتج بقوله تعالى: "فيها فاكهة ونخل ورمان" فقيل لو كان النخل والرمان نوعين من الفاكهة لما خُصا من سائر أنواعها، وليس هذا بحجة لأن العرب تفعل مثل هذا تأكيداً. وفي التنزيل "أولئك لهم رزق معلوم فواكه وهم مكرمون"(٨).

أما المصادر العربية التي بحثت في النبات فكثيرة وقد ارتأى بعض الباحثين تقسيمها إلى أربعة اصناف:

١. الكتب التي تغلب عليها الناحية اللغوية(٩).

٢. الكتب التي تتناول وصف النباتات الطبية وخصائصها وفوائدها للمعالجات الطبية وهي كتب العقاقير والمفردات الطبية(١٠).

٣. الكتب التي تتناول النباتات من حيث زراعتها وتكثيرها(١١).

٤. ما دونه العرب في رحلاتهم عن النبات.

إلا أننا يمكن أن نضيف كتب الفهارس مثل فهرست ابن النديم[١٢] ومصباح السعادة لطاش كبري زاده وكشف الظنون للحاج خليفة، حيث تمدنا بقائمة بأسماء الكتب التي ألفت في الموضوع وربما بموجز عن مؤلفيها.

ولنأخذ على سبيل المثال أحد المراجع الأدبية ونقتبس منها أسس تقسيم ماله صلة بموضوعنا عن الفاكهة في "نهاية الأرب في فنون الأدب" للنويري نراه في القسم الثاني من الفن الرابع يتحدث عن الأشجار في ثلاثة أبواب:

الأول: فيما لثمره قشر لا يؤكل.

الثاني: فيما لثمره نوى لا يؤكل.

الثالث: فيما ليس لثمره قشر ولا نوى —وهو ثمانية أصناف.

ثم يأتي في القسم الثالث ليتحدث عن "الفواكه المشمومة"[١٣].

ويعني بها أنواع الأزهار.

إن تقسيم النويري للنبات نراه أيضاً في عبارات عامة عرضها ابن وحشية في كتابه حينما عرض إلى موضوع "ذكر الشجرة المثمرة التي يسمى الناس ثمارها فاكهة طرية ويابسة". قال:

"هذا الشجر ضروب، وحملها كهيئتها ألوان وضروب، فمنها ما له نوى كثمرة الخوخ والزيتون والنخل، وما أشبهها، ومنها ما لا نوى له مثل التين والتفاح والتوت وما أشبهها. ومنها ما له قشور قد ألحق به مثل الرمان والجوز واللوز والموز وما أشبههما. ومنها ما لا نوى فيه ولا حب مثل الموز وحب الصنوبر وما أشبههما"[١٤].

وهكذا يمكن أن تفيدنا المراجع العربية في تفهم الأساليب التي اتبعوها في تصنيف النباتات، سيما وإن المختصين في أمور النبات لم يتوصلوا إلى طريقة مثالية وموحدة للتصنيف، إذ لكل طريقته من يعترض عليها ونواقصها وفوائدها.

نماذج من بساتين العراق

العصر الإسلامي

نستنبط من الإشارات التي لا تحصى إلى الحدائق والبساتين في العراق خلال العصور الإسلامية أن العراق كان على مستوى مرموق من الاهتمام بشؤونها. وتشير الاحصائيات الواردة في كتب الخراج إلى أن ملايين الدراهم كانت تجبى، وهي دليل التطور الزراعي ولا سيما خلال العصر العباسي. وربما لا نجد وصفاً أفضل مما ذكره أبو عبد الله بن الفقيه الهمداني في كتابه "البلدان" نبتدي به، قال:

"ومما بـ بغداد من سائر الفواكه والثمار وغرائب النخل والأشجار فظن ما شئت أن تظنه وعد ما شئت أن تعده تجده موجوداً غير مفقود، وقريباً غير بعيد.

زعم مهروية باغبان السلطان أنه يعرف بمدينة السلام نيفاً وسبعين نوعاً من التفاح، ثم عدها فتبسم أخوه شهريار، ثم قال: وكذا وكذا زيادة على ما قاله أخوه أربع مائة نوع وتسعة أنواع وما ظنك ببلد مع جميع ما فيه من غرائب الأشجار وأجناس النخيل والبقول والمزارع والثمار ينبت الاترج والنارنج كما ينبت الزعفران والأقحوان، وكما ينبت الفستق واللوز والزعرور والموز والشاهبلوط والجوز والسدر والحبة الخضراء والتفاح والفندق والبلوط... "[١٥].

ويقول ابن حوقل عن بغداد في صورة الأرض:

"فأما الأشجار والأنهار التي في كل الجانب الشرقي ودار الخلافة، فإنها من ماء النهروان وتامرا، وليس يرفع إليها من دجلة إلا شيء يقصر عن العبارة... وبين بغداد والكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترقه إليه أنهار بين الفرات، فأولها مما يلي نهر صرصر، عليه مدينة صرصر تجري فيه السفن، وعليه جسر من مراكب يعبر عليه ومدينة صرصر عامرة بالنخيل والزروع وسائر الثمار صغيرة. من بغداد على ثلاثة فراسخ"[١٦].

وإذا أتينا إلى الحديث عن البساتين العراقية زمن الفتح الإسلامي والعصر العباسي خاصة، نرى أن الأمثلة كثيرة، إلا أنها قد تكون مختصرة وليس فيما يكتب عنها تفاصيل واضحة.

من البساتين المعروفة في صدر العصر العباسي بستان أبي جعفر المنصور بالجسر ببغداد[١٧] وبستان موسى الهادي ببغداد أيضاً، كما أنشأ الخليفة المعتصم البساتين في الجانب الغربي من دجلة، إضافة إلى بستان الزبيدية والناعورة زمن المقتدر. كما أوقف الخليفة المستنصر بالله البساتين الواسعة على مدرسته ببغداد[١٨]. وعلى الرغم من الاشارات العابرة التي وردت عن بستان المنصور إلا أن الطبري يذكرها ضمن حديثه في حوادث (١٩٢ هـ) عن هرون الرشيد قوله: "ثم شخص من مدينة السلام عشية الاثنين لخمسٍ خلون من شعبان بعد القصر، من الخيزرانية، نبات في بستان أبي جعفر..."[١٩]. وتحدث أيضاً عن بستان آخر ضمن حوادث (١٥٨هـ) قال:

"والقاسم، مات قبل المنصور، وهو ابن عشرين سنة، وأمه أم ولد تعرف بأم القاسم، ولها بباب الشام بستان يعرف إلى اليوم ببستان أم القاسم"[٢٠]. وضمن حوادث (١٨٨هـ) ذكر بستان مؤنسة بـ بغداد[٢١]. وأشار إلى بستان آخر قوله بأن المأمون "لم يزل مقيماً ببغداد في الرصافة حتى بنى منازل على شط دجلة عند قصره الأول، وفي بستان موسى". وضمن حوادث (١٩٨هـ) قال: "وذكر عن محمد بن اسماعيل، عن حفص بن ارمياثيل، أن محمداً لما أراد أن يعبر من الدار بالفرار إلى منزل كان في بستان موسى، وكان له جسر في ذلك الموضع، أمر أن يفرش في ذلك المجلس ويطيب"[٢٢].

ولنأخذ بعض الأمثلة الأخرى على بساتين بغداد[٢٣] فقد أشارت المصادر إلى أن الخليفة القاهر (٣٢٠-٣٢٢هـ) كانت "لذته في الدنيا بستانه الكبير ببغداد، الذي غُرس فيه النارنج، وحُمل إليه من البصرة وعُمان فنون منه"[٢٤]، قد أشكبت أشجاره ولاحت ثماره كالنجوم، وعُرف ببستان النارنج، وبين ذلك أنواع الغروس والرياحين والزهر. وقد جعل في صحن القصر أنواع الأطيار، مما جُلب إليه من الممالك والأمصار. فكان في ذلك في غاية الحسن"[٢٥] وتشير المصادر إلى بستان محيط بجوسق قصر الخليفة المقتدر بالله، ببغداد نحو أربعمائة نخلة، طول كل واحدة خمسة أذرع، قد ألبس جميعها ساجاً منقوشاً، من أصلها إلى حد الجمارة، بحلق من شبه مذهبة[٢٦]. وتحدث ياقوت الحموي عن "دار الشجرة" للمقتدر ببغداد وقال بأنها "فسيحة ذات بساتين مؤنقة"[٢٧]. وقيل أن الوزير حامد بن العباس أهدى إلى المقتدر في سنة (٣٠٩هـ) "البستان المعروف بالناعورة، بناه له، وانفق على بنائه مائة الف دينار، علق على المجالس التي فيه

الستائر وفرشه باللبود الخرسانية، ثم اهداه"[٢٨]. وجاء في نص ابن عقيل على باب الطاق ببغداد قوله: "أما شوارعها: فشارع مما يلي دجلة، من أحد جانبيه قصور على دجلة، طراز ممتد من عند الجسر إلى أوائل الزاهر وهو بستان نحو مائتي جريب، ونظير هذا من الجانب الغربي الكرخ وشاطئه: قصور منتظمة ذوات دواليب وبساتين"[٢٩].

وجاء في خطط بغداد: "حدثني القاضي أبو القاسم علي بن الحسن التنوخي: ثم فكر (أي عضد الدولة) في أن يجعل شرب البستان من دواليب ينصبها على دجلة، وعلم أن الدواليب لا تكفي، فأخرج المهندسين إلى الأنهار التي في ظاهر الجانب الشرقي من مدينة السلام، ليستخرجوا منها نهراً يسيح ماؤه إلى داره، فلم يجدوا ما أرادوه إلا في نهر الخالص فعلى الأرض بين البلد وبينه تعلية أمكن معها أن يجري الماء على قدر من غير أن يحدث به ضرر. وعمل تلين محيطين يساويان سطح ماء الخالص، ويرتفعان من أرض الصحراء أذرعاً، وشق في وسطها نهراً جعل له خورين من جانبيه. وداس الجميع بالفيلة دوساً كثيراً، حتى قوي واشتد وصلُب وتلبد، فلما بلغ إلى منازل البلد، وأراد سوق النهر إلى داره، عمد إلى درب السلسلة فدك أرضه دكاً قوياً، ورفع أبواب الدور وأرتقها وبنى جوانب النهر.

قال أبي (أي والد القاضي التنوخي):

"وبلغت النفقة على عمل البستان وسوق الماء إليه على ما سمعته من حواشي عضد الدولة خمسة آلاف درهم، ولعله قد أنفق على أبنية الدار على ما أظن مثل ذلك"[٣٠].

وكان عضد الدولة عازماً على أن يهدم الدور التي بين داره وبين الزاهر، ويصل الدار بالزاهر فمات قبل ذلك[٣١]، وقد سبقت الإشارة إليه.

لم يكن أمر البساتين يقتصر على بغداد نفسها بل المناطق المحيطة بها وأماكن أخرى في القطر. يقول ابن حوقل في النهروان[٣٢]: "والنهروان مدينة يشقها نهر النهروان بنصفين في وسطها، وهي صغيرة عامرة، من بغداد على أربعة فراسخ، كثيرة الغلات والخيرات والنخيل والكروم والسمسم خاصة ونهرها يفضي إلى سواد بغداد أسفل من دار السلطان إلى الإسكان وغيرها من المدن والقرى، فإذا جزرت النهروان إلى الدسكرة إلى حد حلوان خفت المياه والنخيل، وإن كانت من الدسكرة إلى حلوان فالبادية منقطعة العمارة منفردة المنازل والقرى حتى تفضي إلى نهر تامرا وحدود شهرزور

إلى تكريب"[٣٤] وعلى بلد –إلى الشمال من بغداد- قال: "وكان لبلد في ظاهرها بين غربها وشمالها مكان يعرف بالاوسل: متنزه كثير الشجر والثمر والخضر والفواكه والكروم"[٣٥]. وقال الحميري في "الروض المعطار" عن الأنبار: "بينها وبين بغداد ثلاثة عشر فرسخاً، وهي مدينة صغيرة متحضرة لها سوق وقلعة وفواكه كثيرة، وهي على رأس نهر عيسى"[٣٦]. أما سامراء فقد كانت عاصمة العالم الإسلامي بعد بغداد، وقد كانت محل أقلام كثيرة ووصف مسهب. قال الحميري:

"وصل النخيل من بغداد والبصرة وسائر النواحي، وحملت الغروس من الجزيرة والشام والجبل والري وخراسان وسائر البلدان وكثرت المياه في هذه العمارات في الجانب الشرقي بسر من رأى، وصلح النخل ونبتت الأشجار وزكت الثمار وحَسُن الريحان والبقل، وزع الناس أصناف البقل والزروع والرياحين فزكا كل ما زرع فيها وغرس لحمام الأرض، حتى بلغ مستغل العمارة بالنهر الاسحاقي والعمري والعربات المحدثة وخراج الجنات والبساتين مائة ألف دينار في السنة، واقدم المعتصم في كل بلد من يعمل عملا ومن مهن العمارة والزرع والنخيل والغروس وهندسة الماء ووزنه واستنباطه"[٣٧]. ومثل هذا قاله اليعقوبي في "البلدان": "لما فرغ من الخطط (أي المعتصم) ووضع الأساس للبناء في الجانب الشرقي من دجلة، وهو جانب سر من رأى، عقد جسراً إلى الجانب الغربي من دجلة، فأنشأ هناك العمارات والبساتين والأجنة، حفر الأنهار من دجلة وصيّر إلى كل قائد عمارة ناحية من النواحي وحمل النخل من بغداد والبصرة وسائر السواد، وحملت الغروس من الجزيرة والشام والجبل والري وخراسان وسائر البلدان، فكثرت المياه في هذه العمارة في الجانب الشرقي بسر من رأى، وصلح النخل وثبتت الأشجار"[٣٨]. في حين قال المقدسي: "وفي وجه سامراء مدينة عُكبرا وهي كبيرة عامرة كثيرة الفواكه جيدة الأعناب"[٣٩].

أما الأنبار فهي "بلد السفاح، وكانت داره التي يسكنها عامرة آهلة كثيرة النخيل والزروع الجيدة والأسواق الحسنة على شرقي الفرات"[٤٠]. أما عانة، حسب ابن حوقل، فهي "مدينة صغيرة في وسط الفرات... تلتف مشاجرها بالنخيل والكروم"[٤١]. أما حلوان فهي "مدينة ليس بالعراق بعد البصرة والكوفة وواسط أعمر منها ولا أكثر خصباً. وجَل ثمارها التين... وبالدسكرة نخيل وزروع كثيرة"[٤٢] ومما قاله ابن بطوطة

(٧٠٤-٧٧٩هـ) في رحلته: "والفرات من الكوفة على مسافة نصف فرسخ في الجانب الشرقي منها، وهو منتظم بحدائق النخل الملتفة، المتصل بعضها ببعض... ثم وصلنا ونزلنا بئر ملاحة، وهي بلدة حسنة بين حدائق نخل... ووصلنا منها الصبح فنزلنا مدينة الحلة... وحدائق النخل منتظمة بها داخلاً وخارجاً، ودورها بين الحدائق"(٤٣). وتحدث عن كربلاء فقال: "وهي مدينة صغيرة تحفها حدائق النخل ويسقيها ماء الفرات"(٤٤). في حين تحدث عن سنجار قائلاً: "ثم رحلنا إلى مدينة سنجار، وهي مدينة كبيرة كثيرة الفواكه والأشجار والعيون المطردة والأنهار، مبنية في سفح جبل، تشبه بدمشق في كثير أنهارها وبساتينها"(٤٥). أما ابن حوقل فقال فيها: "وبها مع رخص أسعارها وكثرة خيرها وفواكهها الصيفية فواكه شتوية مما يكون اختصاصه في بلاد العرود كالسماق والجوز واللوز والزيتون والاترج والسمسم والرمان الكبير المجفف حبه الدائم..."(٤٦). وعندما تحدث عن الموصل قال: "... ولم يكُ بها كثير شجر ولا بساتين إلا التافه القليل اليسير، فلما تملك بنو حمدان ورحالهم غرسوا فيها الأشجار وكثرت الكروم وغزرت الفواكه وغرست النخيل والخضر"(٤٧).

وإذا ما أتينا إلى البصرة فما فيها من بساتين يجعل منها منهلاً دائماً للحديث عنها فنظام الري فيها فريد من نوعه نسبة إلى مدن العراق الأخرى لأن" الجزر والمدّ أعجوبة على أهل البصرة ونعمة، يزودهم الماء في كل يوم وليلة مرتين ويدخل الأنهار ويسقي البساتين ويحمل السفن إلى القرى. فإذا جزر عمل الارحية لأنها على أفواه الأنهار، فإذا خرج الماء أدارها وبلغ المدى إلى حدود البطائح وله وقت يدور مع دور الأهلة"(٤٨). أما الحميري فقال:

" وبالبصرة نهر يعرف بنهر الابُلّة طوله اثنا عشر ميلاً وهو مسافة ما بين البصرة والابلّة، وعلى جانبي هذا النهر قصور وبساتين متصلة كأنها بستان واحد، ويحويها خيط واحد.... ونصب إلى هذا النهر عدة أنهار مما يقاربه أو يماثله في الكبر، وجمع نخيلها في اعتدال قدودة ونقاوة فروعه كأنها أفرغت في قالب واحد، وغرست سائره في يوم واحد، وجميع أنهار البصرة المحيطة بشرقيها يصب بعضها في بعض، ويتشعب بعضها في بعض وأكثرها يدخله المدّ والجزر من البحر فإذا دخل المدّ تراجعت مياه الأنهار فصبت في البساتين والمزارع وسقتها وإذا كان الجزر عادت الأنهار جارية على

حسب عادتها"[٤٩]. ولـ ابن حوقل وصف جميل فيها، قال:

" ومن مشاهير أنهارها نهر الأبلّة وطوله أربعة فراسخ وما بين البصرة والأبلّة، وعلى جانبي هذا النهر قصور وبساتين متصلة كأنها بستان واحد قد مدت على خيط، ورصفت بالمجالس الحسنة والمناظر الأنيقة والأبنية الفاخرة والعروش العجيبة والأشجار المثمرة والفواكه اللذيذة، والرياحين الغضة المركب منها مثل الحيوان والبرك الفسيحة المرصوفة، وكأن نخيلها غرست ليوم واحد، وهذه الأنهار الكبار كلها متخرِّقة بعضها إلى بعض، وكذلك عامة أنهار البصرة حتى إذا جاءهم مدٌّ البحر تراجع الماء في كل نهر حتى يدخل نخيلهم وحيطانهم وجميع أنهارهم من غير تكلف، وإذا جزر الماء عنها وانحط خلت منه البساتين والنخيل وبقيت أكثر الأنهار خالية فارغة. ويغلب إلى مياههم الملوحة وأكثر ما يستسقون الماء لشربهم إذا جزر الماء من آخر نهر معقل، لأنه يعذب هناك فلا يضرّه ماء البحر"[٥٠].

الهوامش

١. البغدادين الحافظ، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ص/٢٢-٢٣.

٢. ابن وحشية، ابو بكر، الفلاحة النبطية، فرانكفورت، (معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية) ١٩٨٤، ج/١، ص/٢٦

٣. ابن بصال الطليطلي: كتاب الفلاحة، (دراسة: خوسي مارية ومحمد عزيمان)، معهد مولاي الحسن، تطوان ١٩٥٥، ص/٩٢

٤. كوركيس عواد، "الزراعة والنبات عند العرب" مجلة الزراعة العراقية، بغداد، ١٩٥٢، م/٧، ج/٢، ص/١٢٤

٥. ابن وحشية، الفلاحة النبطية، ١٩٨٤، ص/٧

٦. المصدر السابق، ج/٦، ص/٤

٧. المصدر السابق، ج/٦، ص/٢.

٨. ابن سيده، المخصص، دار الفكر، السفر/١١، ص/٦٤.

٩. كوركيس عواد، ذات المصدر السابق، ص/١٢٥

ومثل هذا الصنف من الكتب، مثل كتاب النظر بن سميل، الذي نشأ وتوفي بالبصرة.

١٠. حول كتب الادوية، يراجع، كوركيس عواد، المصدر السابق، ص/١٣٠-١٣٤

١١. حول الصنف الثالث، مثل كتاب المعتمد (الفلاحة النبطية) وكتاب الفلاحة الرومية لقسطوس، الفلاحة الأندلسية لابن العوام، كتاب الفلاحة لابن بصال، كتاب أبي عمر الحجاج الاشبيل وهو المقنع في الفلاحة، مفتاح الراحة لعلم الفلاحة لمؤلف مجهول، كتاب جامع فوائد الملاحة في جامع فوائد الفلاحة لرضي الدين القريشي، علم الملاحة في علم الفلاحة لعبد الغني النابلسي (ت/١١٤٣هـ) وغير ذلك، ولزيادة المعلومات، كوركيس عواد، المصدر السابق، ص/١٣٥-١٣٧

١٢. ذكر ابن النديم في الفهرست عدداً كبيراً من كتب النبات والفلاحة، وحسب النسخة المحققة لرضا تجدد، النبات والشجر، للأصمعي (ص/٦٠-٦١)، النخلة للأصمعي (ص/٦١-٦٤-٧٥)كتاب النبات لأبي سعيد الحسن السكري، (ص/٨٦) كتاب النبت والبقل لابن الاعرابي (ت-٢٣١هـ) ص/٧٦، كتاب الشجر والنبات لأحمد بن حاتم (ت-٢٣١هـ) ص/٦١-٢١٠، المزارعة الصغير والمزارعة الكبير لأبي عبد الله محمد بن الحسن (ت-٢٧٠هـ)، الأشجار والنبات لأبي القاسم البشير ص/١٥٤، كتاب الأشجار لجابر بن حيان الكوفي، وغير ذلك من الكتب.

١٣. النويري، شهاب الدين، نهاية الأرب في فنون الادب، تصحيح أحمد الزين، سلسلة تراثنا، القاهرة، السفر/١١، ص/٨٦-١٨٤

١٤. ابن وحشية، ج/٦، ص/٥٧

١٥. ابن الفقيه الهمذاني، أبو عبد الله أحمد، البلدان، فرانكفورت، ١٩٨٧، ص/٩٤

١٦. ابن حوقل، أبو القاسم، صورة الأرض بيروت، ص/٢١٧

١٧. كوركيس عواد، بساتين الملوك والخلفاء في العصر الإسلامي، مجلة الزراعة العراقية،بغداد ١٩٥٣، ج/٧، ص/٢٣١

١٨. كوركيس عواد، المصدر السابق، ص/٣٣٤-٣٣٥

١٩. الطبري، تاريخ الرسل والملوك،تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف (ذخائر العرب/٣٠)ج/٨، ص/٢٢٨.

٢٠. الطبري، ج/٨، ص/١٠٢

٢١. الطبري، ج/٨، ص/٤٨٨

٢٢. الطبري، ج/٨، ص/٤٨٠

٢٣. ذكر الطبري أسماء بساتين أخرى لا نعرف غير أسماؤها مثل: بستان مؤنسة، ج/٨، ص/٤٨٨، وبستان ابن عامر، ج/٨، ص/٦٠، الذي يشير إلى أن أبا جعفر نزل فيه، ويراجع ص/١٩٩، ذات المصدر.

٢٤. عواد، ميخائيل، صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي، سلسلة دراسات /٢٧٩، وزارة الثقافة والإعلام، بيروت، ١٩٨١، ص/٩٥.

٢٥. يوجد اختلاف في النص بين ما ذكر في المصدر السابق ص/٩٥، وبين نص كوركيس عواد ص/٣٣١-٣٣٢/ الذي اعتمد عليه نقلاً عن المسعودي مروج الذهب، ج/٨، ص/٣٣٦، علماً بأن نص الأخير مطابق، ويبدو أن الباحث عواد قد اعتمد مصدراً آخر.

٢٦. كوركيس عواد، بساتين الملوك، ٣٣٤

يراجع أيضاً، ميخائيل عواد، صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي، ص/٩٥.

٢٧. كوركيس عواد، بساتين الملوك، ص/٣٣٣.

٢٨. المصدر السابق، ص/٣٣٤.

٢٩. مقدسي، جورج، خطط بغداد في القرن الخامس الهجري،ترجمة د. صالح العلي، مطبعة المجمع العلمي، ١٩٨٤، ص/٢١-٢٢

٣٠. البغدادي، خطط بغداد ج/١، ص/١٠٦-١٠٧

٣١. ليسنر، يعقوب، خطط بغداد في العهود العباسية الأولى، ترجمة د. صالح العلي، مطبعة المجمع العلمي، ١٩٨٤، ص/١١٠.

٣٢. مقدسي، خطط بغداد، ص/٢٣.

٣٣. والنهروان كلمة سومرية من الأصل، ناران ثم حورت.

٣٤. ابن حوقل، ص/٢١٨.

٣٥. ابن حوقل، ١٩٩.

٣٦. الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٥، ص/٣٦،

٣٧. المصدر السابق، ص/٣٠١.

٣٩. المقدسي، البشاري، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ليدن، ١٩٠٦، ص/١٣٢.

٤٠. المقدسي، المصدر السابق، ٢٠٥

٤١. ابن حوقل، ص/٢٠٦

٤٢. ابن حوقل، ص/٢٢٠

٤٣. رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت ١٩٦٤، ص/ ٢٢٠

٤٤. ابن بطوطة، ص/٢٢١

٤٥. ابن بطوطة، ص/٢٣٧

٤٦. ابن حوقل، ص/١٩٩.

٤٧. ابن حوقل، ص/١٩٤

٤٨. المقدسي، ص/١٢٤-١٢٥

٤٩. الحميري، الروض المعطار، ١٠٥.

٥٠ ابن حوقل، ص/٢١٢-٢١٣.

نماذج لأشجار الفاكهة في بساتين العراق

إن اختيار مادة معينة في علم البستنة في العراق من العناصر المهمة في تاريخ هذا العلم، واستناداً إلى عملية التواصل الحضاري في الوطن العربي وتشابه أقاليمه في نواح معينة يجعل من الضروري الأخذ بالمصادر الزراعية التي دونت في أرجاء مختلفة من هذا العالم وذلك كأسلوب مقارن.

وعلى أي حال، إن تنوع أشجار البساتين يجعل من الصعب استعراضها جميعاً، لذا فإن تحديد نوع أو صنف ما يبحث منها من الأمور الأساسية. وكما نعرفه من كتب الزراعة أن أسس تصنيف النباتات ليس من الأمور السهلة سيما وإن مدارس كثيرة قد أوضحت آراءها بخصوص ذلك. وكما أشرت في المقدمة أن نماذج مختارة لأشجار الفاكهة ستكون مدار بحث هذه الصفحات. وقبل أن نوغل في شرح تلك العناصر من الضروري الإشارة إلى أن تنوع التصنيف النباتي لا يعني عدم الأخذ بأكثرها وضوحاً وشمولاً من ذلك تقسيم الأشجار إلى :

نفضية أو متساقطة الأوراق.

دائمة الخضرة.

أما النوع الأول فيشتمل على نماذج كثيرة للفاكهة مثل التفاحيات كالتفاح، الكمثرى، السفرجل، وذات النواة الصلبة كالخوخ والإجاص والمشمش والكرز. ومنها ما تكون ثماره صغيرة كالأعناب التي تشمل الكروم، كما يعد الرمان من الأشجار النفضية أيضاً.

أما الدائمة الخضرة فتشمل أشجاراً كثيرة كالحمضيات والزيتون.

وما سنستعرضه من أنواع أشجار الفاكهة فيشمل القسمين أما الأول فقد اخترنا منه:

١- التفاح ٢- الخوخ ٣- المشمش ٤- التين ٥- الكروم ٦- الرمان. ومن الثاني: الزيتون.

الكروم

هي من الأشجار ذات الأهمية الكبيرة في حياة الإنسان الاقتصادية قديماً وحديثاً، ولأهميتها فقد كانت من المحاور المهمة في المعتقدات، كما مثلها الفنانون في لوحاتهم على نطاق واسع عبر فترات التاريخ إما كجزء من مشهد أو بشكل وحدات متتالية للأغصان والأوراق والعناقيد ضمن الأفاريز المنحوتة بالحجر وبالطابوق وبالمثل المعمول منها بالقوالب الجبسية.

أما من وجهة النظر النباتية فتمثل الكروم جزءاً من شعبة النباتات البذرية من النوع المغطى ومن ذوات الفلقتين ومن الرتبة "رمنالس" *Rhamnales*[1].

يرجع السبب في أهمية الكروم إلى كونها من النباتات واسعة الانتشار، إذ تعيش أنواعها الكثيرة في المناطق الاستوائية والمعتدلة الدافئة والمعتدلة الباردة، وتنمو بشكل جيد بين خطي عرض (٣٤) درجة شمالاً و(٤٩) درجة جنوبياً. وتبعاً لذلك فقد تعددت أنواع الكروم فقد أمكن إحصاء (١٠٥٠) منها وصنفته في (١٤) جنساً. والملاحظ أن بعض هذه الأجناس تضم أنواعاً كثيرة من نوع" سيسيوس" *Cissus* الذي يضم (٣٤٧) نوعاً وكذلك جنس" سيفوستيما" *Cyphostema* الذي يضم (٢٣١) نوعاً، في حين ليس في بعضها غير نوع واحد مثل "أكاريوسيبرما" الذي ينمو في لاوس و"بتيروسيسوس" الذي ينتشر في هايتي[٢]. ويدخل ضمن هذه الأنواع المنقرض منها والتي كانت تعيش قبل ملايين السنين. أما في العراق فتوجد أنواع عديدة من الكروم منذ أزمنة بعيدة وأخرى جلبت قديماً أو حديثاً. أما الأنواع الموجودة الآن فمنها: الشدة السوداء، الشدة البيضاء، البهرزي، العجيمي، ديس العنز، العباسي، الحديدي، الكمالي، الرزاقي (الرازقي)، كما أن هناك أنواعاً شمالية تتخذ أسماء محلية مثل الميراني، الرش ميو، تري رش وغيرها[٣].

كـان للكـروم أهميـة واضـحة في تراثنـا العراقـي القـديم والإسـلامي. ففـي الكتابات المسمارية ورد اسم الكرم "جشتن" *Castin* مسبوقة بالأداة الموضحة "جش" أو "قش"(٤). أما بالبابلية والآشورية فتلفظ "كَرَمو" أو "كيرانو"(٥)، والصيغة الأولى مرادفة للعربيـة "كـرم". وإلى جانـب هـذه الكلمـة وردت الكلمـة "أنبـو" أي العنـب وهـو ثمـر الكـرم(٦). كمـا وردت الكلمـة "ديلاتـو" و" ديـلات كرانـي" أي دوالـي الكـرم بالبابليـة الـتي يقابلها بالسـومرية "دل-لا-جشـتن"(٧). ومـن البـديهي كـان العنـب يجـف طبيعيـاً أو يجفف، لذلك وردت كلمة تمثله وهي" جشتين- يـارا" بالسـومرية و" مونزقـو" بالبابليـة(٨). ومن الواضح أن الأعناب كانت مادة مهمة لعمل النبيذ الـذي جـاء باسـم "اينـو" بالبابليـة، التي يرى البعض فيها أصلاً للكلمة الانكليزية ولغات مقاربة أخرى" واين"(٩).

ومن الأخبار الطريفة الواردة عـن العنـب إن ملحمـة جلجامش أشـارت إلى مشـاهدة بطل الملحمة للأسـود في رحلتـه، ويـرى البعض أن ذلـك يشير إلى أن هـذا النـوع لم يكـن معروفـاً في العـراق(١٠). وممـا قيـل أن العنـب لم يـزرع في شمـال العـراق إلا في الألـف الأول ق.م(١١). ولكـن يبدو أن ذلك يخص المنطقة الغربية دون الشرقية الجبلية، إلا أن الكـروم تنامت بكثرة في تلك الحقبة فقد بلغت في إحدى المنـاطق، حسـب الإحصـاءات الآشـورية (٢٨٢) ألـف شـجرة، وبلـغ عـدد أشـجارها في منطقـة واحـدة بحـرّان بـين (٢٠-٢٩) ألـف. وكانت سنجار من المناطق المشهورة بزراعتها(١٢).

أمـا في الحقبـة العربيـة قبْـل الإسـلام فقـد مثلـت مدينـة الحضـر عناقيـد العنـب وأغصانه وأوراقه في أمثلة كثيرة مما يؤكد أن الكروم أشجار مألوفة لهم خاصة وأن سنجار كانت تابعة لهم وكذا أعالي الفرات.

وبصدد ذكر مدينـة الحضـر وردت إشـارة لـ ابـن وحشـية لا نـدري مـدى صـحتها، ولكـن مـع ذلـك نعـدها مهمـة لسـبب واحـد أنهـا أشـارت إلى ممارسـة التطعيم في المدينـة وأرجائها. كما ورد اسم ملك يدعى "اوبا" وفي الواقع لم يرد بين الملوك مثل هـذا الاسـم. بل ورد اسم امـرأة ربمـا كانت ملكـة أسـفل تمثالهـا بصيغة "أبّو بنـت دميـون" يقـول ابـن وحشية:

"وقد كان أهل الحضر على عهد عصر اوبا الملك ركبـوا أغصـان كـرم جلبوهـا من بعض قرى الموصل، فركبوها على كرم يخرج في ذلك البلد.." ثم أشار إلى أنها نمت

وحملت "بكرم يحمل عنبا مستطيلا لونه أبيض تشوبه خضرة له جلد ثخين جداً". إلا أنه أشار إلى أن هذا التركيب أنتج عنبا "صمط أفواههم وأورم اللثة، وربما انتفخت حول أسنانهم ودميت بعد ذلك". ثم أشار إلى أن الملك "أوبا" سأل كاهنا يدعى "ترايا" عن هذا الأمر فكان منه أن يوحي بعدم زرع مثل هذه الكرمة مرة أخرى[١٣].!

وفي زمن الحيرة، كانت العاصمة وسط المزارع والبساتين التي يسقيها نهر الفرات في المنطقة المسماة بحر النجف، وإذا كانت المصادر الإسلامية والسريانية قد عجزت عن وجود معنى لكلمة "حيرة" فإن المصادر المسمارية منذ العصر البابلي القديم والحديث تخبرنا بأن المدينة كانت تدعى "حيريتوم" أي المنطقة المنخفضة. وتورد المصادر العربية الإسلامية معنى تسمية كلمة "نجف" بالقول بأنه يعني: "البساتين والمنتزهات التي يشرف الخورنق عليها"[١٤]. ومن الجلي أن الخورنق قصر من زمن الحيرة وكان بديهياً أن يزرع بساتين بحر النجف الكروم مع فاكهة أخرى.

أما في العصور العربية الإسلامية فقد كانت للكروم أهمية خاصة بين ما يزرع من النباتات. وتشير الآيات الكثيرة الواردة في القرآن الكريم على الكروم إلى مألوفية هذا النبات في جزيرة العرب، وقد جاءت الآيات مشيرة إلى "العنب" و"الأعناب" بصيغة الجمع، وكذلك وردت عبارة "جنات معروشة"[١٥] وكما هو معروف أن العريشية هي الكرمة.

أما كتب الفلاحة العربية فقد ذكرت الكروم مراراً وأسهبت بوصف كل ما خصها. ومثل ذلك كتب اللغة ككتاب التلخيص للعسكري وابن سيده وابن منظور والنويري.

قال اللغوي العريستاني أبو هلال العسكري:

"يقال لشجرته: الكرمة، والجمع كَرْم وكروم. والجفنة: الكرمة. ويقال: الجَفَنَة بفتحتين. ويقال للقضيب منها: الحبَلة. وقيل: الحبَلة أصل الكرمة"[١٦].

أما ابن سيده فقد خصّ الكرم في مخصصه بالكثير من الصفحات مسهبا في شرح كل ما تعلق به. قال:

"أبو حنيفة: إذا نبتت حبّة العنب، وهي العَجمة والحصرِمة والفرصد وهي طائفية. والنواة: فهي حبة ما لم يُنزع نباتها من موضعه فيغرس. فإذا نزع ثم غرس سُمي غُرْست.

...أبو حنيفة: فإذا علقت (أي الغرسة) قطعت عن وجه الأرض ثم ما بقي من أصلها في الأرض فإذا نبتت ثانية فهي نشأة وقد انشأت، فإن غُرس الكَرْم من قضيبه فاسم القضيب الشُكير، وجمعه شُكُر، وهو أيضا زَرَجُونَةٌ زَرَجون.."[17].

ولما ذكره ابن سيدة من أهمية حول أجناس العنب فقد أرفقت ما قاله فيها مصوراً.

أما النويري فقد أبتدأ بما أشار إليه العسكري. وقال: القضيب: السَّرغ بغين معجمة، والجمع سروغ... وفي القضيب الابنة، والجمع ابن، وهي العقد التي تكون فيه..". وقال يسمى "لما تساقط من العنب: الهرور. فإذا اسود نصف حبّه قيل: شطر تشطيراً. فإذا اسودت الحبة إلا دون نصفها قيل: قد حلّقم علقم. فإذا اسود بعض حبّه قيل: قد أوشم إيشاماً، ولا يقال للعنب الأبيض: أوشم"[18].

أما الكروم في كتب الفلاحة العربية فقد أسهبت في شرح كل ما خصها. وبالنسبة لموضوعنا عن العراق فيعد ما أشار إليه ابن وحشية في كتابه مادة موضحة مهمة.

تكلم المؤلف على الكروم في الجزء الخامس من مؤلفه الذي يقع في (٤٦٦) صفحة خصّ منها (٣٧٢) صفحة للحديث عليها، وذلك حسب تسلسل أجزاء مخطوط أحمد الثالث في اسطنبول[19]. وقد تناول الجزء أموراً كثيرة في الكروم التي نجمل أهمها بالآتي:

نوعية الأرض الصالحة لزراعتها.

أنواع الكروم.

المواعيد الصالحة للزراعة.

أسلوب الزراعة بالبذور.

أسلوب الزراعة بالقضبان.

الأمراض التي تصيب الكروم ومعالجتها.

يشير البحث إلى أن "أوفق الأرض للكروم زرعاً وغرساً هي الأرض الدسمة"[20]، أي الأرض التي يميل لونها إلى السواد. إلا أن الكاتب لا يجعل ذلك أمراً مطّرداً حيث يقول في فقرة أخرى:

"والأرض الدسمة التي تقرب إلى السواد توافق الكرم الذي عنبه أبيض... فأما الذي عنبه مدور ولونها فيها بين البياض والخضرة فإنه توافقه الأرض الرخوة التي تعلوها نزّ ورطوبة بالطبع، وهذه هي الدسمة المفرطة الدسومة"(٢١).

أما إذا أتينا إلى أنواع الكروم التي تكثر في إقليم بابل فقد تكلم المصدر أولاً عن ثلاثة أصناف تنتج عنباً أسود:

صنف سونايا، ويمتاز بكبر حبه بعض الشيء.

صنغ سليفاني، ويمتاز بحبه الطويل ويكون أخف سواداً من السوناني.

صنف صلناني، ويكون مدوّر الحب صغيره وحباته مجتمعة إلى بعضها.

وإضافة إلى ذلك عرض إلى ثلاثة أصناف أخرى تمتاز بسوادها القليل مما يجعل الحبات يقترب لونها من الشقرة. يرتئي المصدر أن تزرع هذه الأصناف في أرض شديدة اليبس. ثم يعرض بعضها إلى المواصفات الثانوية التي تخص كل صنف.

وإذا أتينا إلى الأعناب ذات الثمار البيض فيشير ابن وحشية إلى أن ما يناسبها من الأرض هي الرقيقة والرملية ويطلق عليها مصطلح "فرفورنا".

لا يعتمد بحث الفلاحة النبطية على تقسيم الكروم حسب ألوانها بل على مدى قوة الشجرة أو ضعفها، فيقول "فأما ما كان من الكروم ضعيفاً دقيق الأغصان لطيف الوزن لنقصان غذائه فينبغي أن يغرس في الأرض السوداء"(٢٢)، مشيراً إلى أن "هذه الكروم الضعيفة لا تقدر على استخراج جميع الغذاء" في حين أشار إلى مقدرة الكروم القوية على امتصاص الغذاء (أو اجتذابه تعبير المصدر).

أما زراعة الكروم فقد عرض المصدر إلى زراعتها بالبذور أولاً على أن يؤخذ الحبّ من الزبيب الكبار الذي ينقع في الزيت. ثم تحفر حفرة صغيرة لإيداع البذور التي يتراوح عددها بين (٧-١٢)، بعدها تغطى بالتراب وتسقى، ثم بعد السقي بعد أربعة أيام، ثم بعد ذلك يتوالى السقي عليها. أما المدة التي يتم العمل فيها فهي منتصف تشرين الثاني، "وإن اشتد عليه البرد فلتقرب له الإخصاص وتغطى بالبواري"(٢٣).

ثم يعرض الكاتب لرأي آخر لزراعة الكروم "في سبعة خلون من شباط إلى أول آذار والى عشر خلون منه، وأن يجعل في صفائره عشرين حبة"(٢٤).

ومما يعرض له المصدر رأيين مختلفين في زراعة الكروم الأول يشير إلى أنه

"ينبغي أن يكون كلها على اختلافاتها في وقت غروسها لا يخالف بينها". ويرى في وقت الزرع والغرس تشرين الثاني، كما رأى أن يكون بعض الغرس وقت الربيع، في حين يكون الزرع بالبذور "في ابتداء قوة البرد واستقباله الأمطار"[٢٥]. أما الرأي الثاني فينص على أنه "ليس ينبغي أن يكون زرع الكروم وغرسها في وقت واحد ولا زمان متساوٍ من أجل اختلاف البلدان في الحرّ والبرد بالزيادة والنقصان وبحسب اختلاف أجناس الكروم وأنواعها... أو نقول بحسب اختلاف أنواع الكروم فإنها ليست متساوية في البلوغ والنضج والفجاجة".

أما زرع العنب بالقضبان فقد أشار ابن وحشية إلى أداء منها لشخص يدعى سباهي الجرمقاني الذي قال في بعض مواصفاتها: "إنما تكون قوة القضيب في نفسه على مقدار ما فيه من العيون يعني من كثرتها. قال: فأنه كلما كثرت عيونه كان أسرع نباته وأقوى إذا نبت وأحسن نشوؤه"[٢٦]. وقال ابن وحشية: "ينبغي لمن أراد غرس القضبان المكسوحة من الكروم لا التي فيها أصول ميل التي تغرس لتفرق من عيونها أن تختار قضبانا فيها فضل طول، وتكون من كرم قوي حديث غير عتيق، يكون من كرم قد أتت عليه عشرون سنة ونحوها إلى الخمس والعشرين سنة. ولتكن قضبانا مأخوذة من الجانب الأسفل من جوانب الكرم مما يكون مرتفعا عن وجه الأرض بمقدار شبر واحد. فإذا أخذت تلك القضبان فلتحفر لها موضع غرسها خندقا[٢٧] كما قدمنا..."[٢٨]. وقال: "اعلم أن الكروم كلها حديثها وعتيقها بحاجة إلى التعاهد والتلقيح، فإذا حفرنا حول كرم عتيق قد جاوز العشرين سنة أو دون هذا أو فوقه من السنين وزبلناه ببعر الغنم وخرو الحمام وأخثاء البقر وطمينا أصله كان لنا في ذلك منفعة كبيرة من ذلك الكرم"[٢٩]. وقال أيضاً: "فإذا أردتم غرس القضبان فاحفروا لها مقدار قدمين ليبقى تحت القدمين في الأرض التراب فيكون أسهل على القضبان في ضرب العروق في الأرض وأسهل عليها في النبات، فإنها تنبت سريعاً. فإذا غرستم عدة قضبان في حفرة واحدة ففرقوها[٣٠] جهدكم وإن لا يماس بعضها بعضاً، ولا يستر بعضها بعضاً من حرارة الشمس، فإن ذلك أعون لها على النبات وجودة الضرب في الأرض"[٣١].

لم تكتف الفلاحة النبطية بعرض فقرات مهمة في الغرس بالقضبان بل عرضت في فقرة إلى الاحتياطات التي ينبغي اتخاذها عند نقلها من مكان إلى آخر فقد ورد:

"فإذا أردتم نقل الغروس من بلد إلى بلد بينهما مسافة فاعمدوا إلى صناديق معمولة من خشب دقيق وقيّروها بالقير من خارجها ورشوا في داخلها الماء الممزوج بالخمر، واجعلوا فيها القضبان. واجعلوا فوق القضبان صفيحة طولها ذراع في ذراع رصاص واطبقوا الصندوق"[٣٢]. ولتعليل ما جاء من إجراءات ورد: "وإنما قيّروا خارج الصندوق لئلا يصل الهواء والرياح من خلل في الصندوق إلى القضبان. وقلنا في داخله الخمر والماء ليسري الحسُّ ذلك فيؤدي إلى القضبان طراوة. وقلنا اجعلوا فوقها صفيحة رصاص، لأن الرصاص يحفظ طراوة المنابق كلها"[٣٣].

أما الأمراض التي تنتاب الكروم فقد خصتها الفلاحة النبطية بالعديد من الأمثلة إلا أن بعض معالجاتها ليست عليه حيث أدخلت طابع الخرافة فيها. مثال أحد الامراض التي عرض لها المخطوط "إن ورق هذه الكرمة تبيض وتزول عنه الخضرة وتبتدي بالبياض من ظهور الورقة... ويلين قضيب هذه الكرمة لينا غير معهود حتى يصير مثل السيور سواء في كثرة الاسترخاء والخروج عن الخشبة"[٣٤]. ويقترح المصدر علاجاً لذلك بأخذ رماد حطب الكرم وعجنه بالخل الشديد الحموضة ويلطخ به ساق الكرمة. ثم يذكر تجربة لشخص يدعى صغريث لعلاج هذه الحالة "بصب ماء البحر في أصل هذه الكرمة المسترخية ينقعها ويرش على جميعها من ماء البحر"[٣٥].

ويعرض ابن وحشية إلى حالة عامة تبعد النبات عن المرض قائلاً: "فوجب أن يكون برؤه من أعراضه بالاسخان الذي هو مادة حياته، وأن يكون هذا الاسخان أقوى من اسخان الشمس، الذي هو أقوى الاسخانات الثلاثة، وقد يمكننا ذلك بإدخال إسخان النار عليه في وقت يصلح إدخالها عليه. فإنا إذا أسخناه بالنار إسخاناً باعتدال، وكما ينبغي وعلى الموافقة من غير خطأ ولا زيادة أنعشه ذاك وأحياه ودفع عنه الآفات وصرف عنه العاهات..."[٣٦]. إلا أنه يقول بتفاوت تحمل النبات وحاجته للحرارة قائلاً: "ولا اسخان الكروم مثل إسخان النخل ولا إسخان شيء من المنابت على كثرتها متساوٍ..."[٣٧].

وإضافة إلى الإسخان بالنار يعرض المصدر إلى أسلوب فيزيائي لإنجاز ذلك بما نصّه: "وربما استعمل في بعضها إيصال السخونة بالمرايا المحرقة. وهو خصوص لأشياء بأعيانها في أحوال بأعيانها. وهذا الأسخان فهو إما خلقاً من اسخان الشمس وإما معونة ومادة وزيادة على اسخانها..."[٣٨].

أما ابن عمر الاشبيلي (ت-٤٦٦هـ) فيتفق مع ابن وحشية في عدة نقاط حول الكروم، فنراه يشير إلى أن أحسن أنواع الأرض المناسبة للكروم هي "التي يضرب لونها إلى السواد والحمرة إن كان فيها رطوبة من ماء معين أو غيره"(٣٩). ثم يوضح الاشبيلي كل نوع من الأرض وما يناسبه من الكروم، فعلى سبيل المثال ذكر أن الكرمة ذات العنب الأبيض تناسبها التربة التي أشار إليها. أما عن الأنواع الأخرى وما يلائمها من تربة فقال: "والأرض اليابسة الكثيرة الرمل للكرم السوداء موافقة، والعنب الأصفر والأخضر يخصب في الأرض الرقيقة، ولأن الأعناب ينبغي أن تنصب في أرق الأرض وأسهلها، والعنب الذي فيه شدة ينبغي أن ينصب في الأرض الرطبة ولا ينصب في جفنة كثيرة الزرجون في أرض سخية"(٤٠).

وفيما يخص زراعة العنب فقد تحدث عن زراعته بالقضبان والحب خريفاً وربيعاً: "ليس كل زرجون الجفنة يصلح للغرس فلا نأخذ من أعلى الجفنة ولا من أسفلها، ولا مما ينبت في أصلها، ولكن من وسطها ما كان من الزرجون وتقريت عقده، فإن الجاسي من الزرجون لا خير فيه، ولكن ما صفا لحاه وتقاريت كعوبه، وليكن قطع ذلك بمنجل حاد مستقي أولاً يستأصل قطع القضيب بتلك الجفنة، ولا نقطع من الكرم العتيق ولا من النصب الصغير، ولكن اقطع من ابناء ست سنين"(٤١). ثم تحدث عن خصائص أخرى لما يتم اختياره من القضبان للنوى. قال: "ولا يغرس من أسفل القضيب ولا أعلاه، ولكن أغرس من وسطه. هذا قول جميع الفلاحين، ومعنى هذا الكلام أن يأخذ الغارس القضيب المتقدم الوصف المتخير منها أسفل الحفرة قدر الربع، ويضع على ما ثني منها قدمه الآخرى على التراب الموضوع على القضيب المثني ويميدها أيضاً بالأرض طاقته وحينئذ يرفع عن القضيب قدمه الأولى ثم يرمي التراب ويضع قدمه عليه وعلى القضيب ولا يزال يفعل ذلك حتى يبلغ وجه الأرض"(٤٢).

وإذا كان ابن وحشية قد تحدث عن أوقات الغرس بالحب والقضبان ربيعاً وخريفاً فإن الاشبيلي يرى في الربيع وقتاً مناسباً، قال: "تنصب في مارس (آذار) في الأرض الندية".

إلا أن الاشبيلي لم يضع نصائحه الزراعية ضمن نطاق إقليمي، ونفهم ذلك من قوله: "ولأن البلدان مختلفة الطبائع، والريح فيها مختلف، ينبغي أن تنظر إلى الأرض

واختلافها، فما كان منها حاراً فيضع النصب منها مما يلي الشام، وما كان بارداً استقبل به القبلة، وإن كان ممتزجة استقبل فيها المشرق، وإن كانت بعيدة من البحر فهي أرض فاترة استقبل بها"[٤٣].

أما ابن بصّال فقد أشار في عدة مناسبات إلى الكرم الصحراوي عند استعراضه للمادة، ولا نعلم ما هو السر في ذلك. وحينما تأتي إلى الموسم المناسب لزراعة الكرم نرى التركيز واضحاً على الخريف، أي كما في العراق. قال: "وإذا غرس هذا الكرم الصحراوي أول نوفمبر (أي تشرين الثاني) كما ذكرنا لحق بالخريف وغداه، ويكون القضيب كأنه في الزرجونة لم يقطع ويدخل عليه فصل الشتاء فيغذيه بالأمطار الدائمة، فيكون القضيب وقت اللقح قد اكتسى موضع القطع منه لحمته وغلظ الطوق من موضع القطع وعمل القضيب تحت الأرض، وتكون المادة فيه وقوي فيدفع دفعاً قوياً صاعداً وهابطاً"[٤٤].

إلا أن ابن البصال تحدث عن زرع الكرم من البذور، قال: "اتخاذ الكرم من الزريعة، وجه العمل في ذلك لمن أراد أن يجلبه من بلد إلى بلد أو غير ذلك، أن يؤخذ نوى الزبيب الطيب وتطيب له الأرض بزيل رقيق بالٍ، وتعمل له احواضاً ثم يزرع ذلك النوى في تلك الأحواض كما تزرع القمح، فإذا فرغ من زريعته ألقى عليه الحصر وجل به لتنزل كل حبة مكانها ويطرح عليها من الرمل شيء رقيق نمو غلظ الثواب ويسقي بالماء سقياً جيداً ويتعاهد بالسقي مرتين في الجمعة ويترك على تلك الحال عامين. ثم تعد له الأرض وتحفر فيها الحفر فيطلق عليها الماء إن أحب سقيها"[٤٥]. أي أن الأمر يختلف عما ذكره ابن وحشية حول إعداد الحفر للحب منذ البداية.

وكما تحدث ابن وحشية تحدث ابن البصال عند الرغبة في الاستعجال بإنضاج الكروم، قال: "ومن أراد استعجال شيء من هذا الغرس فليعمد إلى القضبان التي تنبت في النوى بعد عام واحد فليأخذ من أقلام ذلك النبات وتركيبه في أي جنس أحببت، فيستعجل بذلك بركته ونفعه إن شاء الله"[٤٦].

الرمان

تعد الفصيلة الرمانية *Pomegranate Family* من الفصائل المألوفة في المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية. وتتميز بأوراقها التي قد تكون شوكية عديمة الأذينات وبسيطة غير غدية. أما أزهارها فهي ثنائية الجنس متعددة التناظر وحيدة طرفية وتتجمع في نورات سيمية، وعادة محيطية.

وتشتمل هذه الفصيلة على نوعين: *Punica Granadum* وهو الرمان، أما الثاني فهو *Punica Proto Punica*(٤٧).

والرمان من النباتات المهمة التي يرد ذكرها كثيراً في النصوص المسمارية باللغتين السومرية والبابلية، وبالمثل كثر ذكره في القرآن الكريم والمصادر العربية الفلاحية واللغوية والعلمية الآخرى لما يتمتع به من أهمية غذائية وطبية وصناعية إضافة إلى جمال نباته ووردة مما جعله يأخذ طريقه إلى عالم الفن أيضاً. ومن الواضح أن ذكر الرمان بشكل موسع يشير إلى أنه من الأشجار الواسعة الأنتشار في الوطن العربي.

أما في الكتابات المسمارية فقد ورد ذكر الرمان بصيغة "نو-اور-ما" بالسومرية، في حين جاء بصيغة "نورمو" بالبابلية، أي بما يشابه اللفظ السومري لها، وهو أمر يشير إلى أن الاسم السومري أصل للبابلي. ومن الواضح أن "نورمو" ورمان متقاربتان من حيث اللفظ.

لقد حفلت النصوص المسمارية بذكر العديد من الرمان كما نعهدها اليوم، من ذلك: الحلو وبالبابلية "نورمو متقو" و"نورما كوكو" بالسومرية، والعسلي وبالبابلية "نرمو داشبو" وبالسومرية "نورما زاكاكا"، والحامض وبالبابلية "نورمو إمشتو" وبالسومرية "نورما زاك كارا" وبالمثل رمان الجبل، وهو بالسومرية "نورما-كور-را"(٤٨).

أما لغة فإن من المصادر من يرى بأنه من "رم" أي جمع "لاكتناز الرمان واتصال اجزائه وتداخل حبه"(٤٩). وكما رأينا أن التسمية تعود إلى العهود السومرية البابلية، الأمر الذي يؤكد الاتصال اللغوي.

ومما أروده ابن سيده: "شحمة الرمانة: الهنة التي في جوفها. ورما شَحِم: ذو شحمة، ابن دريد: الجُشب: قشور الرمان جافية. صاحب العين: رمانة شنباء أمليسية: ليس فيها حب إنما هي ماء في قشره"(٥٠).

أما في كتب الفلاحة فقد حظي الرمان بالوصف والتفصيل بشكل واضح. لقد جاء في الفلاحة النبطية:

"الرمان يتخذه الناس في أقليمنا زرعاً وغرساً. فأما المزروع فإنه ينبغي أن يؤخذ من حبه الكبار من حبه الجاف، وليختر من جملته ولتنق الحبة السمينة التي هي في شكلها إلى التدوير، أو التي لها بطن، أو الحبة الطويلة الممتلئة مع طولها"[٥١]. بعد ذلك يتطرق المصدر إلى طريقة الزراعة التي تتمثل بعمر صغائر صغار يوضع فيها بين (٧-١٤) حبة. ويكون موعد ذلك من أول شهر شباط إلى واحد وعشرين يوماً، "وإن زرع بعد هذا الوقت نبت، لكن لا يكون بجودة النابت في هذه الأيام".

أما في حالة غرس الرمان بالقضبان "فاكسح القضبان التي تريد غرسها بمنجل ماضٍ مسقي، ويكون في رأس الغصن المكسوح تأريب قليل[٥٢]، فتجني في رأس الغصن كالقلم، بل يكون مؤرباً قليلاً. واغرسه في ثلاثة[٥٣] قضبان في حفيرة واحدة إلى الست، ثم إلى التسع، ثم إلى الصقيع الخفيف[٥٤].

أما تاريخياً فلم يمكن تشخيص علامة مسمارية تمثل الزيتون أو مجموعة علامات تشير إليها صوتياً[٥٥]، إلا أن ذلك لا يعني أنها لم تكن معروفة قبل العصور الإسلامية فقد ذكرها أحد المصادر[٥٦]. إلا أن شجرة الزيتون كانت مهمة في سوريا وقد نقلها الفينيقيون إلى مستعمراتهم في البحر المتوسط واطلقوا على احداها اسم "زيتا" لكثرة زيتونها[٥٧].

كانت شجرة الزيتون الأولى التي تحدثت عنها الفلاحة النبطية بعد مقدمة الكتاب في جزئها الأول[٥٨]. إلا أنه مما يؤسف له أن معظم ما تم سرده لا يمت للصيغة العلمية بصلة. ولكن ابن وحشية يسرد الأمراض التي تصيب هذه الشجرة التي عزا بعضها إلى العطش المفرط وإلى اصفرار الأوراق بما يسميه "اليرقان"، ويرى في العلاج مطر عظيم يسقط عليه فيقلع الداء. أما في البلدان القليلة المطر فينصح بماء نهر جارٍ عذب[٥٩]. كما تحدث عن مرض آخر أسماه "قنطاسيا" "وعلامته أن مدق الشجرة يعرض له انفتال وانقلاب" وكذا سقوط الثمر أو الأمتناع عن الأثمار "فإن حملت كان حملها متحشفاً". وقال: "وكلما ازدادت الشجرة رياً ازداد بها هذا الداء." ولعلاجه يرى رش ماء حار بطريقة التسخين أو تعريضه لشمس حارة، وبالمثل وضع ماء بمواصفات معينة في

أصل الشجرة قد يطبخ "بالنار حتى ذهب منه سدسه ويصب على الماء يسير منه زيت ويطبخ مع الماء شيء من الكرنب المقطع صغاراً ومن بزره فيدق ويلقى على الماء ثم يغلي" كما يقترح أيضاً زرع أصول الخس مع طينته الحمراء حول الزيتون ويسقى بالماء. وإذا لم ينجح ذلك يسبقل نبات الخشخاش ويدق مع البذور ويخلط بالماء ويطبخ ويصب في أصلها(٦٠).

أما قسطوس فقد خص الزيتون بالذكر في جزئه السادس الذي يقع في ثمانية عشر فصلاً، استهلها في الفصل الأول بالقول:

"يجب على الزارع العناية بالزيتون والإكثار منه وحسن تعهده والقيام به أكثر من سائر الأشجار لما فيه من الفائدة والمنفعة"(٦١). أما موعد زرع الزيتون فأشار إلى أن في منتصف تشرين الثاني وحتى العشرين من كانون الأول. كما يجوز زرعه في نيسان أيضاً. أما عند البدء بالعمل فينبغي تحديد حفر عمقها بين ذراعين إلى ثلاثة وإن تكون المسافة بين حفرة وأخرى ثلاثين ذراعاً. ويمكن ملء المسافات بين أشجار الزيتون بأشجار صغار "لا يبلغ طولها طول الزيتون ولا تضر به". ولتقوية النبات ينصح بترك الحفرة دون غرس عاماً كاملاً "كي تصيبها الرياح والحر فتجف" والزيادة في قوة الشجرة "يوقد في كل حفرة من تلك الحفر مدة شهر في كل يوم يحرق فيها شيء من حشيش يابس أو قضبان يابسة"(٦٢).

وكما هو الحال في نباتات كثيرة يتم الزرع بالقضبان وبالحب. أما بالنسبة للنوع الأول فصفته "ذلك أن يعمد إلى أمتن وأنجب أغصان شجرة الزيتون ويتخذ منها أوتاد طول كل وتد منها ذراع ونصف وتضرب في الأرض المعدة لها" ويقترح أن يتم ذلك في العشر الأواخر من كانون الثاني "لتصيبه أمطار شباط وآذار ونيسان فتعلق، وإن قصرت عنه الأمطار فينبغي أن يتعاهد بالسقي"(٦٣). وقال: "ومنهم من يعمد إلى قضبان متان من القضبان التي تنبت منفردة في أصول شجر الزيتون فيقطعها ثم يغرسها". وتحدث عن إكثار حمل الشجرة وذلك بثقب ساق الزيتون "بمثقب حديد يسع قضبان من غرس الزيتون. ثم يعمد إلى قضيبين من قضبان شجرة كثيرة الحمل شابة من شجر الزيتون غير الشجرة المثقوبة فيجعلان في ذلك الخرق جميعا "(٦٤).

أما اجتناء الزيتون أو قطافه فيكون إذا قارب السواد ويكون ذلك في أواخر أيلول وأوائل تشرين الأول.

أما في الأندلس فترى مصادر أن العرب هم الذين أدخلوا الزيتون إليها[٦٥]. ومما يؤكد ذلك إشارة الطغنري الغرناطي قوله: "إن الزيتون جوز في المراكب من بر إفريقيا على ما وصفنا واغترس منه زيتون الأندلس حيث كان"[٦٦]. وتبعاً لذلك نما هذا النبات وانتشر حتى أصبح عدد أشجاره زمن الدولة العربية نحو (١٣٥) مليون شجرة[٦٧].

وعن الزراعة وموعدها يفرد ابن بصال حيزاً متواضعاً من مؤلفه للزيتون إلا أنه موجز مفيد يشير فيه إلى أن موعد مغارسته يقع في تشرين الأول، وذلك "أن يؤخذ وتد الزيتون في هذا الشهر إن كان بكيراً، وإن كان مؤخراً فيؤخذ في شهر مارس (آذار)، ويكون طوله ثمانية أشبار ...وتكون الحفرة التي يغرس فيها معدة يكون عمقها أربعة أشبار"[٦٨]. كما يتحدث عن أسلوب آخر وذلك بأن "يؤخذ الوتد ويكون قوياً موفراً في الغلظ، يكون في غلظه نحو الذراع أو أغلظ إن أمكن، ويكون في طوله ثمانية أشبار وتحفر له حفرة على نحو ما تقدم"[٦٩]. وتناول ابن بصال الحديث عن زراعة الزيتون بالنوى الذي يشير إلى أن موعده تشرين الأول، كما هو حال الغرس بالأوتاد، ويتم اختيار الأرض المناسبة له وهي "الخفيفة الحلوة... ويجتنب به الأرض الخشنة العلكة وذلك في البلاد الحارة ولا سيما والأرض المحجرة والحرشاء، لأن الأرض العلكة لا يخرقها السقي كذلك لأن قوائمها مغلقة. وأما الحلوة المدمنة فمسامها مفتوحة يسري فيها الماء ويخرقها سريعاً". وقال أيضاً "ويوافق الزيتون من الأرضين الأرض البيضاء اللينة الرطبة وما شاكلها"[٧٠].

أما أبو عمر الاشبيلي فيقول في هذا الموضوع: "يغرس في الأرض البيضاء والجرداء الجافة غير الندية، ويتجنب الأرض المهزولة الرطبة ذات الحجارة الصغار والسود الرملة ولا يصلح في الأرض المتضامنة التي يشتد فيها الحر"[٧١]. وقال الطغنري في ذلك مثل هذا القول[٧٢]. وحينما يأتي الاشبيلي إلى شروط الغرس فيرى أن يكون عمق كل حفرة خمسة أشبار وبين كل حفرتين ستة أذرع[٧٣]، وهو بذلك يختلف عما أورده قسطوس الذي أشار إلى أن عمق الحفرة بين ذراعين إلى ثلاثة، والمسافة بين كل منها ثلاثون ذراعاً، كما مر. إلا أن وجه المشابهة في نصي أبو عمر الاشبيلي وقسطوس أن الحفر ينبغي أن تعرض عاماً كاملاً للشمس والمطر والريح[٧٤].

وبعد ان تطرقنا إلى آراء الاندلسيين في المغارسة وصفات الأرض الصالحة

للزيتون، نأتي إلى قول ابن العوام الاشبيلي في أمراض الزيتون. ويمكن أن نرجع إلى ما قاله ابن وحشية بهذا الصدد لنعلم منها اعتماده على الأصل النبطي، قال ابن عوام الاشبيلي:

"اعلموا أن داء الزيتون المهلك هو أن تعطش الشجرة عطشاً مفرطاً فإن ذلك يهلكه ويهلك جميع الشجر. ويحدث للزيتون أيضاً اليرقان في ورق ما لطف من أغصانه التي في أعاليه، وربما اصفرت الأغصان أقل من اصفرار الورق. وزوال هذا الداء عنها يكون بمطر كثير يقع عليها وإن سقيت بالماء العذب من نهر جار أياماً كثيرة، ويرش به مخلوطاً بيسير من الزيت يوماً ويوماً لنفعها"(٧٥).

أما ابن حجاج الاشبيلي فقال في الزيتون والأرض:

"وقد أوردت ما ألفت للثلاثة المشاهير من أصحاب الفلاحة في الأرض المختارة لغرس الزيتون وآراؤهم متفقة غير مختلفة، وجملة ما تخلص إليه من أقوالهم وأقوال غيرهم ممن طالعت تأليفه إنهم يجتنبون الأرض الطيبة جداً لعظم ما تحدثه في حبه من كثيرة الماء والدردي فيقل على ذلك زيته، وأيضاً فإن دهنه يكون رقيقاً جداً سريع الاستحالة إلى التغير كثير رطوبة الماء فيه قليل المكث، وهو في الأرض الكثيرة الانداء أشر كثيراً مما وصفناه"(٧٦). ومما ورد في مخطوط الاشبيلي قوله:

"وينبغي للفلاح المجاهد أن يعني باستواء صفوف شجر الزيتون وإن مع ما في ذلك من الحسن وجودة الرتبة يصير الشجر ويحمل ثمره أكثر، وذلك أن الرياح إذا تداخلت الصفوف على الترتيب يصير أخصب وأكثر ثمرة"(٧٧).

التفاح

للفصيلة التفاحية *Pome* أهمية واضحة في تراثنا الزراعي القديم والعربي الإسلامي إذ تحفل النصوص المسمارية بالعديد من أنواعه لا زال بعضها يعرف بالاسم فقط دون القدرة على تمييز صفاته.

تنشأ الثمار التفاحية من مبيض سفلي، إذ يلتحم التخت بجدار المبيض التحاماً تاماً، ويتكون الجزء اللحمي الذي يؤكل عادة في هذه الثمار من التخت. أما الجزء الداخلي المحيط بالبذور فهو الجزء الناتج من المبيض ويتكون من غلافين خارجي

ووسطي شحميين حجرتين وغلاف داخلي رقيق. ويعد التفاح من الثمار الكاذبة لدخول التخت في تكوينها[٧٨].

ويدخل ضمن هذه الأسرة العرموط، الكمثري، السفرجل والزعرور.

يكتب التفاح بالمسمارية بعين العلامة التي يكتب بها "التين" وهي "ما" مع إضافة خطوط أفقية مسمارية، وتقرأ بأجمعها "خاشخور" في كل من اللغتين السومرية والبابلية. وكما أشرت إلى أن النصوص المسمارية تشير إلى عدة أنواع عبر العصور المختلفة الأكادية، أور الثالثة، والعصر البابلي القديم لا نعرف غير اسمائها[٧٩].

أما في تراثنا العربي في العراق فقد ورد في الفلاحة النبطية بأنه يزرع بالقضبان والبذور "غرساً وزرعاً" وانه يتماثل في خصائصه والسفرجل حيث يلائمه من الأرض والرياح ما يلائم السفرجل. وكما أشارت النصوص العراقية القديمة إلى أصناف التفاح الكثيرة فقد ورد في المصدر إشارة إلى هذا التنوع: "وهو أنواع كثيرة لها طعوم مختلفة مثل الحموضة الخالصة والحموضة اليسيرة، والمرارة والقبض والحلاوة، وله ما يعصر منه فيكون صالحاً للمعدة والكبد[٨٠].

وكما أشرت في البداية ثمة طريقتان لزراعة التفاح، وهما بالبذر والقضبان. أما عن الطريقة الأولى فقد جاء في الفلاحة النبطية: "ومن أراد زرعه فليستخرج حبه من جوف التفاحة البالغة في شجرتها ويتركه حتى يجف في موضع بارد ريح. فإذا كان في النصف من شباط، وربما عمل هذا في أول شباط، زرع ذلك الحب في صغائر صغار، ورش عليه التراب الذي فوقه الماء رشاً، وأعيد عليه الرش حتى يعلم الفاعل لذلك أن رطوبة الماء وصلت إلى حب التفاح (في) جوف الأرض، يفعل به هكذا[٨١] إلى أن ينبت. فإذا نبت وطلع من الأرض فليسق حينئذ كما تسقى المنابت كلها إلا أنه يكون سقياً خفيفاً ومتوسطاً. فإذا علا وصار أرفع من ذراع، إلى زيادة نصف ذراع، فليزد الماء في السقي على مقدار ما وصفنا في غيره من الشجر إلى أن يتم نشوؤه"[٨٢].

أما طريقة الغرس بالقضبان فقد جاء فيها:

"وأما غرسه (أي التفاح) فينبغي أن يغرس أصولاً بعروقها، وقضبان نشوئه[٨٣] إذا غرس قضباناً طويلة بُطن. فإن اتفق هبوب الريح الشرقية، والقضبان مغروسة في الأرض ثلاثة أيام متوالية، لن يهب معها غيرها من الرياح انتعش الغرس"[٨٤].

أما في الفلاحة الرومية ففيها خمسة أبواب للتفاح، الأول وهو العشرون ذو فائدة علمية، أما الاخرى فيدخل فيها الافتراض المحض، مثال ذلك القول: "إن مما يحمر به التفاح إن يزرع تحت شجرته ورد أحمر"(٨٥). في حين جاء في الباب العشرين:

"اعلم أن أوان غرس التفاح في السنة مرتان أحدهما في الربيع في نيسان وفي آذار، والأخرى في الخريف في المواضع القليلة الماء عند أول نضجه يكون من المطر، وأجود أماكن غرس التفاح ما كان منها بارداً ريحاً في الصيف"(٨٦). بعدها يتحدث عما يعتري التفاح من أمراض وما ينبغي أن يضاف إلى الشجرة لتبرأ.

أما ابن بصال، فهو لا يتحدث عن مواسم زرع التفاح كما في الفلاحة النبطية، كما أنه يتحدث عن غرس الأغصان لا الزراعة بالبذر، أما في النوع الأول فقد تحدث في نوعين منها. قال:

"ويعمد إلى الأرض يغرس فيها حفر في عمق كل حفرة ثلاثة أشبار ويكون بين حفرة وأخرى أربعة وعشرون شبراً لا أقل من ذلك. ويغرس النقل في تلك الحفرة ويرد عليها التراب وتسقى بالماء فإذا صارت النامية منه في غلظ الذراع فلا تحس عند التشمير، وإنما يشمر إذا كان صغيراً، لأنه ينجر موضع القطع منه صغيراً..."(٧٨)، وأشار إلى تجنب التسميد "لأنه يهلكه سريعاً إذا أكثر عليه منها".

وقال في أسلوب آخر:

"وهي غرس ملوخ التفاح، ووجه العمل في ذلك أن تأخذ الملوخ خاصة، ويقصد منها إلى القضيب المعقد وهو أحسن من الأسبط، ثم يغرس من تلك الملوخ في أحواض معدة لها، وتغرس لفافاً على استواء واستقامة لتشرب الماء شرباً معتدلاً ويواظب بالسقي ويتعاهد به، وتترك على تلك الحالة عامين، فإذا كان بعد العامين نقلت وحفر لها في الأرض التي نقل إليها حفر يكون في عمق كل حفرة منها شبران، ويكون بين كل حفرة وأخرى أربعة وعشرون شبراً. فإذا اكملت الغراسة جعل التراب حولها وسقيت بالماء وارغد لها منه. وتتعاهد به أبداً، وغرس الملوخ غرس جيد لأنه إذا فصل من الثمرة وجعل في الحوض وأكثر عليه بالماء خرج فيه اللحاء سريعاً وصارت له الأصول القديمة والفروع النابتة المستحكمة وهو أفضل غراسات التفاح"(٨٨).

أما ابن الحجاج فهو لا يتحدث عن التفاح بتفاصيل، قال: "يغرس في البعل (أي

الأرض المرتفعة) في تشرين الآخر (الذي) هو شهر اكتوبر ويبقى حتى يعلق، ويرفع عنه السقي، وإن كان في موضع سقي غرس في شباط وهو شهر فبراير"[٨٩].

الخوخ

يتبع الخوخ الجنس *Persico Mill* والعائلة الوردية. أما الجنس فيشتمل على ستة أنواع. ومما تشير إليه الدراسة أن أصناف الخوخ قد نشأت جميعها من الخوخ العادي *Persico Vulgaris Mill*، ومرادفاته في التسمية *Prunns Persico* و*Stockes* و *Amygdalus Persicol* أما المصطلح *Persico* فهو خطأ لأنه كان يعتقد بأن الخوخ نشأ في بلاد العجم[٩٠]. وقد رأينا من المصادر المسمارية أنه معروف في العراق، سيما وإن كلمة "فارس" متأخرة.

يصل متوسط ارتفاع شجرة الخوخ إلى (٤،٥) م وعرضها الإجمالي بين (٥-٧)م. أما الأوراق فهي شريطية كبيرة الحجم كاملة الحافة أو مسننة، في حين تكون أعناق الأوراق قصيرة فيها بين (١-٨) من الغدد. ويبدأ التزهير فيها قبل التوريق حيث ينمو من كل برعم ثمري زهرة واحدة تكون الثمرة. وتختلف الأزهار في أحجامها وألوانها من الوردية والحمراء والبيضاء، أما الثمار فمختلفة الحجم وأشكالها كذلك فمنها البيضي والمفلطح. ويوجد بين (٣٠٠٠-٥٠٠٠) صنف من الخوخ[٩١].

والخوخ من الفواكه المألوفة لدى سكان العراق القديم فقد ورد اسمه بالسومرية "دار-رو-اوق" أو "دار-رو-قو" وبالبابلية بما يماثل هذه الصيغة "ودراقو" ومن الواضح أن الصيغتين "دراقن" و"دراقي" قد وردت[٩٢] في المعاجم العربية ومن ذلك في مفردات ابن البيطار وقال إنه الخوخ بلغة أهل الشام. وجاء في العسكري "ويقال للخوخ الفرسك"[٩٣]. في حين جاء في مخصص ابن سيده: "يقال للخوخ الشعراء. جمعه كواحدة. واللفاح والفرسك والدراقن... ابن الاعرابي: الكرك- الأحمر من الخوخ خاصة. وغيره: الزعراء: ضرب من الخوخ"[٩٤] ولجمال منظر هذه الفاكهة فقد تغنى بها الشعراء بأبيات جميلة فيها حسن الأشعار والوصف البديع جمع النويري جانباً منها:

اهــدى إلينــا الزمــان خوخــاً منظـــــره منظـــــر أنيـــــق

مــن كــل مخصوصــة بحُســن معنـــــاه في مثلـــــها دقيـــــق

صـــفراء حمـــراء مستفيـــدة بهجتهــــا الــــتير والعقيـــق[٩٥]

أمـا في مراجـع الزراعـة العربيـة فقـد ورد في الفلاحـة النبطيـة: "هـذا للمشـمش مشكلات في أكثر أمره إلا في البقاء، فإن المشمش أطول عمراً من الخوخ، وذلك أن الخوخ أكثر ما في طبعه أن يحمل أربع سنين وإلى الخامسة ثم ينقطع حمله وينضوي في نفسـه وذلـك لرقتـه وضـعفه فقـل حيره علـى اخـتلاف الأزمنـة عليـه وكرورهـا بـالحر والبرد"[٩٦]. إلا أن مزيداً من التفاصيل المفيدة لم ترد في هذا المصدر.

أما ابن بصال فقد أشار إلى مزيد من التفصيل. قال:

"ووجه العمل فيه أن يؤخذ نواه وتصنع له أحواض ويزرع النوى في تلك الأحواض ويطرح التراب عليه قدر إصبعين، ويكون ذلك في وقت أكله، وهو أحسن ما يكون له وهو أول أكتوبر ويتأخر نباته إلى شهر مارس لا يتجاوزه، فإذا نبت ترك كما هو بعد نباته ويتعاهد بالسقي على قدر ما يحتاج إليه من ذلك، فإذا تم لـه ذلك هيئت لـه الأرض التي يراد أن ينقل إليها بأن يحفر فيها حفر يكون في كل حفرة منها ثلاثة أشبار ويرد عليها التراب ولا تمـلأ الحفـرة منـه مـن أجل السقي حتـى تسقى مـرة وثانيـة، وبعـد تمـلأ الحفرة من التراب، ويكون بين ثمرة وأخرى عشرة أذرع وأنـه لا يتسع شجرة ولا يعظم ولا يعـم ويوافقـه مـن الأرض الحرشـاء، ويـأتي فيهـا بيضـاً طيبـاً وتوافقـه أيضـاً الأرض الرخـوة. إلا أن الخـوخ يكـون فيهـا أخضـر طيبـاً للأكـل لذيـذاًن ويوافقـه أيضـاً لأرض الرملة إذا كانـت غير مغرسـة إلا أن يكـون تغريسـها يسيراً فـلا بـأس بها. وأعلم أنـه لا تقوم ثمرة الخوخ إلا مـن نـواة خاصـة ولا يؤخـذ منـه وتـد ولا ملـخ ولا ناميـة. ويترك الخـوخ بعضـه من بعض"[٩٧]. في حين قال قسطوس في فلاحته:

"اعلـم أن وجـود المواضـع لغـرس الخـوخ مـا كـان نـدياً وكانـت أرضـه قويـة، والمواضع الظاهرة الماء يتأتى لأهله أن يسقوه كلما احتاج إلى السقي، فإنه إذا غرس بهذين الموضعين عظم خوخه. ومما يراد بـه عظـم الخوخ وجودتـه أن يعمـد إليـه إذا كـان ملتفاً متراً، كما على شجرة فيطرح بعضه برفق قبل إدراكه، فإنه يعظم بـذلك البـاقي

منه ويحسن ويجود. وإن غرس الخوخ في آذار بعد تصرم البرد وكلب الشتاء إلى أوائل نيسان. وقد يغرس في الخريف بعد استواء الليل والنهار"(٩٨).

وإذا كان ابن بصال قد أشار إلى زرع الخوخ بالنوى فإن نظيره أبو عمر الاشبيلي قد أشار إلى الغرس بالقضيب والنوى. قال: "يغرس منه القضيب الذي يخرج من التراب في يناير ويزرع نواه في اوغشت (أي آب) وفي فبراير (أي شباط) وذلك في موقع السقي أن كان أعجل لخوجه"(٩٩). ثم يوصى بنقع النوى ثلاثة أيام.

أما محمد بن مالك الطغنري الغرناطي (ت-٥٠١ هـ) فقد أشار إشارة مهمة لا يتفق فيها مع ابن وحشية، على الرغم من أنه لا يذكره في هذه الفقرة. قال:

"اتفق الناس من أهل الفلاحة وأجمعوا على أن شجر الخوخ قليل العمر سريع الفساد، وأنا أبين بالحجة البينة والبرهان الواضح أن شجر الخوخ إذا وقع النظر فيه بالوجه الذي أنا واضعه. على ما ذكرته العلماء الأوائل من أهل التجارب أنه يبقى ما شاء الله"(١٠٠). وهذا الأمر يشير إلى أن العرب لم يقبلوا الأمور على علاتها بل حاولوا عبر تجارب أن يغيروا من الآراء ويضيفوا إليها الشيء الجديد حتى في العلوم التطبيقية، التي يخص ببعضها علم الوراثة الصعب المنال والتحدي.

المشمش

يتبع المشمش الجنس *Armenica Mill* والعائلة الوردية، ويشتمل الجنس على سبعة أنواع.

يمتاز المشمش بإمكان تحمله للحرارة المرتفعة إذ يقع في المرتبة الثانية بعد الخوخ -عدا أنواع فاكهة المناطق تحت الاستوائية- كما يقع بعد اللوز في قدرته في مقاومة الجفاف.

أما ارتفاع شجرة المشمش العادي فهو بين (٣-٧)م، وقطر الساق يصل إلى (٣٠)سم. أما الأوراق فهي كبيرة الحجم وأشكالها مختلفة، وتكون الأزهار بيضاء أو وردية وهي أحادية الوضع جالسة، وتكون البويضات اثنتان في البرية وواحدة في الزراعية(١٠١).

والمشمش من النباتات المهمة في تاريخنا القديم والإسلامي، ويدلل على ذلك

كثرة وروده في النصوص وكتب الفلاحة والنبات عموماً. أما قديماً فيبدو أن موطنه منطقة جبلية فقد كان يسمى "خشخور-كور-را" بمعنى "تفاح الجبل" في حين سمي "ارمانو" بالبابلية و"خشخور ار منو". ويطابق هذا المصطلح مع الاسم الذي اطلقه الرومان على هذا الثمر وهو "ارمنيكا". وهذا الافتراض جعل البعض يفترض بأنه ثمر جلب من أرمينيا، إلا أن ثومبسون يرى أن الثلج يقضي على أزهاره المبكرة(١٠٢). وهناك من يرى بأنه "ارمانو" ربما تعني "آرامي"(١٠٣). إلا أنه مما تجدر الإشارة إليه أن النويري عند تحدثه عن المشمش أورد رأياً لـ ابن سينا: "أجود المشمش الأرمني، فإنه لا يسرع إليه الفساد ولا الحموضة"(١٠٤). لذا يبدو أن هذا المصطلح محتمل الورود في البابلية. وعلى أي حال يوجد صنف من المشمش يدعى شياخ *Shaiakh* وهو أرمني قديم ينمو في أرمينيا وأذربيجان وتركيا(١٠٥). وإضافة إلى العراق والشرق الأوسط يوجد المشمش في الصين منذ (٤٠٠٠) سنة.

أما العرب فمن جملة الأسماء التي أطلقوها عليه البرقوق، التي انتقلت إلى إسبانيا *Albaricoque* التي حورها الفرنسيون إلى *Albricat* والألمان *Aprikose* وعلى أي حال إن ابن بصال ذكر اسم "البرقوق" ولم يشر إلى التسمية "مشمش" عند استعراضه أشجار الفاكهة(١٠٦).

أما في مصادر الفلاحة العربية فقد جاء في الفلاحة النبطية:

"هذا ما يتخذه الناس زرعاً وغرساً، وهو في الغرس أجود، وإن كان الزرع هو الأصل، وزرعه يكون من نواة، أي يؤخذ من نوى ما قد بلغ من شجرته واستوفى في اجزى(١٠٧) مدة ونضج وصفاً لونه فيستخرج العالي عليه ويعزل للزرع". أما موسم زراعته فقد أشير إلى أنه يتم في من أول شباط إلى آخر آذار. إلا إن ابن وحشية قال: "إن يزرع صنف من أصنافه لأن أنواعه كثيرة"(١٠٨). وعلى طبعه قال: "وهو عسر النشؤ يسبق إليه الفساد كثير، إلا أنه إذا علق ونبت طال مكثه ونماؤه من الأرض وانتشر عن إيراد زرعه". ثم يشير إلى عدد النوى الذي يوضع في كل حفرة معتدلة العمق وهو بين (٤-٧) نوى. يلي ذلك مرحلة السقي والانتظار لحين الإنبات ثم حفظ النبات من البرد بالأغطية. إلا أن المصدر يشير إلى أنه في حالة استمرار البرد "فليحول إلى موضع آخر، ويفرق بين أصوله، وإن كانت مجتمعة تفريقاً لا ينقطع منه عروقه، ولا يزيل زرعه"(١٠٩). ثم يراعي

نبش أصول النبات وتسميده في كل أسبوع "أصولاً من شجرة عتيقة أو قضبان" مشيراً إلى أن "التزبيل" أو التسميد يكون ببقايا الشجر القديم.

وإذا ما عرضنا إلى أراء الزراعة في إقليم بابل فإن قسطوس يقول في فلاحته الرومية: "أجود المواضع لغرس المشمش المواضع الباردة الرطبة، أو أن غرسه في الخريف إلى أول الشتاء". إلا أنه يتفق من جهة أخرى مع ما أوردته النبطية في أنه يزرع في شباط "بعد انكسار البرد"[١١٠]. إلا أنه يترك عبارة عامة في تحديد خصائص المناخ الملائم من غيره قائلاً: "والمشمش قل أن يفلح في البلاد الحارة، وإن أثمر فيها كانت ثمرته غير طيبة. ولا يفلح أيضاً في البلاد الشديدة البرد كالبلاد التي في الإقليم السابع وبعض السادس". وكما قال ابن وحشية في نبش الأصول أشار قسطوس: "ومما يزيد المشمش طيباً وحلاوة أن يحفر عن أصله حتى تبدو عروقه"[١١١].

التين

من الأشجار المهمة في أقطار الوطن العربي ومنها العراق، وقد ورد ذكرها في الكتابات المسمارية والهيروغليفية، كما أشار إلى التين القرآن الكريم.

يطلق على التين الاسم العلمي *Ficus Carica*.

والتين من فصيلة التوت التي تحتوي على أشجار أو جنبات متساقطة الأوراق، أو دائمة الخضرة، وتكون أحادية المنزل أو ثنائية، أما وضع الأوراق فيكون متبادلاً بعضها بالنسبة إلى البعض، وعروقها بين (٣-٥) وتكون حافاتها مستوية أو منشارية أو مفصصة، والأذينتان صغيرتان وجانبيتان، وكل منهما يكون كأساً مغطى البرعم، وعند سقوطها تترك ندبة أسطوانية. أما الأزهار فهي وحيدة الجنس، صغيرة ومنتظمة. ويكون في الأزهار المذكرة عدد من الأسدية، وتختزل من (١-٢) في أربعة أجناس منها التين[١١٢]. وقد تم تقسيم الأجناس المختلفة للتين إلى أربع مجموعات، وذلك بحسب احتياجها للتلقيح إلى:

التين البري *Capri figs*.

التين الازميري *Smyrna figs*.

التين العادي *Common figs*.

تين سان بيدرو *San Pedro figs*.

أما البري فيعد أحد أنواع التين البدائية ذات الأزهار المؤنثة القصيرة الأقلام وأزهار مذكرة خصبة. إلا أن معظم سلالات التين البري لا تؤكل. ولكنها تزرع لاستخدامها في التلقيح[١١٣].

ذكر السومريون نبات التين وكتبوه بالعلامة "ما" مسبوقة بالاداة الموضحة للنبات "جش" أو بالأكادية "قش" بما يشابه اللفظة بالعربية. أما الكلمة "ما" فتلفظ بالأكادية "تينو" التي تقابل "تين" بالعربية. وإلى جانب التين الطري ورد مصطلح "تينا بيسا" أي التين اليابس[١١٤].

ومن الوثائق المهمة التي تخص التين نص من تل حرمل، في بغداد، من العصر البابلي القديم، يشير إلى: "تين الجبل" وآخر "تين أكاد".

أما الكتابات الآشورية فقد جاء فيها ذكر نوع آخر هو "خنزورو" الذي يقابله بالعربية "خنصور". في حين جاء من رأس سمرة (أوغاريت) تسميات أخرى للتين كتبت بالمسامرية مثل: "تين ماري" (نسبة إلى مدينة ماري قرب البو كمال على الحدود العراقية السورية)، و"التين سوبارتو" (نسبة إلى إقليم في شمال العراق)، وتين عيلام"[١١٥]. ومما اشارت إليه المصادر أن سرجون الأكادي جلب نوعاً غير معروف في العراق[١١٦].

أما لغة فقد جاء في مخصص ابن سيده:

"التين، واحدته تينة —وهو البَلَس، وقيل البلس الثمر والشجر تين فمن أجناسه الجلداسي وهو أجود يغرس غرساً، وهو أسود ليس بالحالك فيه طول وبطونه بيض. والقلاري —وهو أبيض متوسط... والطبّار- وهو أكبر تين رُؤي... ويقشر عند الأكل لغلظ لحائه... والفليحاني —وهو أسود يلي الطبار مدور شديد السواد... والصدى — وهو أبيض الظاهر أكحل البوق صادق الحلاوة... والمُلاحي والمُلاسي- وهو صغير أملح صادق الحلاوة... والوحشي —وهو تباعدت منابته في الجبال وشواطئ الأودية ويكون من كل لون وهو أصفر التين، وإذا أكل جنياً أحرق الفم، صادق الحلاوة، ويزيب، والارُغب —وهو أكبر من الوحشي عليه زغب فإذا جُرد خرج أسود، وهو غليظ حلو من رديء التين. وتين الرُقع والرُقعة- شجرة عظيمة كالجوزة ورقها كورق القثاء ولا يسمى تيناً إلا أن يضاف إلى شجرته. وفيه تين الجميز —وهو حلو رطب له معاليق طوال..."[١١٧].

ثم يتحدث عن ضرب آخر من الجميز ويصفه. أما العسكري فقال: "البَلَس التين

وكـذلك النسـيل. ويقـال النسـيل لـبن الـتين والحنـل والمُقـل. ويقـال لشـجرته: الـروم والوقل"[118].

وإذا ما اتينا إلى أحد المصادر العراقية القديمة والمترجمة إلى العربية، كما نفهم من مقدمة مترجمها ابن وحشية الكلداني، فقد اوضحت نقاطاً مهمة حول هـذا النبـات. قال:

"هذا أنواع كثيرة وينفصل بعضها من بعض أكثر، ذلك بـاللون لأن فيه أصفر وأسود وأحمر وأخضر وجميز. وكل واحد مـن هـذه الأنـواع يتفـرع إلى أنـواع، فالأصـفر أنـواع، وكـذلك الأسـود والأحمـر والأخضـر نوعـان والجميـز نوعـان ينفصـلان بـالكبر والصغر. وكل هذه الأنواع التي ذكرناها هي ما أنجزه إقليم بابل فـأفلح لهم مـن الـتين أشـياء في مواضـع مـن الأرض لا يجـيء في هـذا الإقلـيم كمـا يجـيء في غـير مـن تلـك المواضع، فالأصفر الـذي نعرفـه ثلاثة[119] أنـواع، والأسـود مثلـه أشـد سـواداً مـن بعـض، فالأحمر ثلاثة أنواع أيضاً، والأخضر نوعان[120] والجميز نوعان، وأحلاها كلها نوع مـن الأصفر ونوع من الأخضـر. أمـا الأصـفر فهـو اللطـاف المـدور الـذي يكثـر في نصـف تمـوز الأخير إلى العشرين من آب، ثم ينقطع. والحلو من الأصفر هو الذي يجيء في أول تشـرين الأول وينقطـع في نيـف وعشـرين منـه، وهـو أخضـر كبـار"[121]. ثـم يتحـدث عـن الأصـيل والمركب من التين قائلاً: "فأما الأخضر[122] كأنما من تركيـب، وكـذلك صنفين مـن الأحمـر وصـنف مـن الأسـود وصـنف مـن الأخضـر، هـذه كانـت في تراكيـب أصـولها والباقي مما عددنا أصول قديمة"[123].

وإذا كان هذا ما أشار إليه ابن وحشية عن أصناف التين فقـد تحـدث عـن طريقـة زراعية والعناية به بطريقتي البذر والسيقان. قال: "والتين قد يتخذ زرعاً وغرساً، والغرس هـو الأصـل ولجميـع الشـجر. فمـن أراد زرعـه فليتقـدم فينظـر أصـلاً مـن الـتين السـمين الكبار في شجرته لا يلقطها حتى يتم نضجها، فإذا كان ذلك فليأخذ بمقـدار مـا يريـد زرعه من تلك التينات، التي قد يبست وتنقع في لـبن امـرأة فهـو أجود أن يحمـض اللـبن أو يتغير. وليبتـدأ بـذلك مـن أول شـباط..." ثـم يشـير إلى أن ذلـك يمكـن أن يسـتمر حتـى العاشر مـن نيسـان. وتتم تغطيتـه بـالتراب إلى أن يثبت "فـإذا صـار علـى مقـدار ذراع طـول فليحول ولا يترك، ويفلح بعد التحويل وسائر الغروس ويزبّل (أي يُسمد)..."[124].

ومن البديهي أن تتحدث المصادر عن نوع التربة التي يحتاجها التين لكي ينمو جيداً. قال ابن وحشية: "ويوافقه من الأرضين الرخوة والمتجمعة التي[١٢٥] ليست بصلبة ويوافقه كثرة الماء في أول أمره، فإذا عتق فإن كثرته تضر به"[١٢٦] ويقول قسطوس في فلاحته الرومية: "واحق ما غرس فيه التين من المواضع البقعة الرقيقة من الأرض القوية غير الندية والظاهرة الماء فإن كثرة الماء والنداوة تضر بشجرة التين وثمرها"[١٢٧]. وقد أشار أبو عمر الاشبيلي (٤٦٦هـ) إلى هذه النقطة وأكدها قائلاً:

"ولا تُسرف عليه بالسقي لأنه يفسد ويعفن"[١٢٨]. وقال ابن بصال الاندلسي (القرن-٥هـ) ما يماثل هذا القول قائلاً: "وأما زريعة التين فوقت زراعتها متصل بالحر فلا بد لها من الماء قبل نباتها، فإذا نبتت زريعة التين فينبغي أن يتحفظ في سقيها ولا يكثر لها بالماء في أول ما تنبت لأنها تستضر به"[١٢٩]. وعلى الرغم من أن ابن بصال تحدث عن زراعة التين بانتقاء ما يصلح من التين اليابس، أي بما اشار إليه ابن وحشية، ولكن من دون الإشارة إلى وضع التين في اللبن، ولغرض الإسراع في الحصول على ثمرة قال: "ومن أراد استعجال الأكل من هذا الشجر فليأخذ قضبانها في العام الثاني ويركبها في غيرها من الشجرة التي لا يستحسن، فإذا فعل ذلك بها نال خيرها في أقرب مدة ولم يحتج أن ينظر إلى الزريعة حتى تكون شجراً"[١٣٠].

الهوامش

١. السعدي، ابراهيم، زراعة وانتاج الكروم، جامعة الموصل، ١٩٨٢، ص/٢١

٢. المصدر السابق، ص/٢٢-٢٥

٣. المصدر السابق، ص/٥٦٧-٥٧٣

٤. الاداة الموضحة *Determinative* هي الأداة التي توضع قبل بعض الأسماء لتوضح المادة التي يعود إليها أو صنع من الشيء المشار إليه لكي لا تختلط هذه الاسماء مع تسميات أخرى كأن تكون مجرد مقطع لا يعني شيئاً فقد كان العراقيون القدماء يضعون العلامة (آن) للدلالة على القدسية أو أن الاسم المذكور هو لإله معين، وكذلك ما يصنع من المعدن أو من مادة اللحم، أو أن يبتدئوا بالرمز (كي) بمعنى أن الاسم الذي يليه يمثل مدينة أو إقليماً وهكذا.

٥. *The Assyrian Dictionary (Chicago), Germany, 1971.vol.8p.202*

٦. طه باقر، دراسة في النباتات الواردة في المصادر المسمارية، مجلة سومر، ١٩٥٢، م/٨، ج/٢، ص/١٤٦

٧. *Thompson, Campbell. A Dictionary of Assyrian Botany. London, 1949.p.329*

٨. *Ibid, p.328*

٩. طه باقر، دراسة، سومر م/٨، ج/٢، ص/٤٦

١٠. الاحمد، سامي سعيد، حضارة العراق، بغداد، ١٩٨٥، ج/٢، ص/١٦٥

١١. الاحمد، سامي سعيد، حضارة العراق، بغداد، ١٩٨٥

١٢. طه باقر، البستنة والبساتين في العراق القديم، مجلة الزراعة العراقية، العدد/٨، ج/٢، ١٩٥٣، ص/٣١٤. وجعل الاحمد (المصدرالسابق) عدد أشجار الكروم ٢٨٢، ص/١٦٥.

١٣. ابن وحشية، الفلاحة النبطية، فرانكفورت، ١٩٨٤ان ج/٥، ص/١٥٤-١٥٥.

١٤. الحميري، محمد، الروض المعطار في خير الأقطار، بيروت، ١٩٧٥، ص/٢٢٦.

١٥. العنب والأعناب مثل: يسن/٣٤، المؤمنون/١٩، الاسراء/٩١، النمل/١١، الرعد/٤، البقرة/٢١٦، وجنات معروشة -الانعام/١٤١.

١٦. العسكري، أبو هلال، التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، دمشق، ١٩٦٩، ص/٤٩٨.

١٧. ابن سيده، المخصص، دار الفكر، السفر/١١، ص/٦٥.

١٨. النويري، شهاب الدين، نهاية الارب في فنون الادب، السفر/١١، ص/١٤٦.

١٩. الذي تم طبعه في معهد التراث العربي والإسلامي التابع لجامعة فرانكفورت دون تحقيق.

٢٠. ابن وحشية، ج/٥، ص/١١٦

٢١. المصدر السابق، ج/٥، ص/١١٩

٢٢. المصدر السابق، ج/٥، ص/١٢٣.

٢٣. المصدر السابق، ج/٥، ص/١٣٧

٢٤. المصدر السابق، ج/٥، ص/١٣٧

٢٥. المصدر السابق، ج/٥، ص/١٣٨.

٢٦. المصدر السابق، ج/٥، ص/١٩٤.

٢٧. بالاصل، خندق.

٢٨. المصدر السابق، ج/٥، ص/٢١٩

٢٩. المصدر السابق،

٣٠. بالاصل، ففرقوا حبها.

٣١. المصدر السابق، ج/٥، ص/١٧٠

٣٢. المصدر السابق، ج/٥، ص/١٦٧

٣٣. المصدر السابق، ج/٥، ص/١٦٧

٣٤. المصدر السابق، ج/٥، ص/٣٣٢

٣٥. المصدر السابق، ج/٥، ص/٣٣٥

٣٦. المصدر السابق، ج/٥، ص/٢٠٥-٢٠١

٣٧. المصدر السابق، ج/٥، ص/٢٠٥-٢٠١

٣٨. المصدر السابق، ج/٥، ص/٢٠٧-٢٠٨

٣٩. الاشبيلي، ابن حجاج، المقنع في الفلاحة، تحقيق ابراهيم الدليمي، (على الاستنسل) بغداد ١٩٨١، ص/٣

٤٠. الاشبيلي، ص/٢٣

٤١. الاشبيلي، ص/٢٤

٤٢. الاشبيلي، ص/٢١

٤٣. الاشبيلي، ص/٢١

٤٤. ابن بصال، كتاب الفلاحة، تطوان ١٩٥٥، ص/٧٥

٤٥. ابن بصال، ص/٧٨

٤٦. ابن بصال، ص/٧٨

٤٧. لورنس، جورج، تصنيف النباتات الوعائية، ترجمة احمد مجاهد ومغزيوس، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٦٩، ص/٩٤٤-٩٤٥

٤٨. *Thompson p.314*

٤٩. ابن سيده، المخصص، سفر/١١، ص/١٤.

٥٠. ابن سيده، المخصص، سفر/١١، ص/١٤.

٥١. ابن وحشية، ج/٦، ص/٦٠،

٥٢. بالأصل، قليلاً

٥٣. بالاصل: في ثلثه.

٥٤. جانيك، ص/٥٤١

٥٥. وذلك لأن الكتابة المسمارية مقطعية أو يمكن أن يمثل الشيء بعلامة واحدة فقط أو بدمج مجموعة مقاطع وحول عدم مألوفية الزيتون أو محدوديته يراجع: *Thonpson. p. 102*

٥٦. وتعني به أحد تفاسير كتاب اليهود (التوراة) المسمى بالتلمود، يراجع، الطاهر على نصوح، شجرة الزيتون، الاردن عمان ١٩٤٧. ص/٩.

٥٧. المصدر السابق، ص/٤.

٥٨. يقع هذا العرض حسب النسخة المعتمدة في (فرانكفورت).

٥٩. ابن وحشية، ج/١، ص/٢١.

٦٠. ابن وحشية، ج/١، ص/٢٢.

٦١. قسطوس، ص/٩٩-١٠٥

٦٢. قسطوس، ص/٩٩.

٦٣. قسطوس، ص/١٠٠.

٦٤. قسطوس، ص/١٠١.

٦٥. مولود، محمد، اصالة تجربة العرب في زراعة الزيتون، في دورة السهامات العرب في العلوم الزراعية –مركز إحياء التراث العلمي العربي- على الاستنسل. ١٩٨٧ص/٥.

٦٦. مولود، المصدر السابق، ص/٥.

٦٧. مولود، المصدر السابق، ص/٦

٦٨. ابن بصال ص/٦٠

٦٩. ابن بصال ص/٦٠

٧٠. ابن بصال ص/٦١

٧١. الاشبيلي، ص/٧٣-٧٤

٧٢. مولود، محمد، "اصالة تجربة العرب" ص/٨

٧٣. الاشبيلي، ص/٧٣

٧٣. قسطوس، ص/١٠٠

٧٥. مولود، محمد، "اصالة تجربة العرب في زراعة الزيتون بالاندلس" ص/١١

٧٦. الاشبيلي، ص/١٢٥

٧٧. الاشبيلي، ص/١٣٠

٧٨. العروسي، حسين، المملكة النباتية، الاسكندرية، ١٩٧٨، ص/٢٤٢

٧٩. *Thompson. P.304*

٨٠. ابن وحشية، ج/٦، ص/١٤٩.

٨١. بالاصل، هكذى.

٨٢. ابن وحشية، ج/٦، ص/١٠٥

٨٣. بالاصل: نشوءه.

٨٤. ابن وحشية، ج/٦، ص/١٥٠

٨٥. قسطوس، ص/٨٠

٨٦. قسطوس، ص/٧٩

٨٧. ابن بصال ص/٦٣-٦٤

٨٨. ابن بصال ص/٦٤

٨٩. الاشبيلي، ص/٥٠-٥١

٩٠. النعيمي، جبار حسن، الفاكهة (١) (مترجم عن مجموعة مختصين)، البصرة، ١٩٨٣، ص/٢٥٥-٢٥٦

٩١. المصدر السابق، ص/٢٥٦

٩٢. *Thompson , p. 305*

٩٣. العسكري، التلخيص، ٥٠٥.

٩٤. ابن سيده، المخصص، السفر-١١، ص/١٣٨-١٣٩

٩٥. النويري، نهاية الارب، السفر/١١، ص/١٣٩.

٩٦. ابن وحشية، ج/٦، ص/٩٦.

٩٧. ابن بصال، ص/٧٠-٧١.

٩٨. قسطوس، ص/٨١

٩٩. الاشبيلي، ص/٥٨-٥٩

١٠٠. مولود، محمد، "ابن مالك الطغنري واسهاماته في العلوم الزراعية" في: الندوة القومية لتاريخ العلوم عند العرب، نطبعة الرشاد، بغداد، ١٩٨٩، ج/١، ص/٢١١

١٠١. النعيمي، ص/٢٩١

١٠٢. *Thompson , p.304*

١٠٣. طه باقر، دراسة في النباتات الواردة في المصادر المسمارية" سومر، م/٨، ج/١، ١٩٥٢، ص/٢٥

١٠٤. النويري، السفر/١١ ص/١٤٠

١٠٥. النعيمي، ص/٢٩٧

١٠٦. ابن بصال، ص/٦٨

١٠٧.ابن وحشية، ج/٦، ص/٩٢

١٠٨. ابن وحشية، ج/٦، ص/٩٢

١٠٩. ابن وحشية، ج/٦، ص/٩٢

١١٠. قسطوس، ص/٨٤

١١١. قسطوس، ص/٨٤

١١٢. لورنس، تصنيف النباتات الوعائية، ص/٦٤٧

١١٣. جانيك، ص/٥٤٣

١١٤. *Thompson, p. 302-3*

١١٥. *Ibid. p. 302*

١١٦. الاحمد، سامي سعيد، الزراعة والري في العراق القديم، ندوة التربة والزراعة،بغداد، ص/٩.

١١٧. ابن سيده، المخصص، السفر/ ١١، ص/

١١٨. العسكري، ج/٢، ص/٥٠٦

١١٩. بالاصل: ثلثة

١٢٠. بالاصل: نوعين.

١٢١. ابن وحشية، ج/٦، ص/١١٩-١٢٠

١٢٢. بالاصل: كانا

١٢٣. ابن وحشية، ج/٦، ص/١٢٠

١٢٤. ابن وحشية، ج/٦، ص/١٢١

١٢٥. بالاصل: الذي.

١٢٦. ابن وحشية، ج/٦، ص/١٢٢-١٢٣.

١٢٧. قسطا، ص/٨٤

١٢٨. الاشبيلي، ص/٤٨

١٢٩. ابن بصال، ص/٦٦

١٣٠. ابن بصال، ص/٨٧

آراء مهمة في البستنة

أشرت في مقدمة البحث إلى مدى سعة البحث في أمور الزراعة ومنها شؤون البستنة ما دام النبات يغطي رقعة كبيرة من الأرض، وما دام الإنسان يسعى حثيثاً للاستفادة منها لغذائه ودوائه ولتقويم حياته في مختلف المجالات الصناعية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ولغرض تطوير الزراعة استفاد المختصون من العلوم الهندسية والكيمائية والفيزيائية وعلم الوراثة. لذا فإن البحث في البستنة يتطلب دراسة كل ما له صلة بالأشجار من غرس وتسميد ومكافحة الآفات إلى جانب الترقيد والتطعيم وجني المحاصيل والحفاظ عليها، وبالمثل تنسيق الأشجار والبساتين بالاستفادة من الهندسة. ولما كانت الكتابة على كل تلك العناصر من الأبحاث الموسعة، والتي قد يكون بعضها مكرراً، فسأختار جملة آراء وتجارب عراقية وعربية على سبيل المقارنة تلقي الضوء على المنزلة التي كان عندها علم البستنة، أو الفلاحة عموماً من مستوى.

ولو أتينا إلى نقطة مهمة في موضوع البستنة نرى أن اختيار موقع البستان من الأمور المهمة التي تنبه لها العراقيون القدماء والعرب. ففي العراق القديم كانت البساتين "تغرس قرب المدن بخلاف الحقول، وإنها كانت، كما هو الحال في العراق الحديث، تسوّر بالطوف"[1]. وكما استفاد اليونان من عناصر الحضارة العراقية والمصرية عموماً استفادوا من خيراتها في الزراعة، إذ نجد في كتاب مترجم إلى العربية لشخص يدعى قسطوس، الذي قال:

"وأحق ما ارتيد من الأرض لإيجاد البساتين ما كان منها بحضرة مساكن أهلها إلى جانبهم أو في الوسط من مساكنهم بحيث تكتنفها البيوت، فإن البساتين إذا كانت كذلك عَمّ طيب ريحانها وأزهارها جميع المنازل المكتنفة لها. ومن تمام أمر

البساتين تحصين حدودها وغرس كل نوع من الأشجار مع ما يشاكله حتى يكون لطاف الشجر جميعاً وبواسقها جميعاً"[2].

أما ابن حجاج الاشبيلي فقال: "اذا اردت أن تتخذ بستاناً فاختر له موضعاً صالحاً وماءً روياً، وليكن قريباً من مساكن الناس مصاحبة لهم، واجعل غرس الأشجار الطوال مع حائط البستان حتى تدور بنواحيه كلها، فإنه أحسن كالدلب والسرو والصنوبر والصفصاف والجوز والبندق، وما أشبه ذلك"[3].

أما حديثاً فإن كتب البستنة تشير إلى ما أشارت إليه النصوص العراقية القديمة والكتب العربية، إذ تشير إلى ضرورة التسييج بسياج ارتفاعه نحو المترين[4]، "ويجب أن يكون موقع البستان على طريق زراعي أو مائي، ويفضل أن يكون قريباً من مدينة أو لخط سكة حديد وذلك لسهولة تصريف الفاكهة ونقل الأسمدة والمهمات المختلفة"[5].

من الأمور المهمة جداً في البستنة ما يعرف بالتركيب، أي وضع براعم شجرة في أخرى وفق مواصفات وترتيبات معينة. ولم تكتف كتب الفلاحة العربية في سرد كيفية ذلك من الناحية التطبيقية بل ذهبت لشرح ذلك منطقياً للوصول إلى اقتفاء أسباب حدوث ذلك نظرياً.

لقد خص ابن وحشيو في كتابه الفلاحة حيزاً كبيراً منه للتركيب[6]. قال:

"إن التركيب ينبغي أن يكون من شيء لشيء يقاربه أو يشاكله من أكثر وجوه المشاكلة ويخالفه في أقل من وجوه المخالفة. فأما أن يقال في العالم شيء يشاكل شيئاً من جميع الوجوه حتى يتفقا في حد واحد منها، أما لا يكون ولا كان قط، لأن المشاكلين من جميع الوجوه المشاكلة لا يقال إنهما اثنان بل هو واحد بعينه، لأن الأشجار أنواع كثيرة متخالفة ومتوافقة ومتقاربة متباعدة، فإذا اركبت شجرة على شجرة توافقها في النوع. ثم في الصورة، ثم في الطبع، ثم في الشخصية، كان قبوله أجود. فإذا قبل بعضه بعضاً أفلح ونشأ. وإذا ركب في شجرة على شجرة بينهما خلاف في جميع الوجوه ما ذكرنا لم تفلح ولم تنشأ"[7]. ومما نعرفه ببداهة[8] عقولنا أن الأشياء إذا تقاربت تشاكلت وإذا تشاكلت ألصقت بعضها ببعض، وإذا تباعدت تنافرت، وإذا تنافرت لم يلتحم بعضها ببعض..."[9]. ومن الواضح أن التشابه في الشكل الخارجي وفي أمور أخرى يعني التشابه في الهندسة الوراثية وبالتالي تقارب النبات بعضه من بعض وقبوله للتركيب من أشجار أخرى.

وإضافة إلى ذلك تحدث ابن وحشية عن الحالة الجديدة أو المخلوق الجديد الذي ينتج الذي لا يشابه في خصائصه تمام المشابهة للنوعين الأول والثاني الذي نشأ عنهما، وهو ما يطلق عليه ابن وحشية اسم "الاستحالة" قائلاً: "فقد نرى الأشياء تتقلب عما هي عليه بالاستحالة وتنتقل من حال إلى ضدها في الجوهر.."[10]. ثم يتحدث عن مزاوجة الحمار بالفرس والبغل الناتج عنهما، وكذا تزاوج الذئب بالكلب "خرج منهما حيوان لا يشبه أحدهما" ثم يقول: "فعلى هذا تجري الأمور في العالم في التراكيب من بعض الأشياء على بعض، وفي الاستحالات والانقلابات في الجوهر والشكل. وهذان المعنيان[11] من الاستحالة بالعمل ومن التراكيب التي تخرج من بين اثنين شيء ثالث لا يشبهها"[12]. ثم يتحدث ابن وحشية في هذا الأمر الوراثي المهم مشيراً إلى عمل الطبيعة في ذلك واهمية عامل الزمن لإحداث التغييرات ومدى قدرة الإنسان في إحداثها، حسبما كان لديهم من أساليب، قال:

"إن الأشياء كلها تستحيل بأشياء تعمل بها وتستحيل استحالة عمل الطبيعة. والاستحالة هي التغير والانقلاب من حال إلى حال بعيدة من الأولى، لكن لها أعمالاً ما بعينها حتى تستحيل بتلك الأعمال. وليس في إمكاننا عمل جميع تلك الاعمال التي توافيها حتوفها التي يكون بها الاستحالة: أما لتعذرها عليها، وأما أن تكون محتاجة في تمامها إلى مدة لا نلحقها لقصر أعمارنا، وأما لعجز عن بلوغ، لأن قوانا معلومة محدودة"[13].

أما المسألة الأخرى التي نتناولها فهي بما استطيع تسميته بمبدأ خداع النبات لخلق فرص جديدة للاستفادة من معطياتها. قال ابن وحشية:

"إن من أحرق شجر الولب مع شجر اللوز جزأين سواء في أصول شجرة الكمثرى أو شجرة الخوخ أخرج الحمل في غير أوانه"[14]. إلا أن العرب لم ينقطعوا عن التجارب أو تناقل أخبار ذلك المبدأ، فبعد قرون طويلة من ابن وحشية قال النابلسي في مؤلفه:

"ومن مُلح الفلاحة وطرائق الخواص إحراق أغصان بعض الأشجار في أصول أشجار أخر فتحمل في غير وقتها. منها إذا حرق السذاب في أصول الورد، حتى يرتفع وهج الإحراق إلى الشجرة دون أن يقرب أصلها وذلك في أي وقت كان من السنة التي لا ورد فيها فتحت الوردة بعد أيام قلائل"[15]. ويعلق الدكتور رعد عمر التكريتي على ما

ذكره النابلسي قائلاً:

"هذا يبدو للوهلة الأولى نوعاً من الخرافات ولكن العلم الحديث يثبت صحتها فما ذكر يطابق حرفيا ما أوردته مجلة بحوث الزراعة الأميركية المجلد ٢ العدد ٣ آذار ١٩٨٦، حيث يقول العالم أندرسون إن استعمال الإضاءة هو لإرياك النبات وإضعاف قدرته على تكوين أجزاء التكاثر، لذا تستعمل كحيلة لتشجيع نبات زهور *Poinsettias* و*Chrysanthemus* وأزهار أخرى لتكوين أزهار في أوقات السنة لا تظهر فيها"(١٦).

إلا أن ابن وحشية لا يقف عند حد استعمال النيران لإيقاظ سبات الأشجار بل نراه يستعمل طريقة فيزيائية لتشجيع أو بعث أشجار ضخمة من رقدها لتثمر قبل أوانها. أما الطريقة التي التجأ إليها فهي ما يعرف بالمرايا المحرقة التي جعلها العرب علما قائما بذاته إلا أننا لم نكن نعلم قبل ابن وحشية لها استعمالا إلا في الحروب، وقد سبقت الإشارة إلى استعمالها في مكافحة الأمراض. وقبل أن نورد أقوال ابن وحشية بصدد ذلك نعرف علم المرايا المحرقة، كما عرّفه العرب:

" هو علم يتعرف منه أحوال الخطوط الشعاعية المنعطفة والمنعكسة ومواقعها وزواياها ومراجعها وكيفية عمل المرايا المحرقة بانعكاس أشعة الشمس عنها ونصبها ومحاذاتها ومنفعته بليغة في محاصرات المدن والقلاع"(١٧).

وقد ألّف عالمنا العربي ابن الهيثم رسالتين في هذا الموضوع " المرايا المحرقة بالدائرة" و" المرايا المحرقة بالقطوع" وقد أسهب في شرح كل حالة من الحالات التي عرض لها هندسيا. لقد قال ابن الهيثم في ذلك: " ...إلا أنهم (أي الأوائل) لم يشرحوا البرهان على هذا المعنى ولا الطريق الذي به استبطوا ذلك شرحاً مقنعاً، ولما في ذلك من الفوائد العظيمة والمنافع العامة وأننا أن نشرحه ونوضحه ليحيط بعلمه من كانت له رغبة في معرفة الحقائق..."(١٨).

ولكي نلم بالمستوى التطبيقي الجيد الذي وصل إليه استخدام هذا الأسلوب نأتي إلى ما قاله عالمنا ابن وحشية. وإذا كان ما قاله ابن وحشية في أن كتابه يرجع في أصله إلى الكلدان فهذا يعني أن البابليين استخدموا المرايا المحرقة في أمور الزراعة، قال:

" يلوح الشجر والنخيل ونيرها من المنابت الصغار بالمرايا المحرقة فإنها تؤثر فيها

تأثيرات طريفة من بعثها على الحمل وسرعة توريدها وكثيرة حملها"[19]. إذاً لقد أجمل ابن وحشية فوائد استعمال المرايا في النبات في ثلاث فوائد بما في ذلك كثرة الحمل. إلا أنه يشير إلى ضرورة الإلمام بعمل الأجهزة، قائلاً:

" لكن يحتاج من يعمل ذلك أن يكون معه طرق من علم الهندسة ليقّوم الأبعاد التي[20]يتعهدها من الشجر، ويلوّح على بعدها على مقدار سني الشجرة والنخل والنبات"[21]. ثم يضرب مثالاً على ذلك:" إن أكثر بقاء الخوخ ست سنين، وأكثر بقاء شجرة النبق مائة سنة، فيحتاج المصلح لهاتين بالمرآة المحرقة أن يكون تباعده من كل واحدة من هاتين على مقدار ما مضى من السنين من جملة مدتها التي سُمّي لها، كأنه أراد أن يفلح، وتلفح الخوخ وكان لها ثلاث[22] سنين فسبيلها أن يقوم في أصلها إلى ناحية المشرق مضروب بثلاثة في أربعة، وهو اثنا[23] عشر. ثم يلوح بالمرآة في الشمس، كان عمل المرآة إذا بلغ استقباله المشرق، وقد يتلوح على الشجرة الشعاع، كذلك استقباله المغرب، إلا أن لهذا عملاً، ولهذا عملاً آخر. فمن أراد الرفق والتصبير فليستقبل المغرب، وإن أراد الزيادة في الأشجار فليستقبل المشرق. وهذا العمل في المنابت الصغار سواء". ومن الواضح أن عمل المرايا يتلخص في عكس شعاع الشمس، لذا فإن الاتجاه شرقاً أو غرباً يعني العمل في جزئي النهار. ثم يشير إلى أن زيادة الإشعاع يزيد "في روائح الرياحين والشجر الطيبة والريح طيباً، ويقلبون الأفعال في البساتين والغرس كما يريدون وكذلك التلويح لشجرة النبق على هذا القياس بعينه..." وإذا كان هذا ما قاله في الشجر فإنه أشار إلى ما هو أصغر بين الأشجار والنباتات قائلاً: "وأما المنابت الصغار، فإن تأثير هذا التلويح فيها أكثر وأبلغ لصغر أجسامها"[24].

بعد ذلك يعرض ابن وحشية إلى جهاز آخر لا يستعمل فيه المرآة قال: "وقد زعم بعض السحرة أن البلورة الكبيرة تقوم مقام المرأة المحرقة، وقد جربنا ذلك فلم نجدها تعمل عمل المرأة بعينه بل لها عمل قريب من عمل المرآة"[25].

لقد عرض ابن وحشية إلى تفاصيل تخص كيفية ضبط العمل بالمرايا لإنجاح العمل وفق شروط. قال:

"وفي التلويح للمنابت يعمل به على شجرة معلومة المبتدأ، ونبات معلوم في وقت زرعه. فأما المجهولة من النخل والشجر والنبات فينبغي أن يلوح لها هذا التلويح على بعد

عشرة أذرع للشجرة الكبيرة العظيمة، والنخلة على بعد خمسة أذرع لما هو دون تلك في الكبر، وهي المتوسطة، على ذراع وذراعين في المنابت الصغار ليتمكن منها الأشجار للقرب"[٢٦].

ومن الواضح أن ما أشار إليه الكاتب في الأبعاد والقياس إنما هو للاستفادة من مدى البعد البؤري للمرآة المقعرة حسب حجمها الذي ينبغي أن يكون كبيراً وقطرها كذلك. وعلى أي حال ينبغي أن لا نتصور أن العمل بالمرايا المحرقة سهلاً لأنها ينبغي أن تجلى وتصقل جيداً. ولغرض السيطرة على عمل تقعير منتظم يخلو من العيوب ويقلل تشتت الاشعاع فقد عمدوا إلى طريقة "القسي" أي الأقواس المتتالية من الفولاذ المطلي كما أشار إلى ذلك عالمنا الحسن بن الهيثم في رسالته[٢٧]. أما الإشارة إلى البلورة الكبيرة فيبدو أنه يعني بها العدسة ولكن دون أن يعطي مزيداً من التفاصيل، لأنه لو كان المقصود هو مجرد سطح عاكس ومستوٍ لما كان هناك من فرق واستخدام المرايا المستوية، على الرغم من أن المستوي من المرايا المتتالية يعطي مزيداً من الإشعاع[٢٨].

الهوامش

١. طه باقر، "البستنة والبساتين في العراق القديم، مجلة الزراعة العراقية، ج/٨، م/٢، ١٩٥٢، ص/٣١٥.

٢. قسطوس، الفلاحة الرومية، المطبعة الوهبية، ص/٧٠

٣. الاشبيلي، المقنع في الفلاحة، تحقيق ابراهيم الدليمي، على الاستنسل، بغداد، ١٩٨١، ص/٤٦

٤. الكناني، فيصل، مبادئ البستنة، الموصل، ١٩٨٨، ص/٢٠٣

٥. عبد العال، احمد، اساسيات بساتين الفاكهة، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨،ص/٢٠٧

٦. ابن وحشية، الفلاحة النبطية، فرانكفورت، ١٩٨٤، ج/٦، ص/٢٥٥-٣١٣، "باب ذكر التراكيب للأشجار.

٧. بالاصل، تنشي.

٨. بالاصل: ببداية.

٩. ابن وحشية، ج/٦، ص/٢٥٥-٢٥٦

١٠. ابن وحشية، ج/٦، ص/٢٥٦

١١. بالاصل: وهذين المعنيين.

١٢. ابن وحشية، ج/٦، ص/٢٥٧

١٣. ابن وحشية، ج/٦، ص/٢٥٧

١٤. ابن وحشية، ج/٦، ص/٢٦٤.

١٥. د. التكريتي، رعد عمر صالح، كتاب الفلاحة النبطية نموذج للتواصل الحضاري في العراق، الندوة القطرية الرابعة لمركز إحياء التراث العلمي العربي، بغداد، ١٩٨٨، علي الاستنسل، ج/٢، ص/١١.

١٦. د. التكريتي، ذات المصدر، ص/١١.

١٧. الحاج خليفة، كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، اسطنبول، ١٣٠٦، ج/٢، ص/٤١٦.

١٨. ابن الهيثم، رسالة في المرايا المحرقة بالقطوع، الدكن، ١٣٥٧هـ ص/٣

١٩. ابن وحشية، ج/٦، ص/٢٦٤

٢٠. بالاصل: الذي.

٢١. ابن وحشية، ج/٦، ص/٢٦٤

٢٢. بالاصل: ثلثة.

٢٣. بالاصل: اثني عشر.

٢٤. ابن وحشية، ج/٦، ص/٢٦٥-٢٦٤

٢٥. ابن وحشية، ج/٦، ص/٢٦٥

٢٦. ابن وحشية، ج/٦، ص/٢٦٥-٢٦٦

٢٧. ابن الهيثم، المرايا المحرقة بالدائرة، الدكن، ١٣٥٧هـ، ص/١٥.

٢٨. وقد جاء في كتاب "الحراقات" لابي سعد العلاء بن كهل الذي ذكره ابن الهيثم في رسائله استعمال للمرايا المستوية المتتالية: يراجع/ الشمس، ماجد، "الوقود والنار في التراث العربي" الندوة القطرية الرابعة، مركز إحياء التراث العلمي العربي، ١٩٨٨. على الاستنسل، ص/٥.

المصادر والمراجع

ابن بصال الطليطلي: كتاب الفلاحة، (دراسة خوسي مادية ومحمد عزيمان). معهد مولاي الحسن، تطوان، ١٩٥٧.

ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤.

ابن حوقل، أبو القاسم: صورة الأرض، بيروت.

ابن سيدة: المخصص، دار الفكر.

ابن وحشية: أبو بكر، الفلاحة النبطية، فرانكفورت، (معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية) ١٩٨٤.

ابن الفقيه الهمداني: أبو عبد الله أحمد، البلدان، فرانكفورت، ١٩٨٧.

ابن الهيثم، الحسن: رسالة في المرايا المحرقة بالقطوع، الدكن ١٣٥٧هـ

رسالة في المرايا المحرقة بالدائرة الدكن ١٣٥٧هـ

أبو النصر، عادل: تاريخ الزراعة القديمة، بيروت، ١٩٦٠.

الأحمد، سامي سعيد: حضارة العراق، بغداد ١٩٨٥ ج/٢.

الزراعة والري في العراق القديم، (ندوة التربة والزراعة – مركز إحياء التراث العلمي العربي)، بغداد.

الاشبيلي، ابن حجاج: المقنع في الفلاحة، (تحقيق ابراهيم الدليمي). بغداد ١٩٨١.

البغدادي، الحافظ: تاريخ بغداد أو مدينة السلام، دار الكتاب العربي – بيروت.

التكريتي، رعد عمر: كتاب الفلاحة النبطية نموذج للتواصل الحضاري في العراق، (الندوة القطرية الرابعة-مركز إحياء التراث العلمي العربي ١٩٨٥ على الاستنسل)ج/٢.

جانيك: علم البساتين، (ترجمة مجموعة أساتذة) مطابع الكتاب المصري الحديث ١٩٨٥.

الحميري، محمد عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، (تحقيق إحسان عباس) بيروب ١٩٨٥.

الحاج خليفة، الملا كاتب جلبي: كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، اسطنبول ١٣٠٦.

رشيد، فوزي: الشرائع العراقية القديمة، (سلسلة دراسات ١٨٨)، وزارة الثقافة والإعلام بغداد ١٩٧٩.

السعدي، ابراهيم: زراعة وإنتاج الكروم، جامعة الموصل، ١٩٨٢.

طه باقر: دراسة في النباتات الواردة في المصادر المسمارية، مجلة سومر م٨. ١٩٥٢.

الطبري: تاريخ الرسل والملوك، (تحقيق محمد ابو الفضل)، دار المعارف بمصر، (ذخائر العرب —٣٠)

عبدول، كريم صالح (و) النجار، سعد زغلول: مبادئ علم البستنة، مطبعة جامعة الموصل ١٩٨٤.

العروسي، حسين: المملكة النباتية الاسكندرية ١٩٧٨.

العسكري، أبو هلال: التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، دمشق ١٩٦٩.

عواد، كوركيس: بساتين الملوك والخلفاء في العصر الإسلامي، مجلة الزراعة العراقية م٧. بغداد- ١٩٥٣.

الزراعة والنباتات عند العرب، مجلة الزراعة العراقية، م ٧. ج/٢، ١٩٥٢.

عواد، ميخائيل: صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي، (سلسلة دراسات ٢٧٩ لوزارة الثقافة والإعلام العراقية) بيروت ١٩٨١.

قسطوس الرومي: الفلاحة اليونانية، المطبعة الوهبية، مصر ١٨٧٨.

لورنس، جورج: تصنيف النباتات الوعائية، (ترجمة احمد مجاهد ومغزيدس)، دار الفكر العربي مصر، ١٩٦٨.

الكناني، فيصل: مبادئ البستنة، الموصل ١٩٨٨.

ليستر، يعقوب: خطط بغداد في العهود العباسية، (ترجمة د. صالح أحمد العلي) مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٨٤.

مولود، محمد: أصالة تجربة العرب في زراعة الزيتون، (دورة اسهامات العرب في

العلوم الزراعية –مركز إحياء التراث العلمي العربي- على الاستنسل) ١٩٨٧.
"ابن مالك الطغنري وإسهاماته في العلوم الزراعية" (الندوة القومية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب –مركز إحياء التراث العلمي العربي) مطبعة الرشاد بغداد، ١٩٨٩.
"فضل زراعة العرب على زراعة الرومان في الأندلس" (ندوة التربة والزراعة عند العرب- مركز إحياء التراث العلمي العربي) بغداد، ر١٩٨٨
مقدسي، جورج: خطط بغداد في القرن الخامس الهجري، (ترجمة د. صالح العلي)، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٤.
المقدسي، البشاري: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٦.
نصوح، الطاهر علي: شجرة الزيتون، عمان، ١٩٤٧.
النعيمي، جبار حسن: الفاكهة (الترجمة لمجموعة اساتذة)، البصرة ١٩٨٣.
النويري، شهاب الدين: نهاية الأرب في فنون الأدب (تصحيح أحمد الزين) سلسلة تراثنا، القاهرة.
يانوفسكا: في كتاب: العراق القديم –دراسة تحليلية لأحواله الاقتصادية والاجتماعية (تأليف مجموعة من العلماء السوفيت)، (ترجمة سليم التكريتي)، (الكتب المترجمة ٢٨) وزارة الإعلام، بغداد ١٩٧٦.
The Assyrian Dictionary (Chicago), Girmany, 1971. vol.8
Thompson, Campbell. A Dictioary of Assyrian Botany, London, 1945.
Wiesman, 'A New Stella of Assur – Nasir – Pal – Il ',IRAQ, part 1, 1952.

الفهرس

من منشورات دار علاء الدين في التاريخ والميثولوجيا

- التشريعات البابلية
  ....عبد الحكيم الذنون
- الجنس في العالم القديم
  ....بول فريشاور
- الديانة الفرعونية
  .... واليس بدج
- شريعة حمورابي
  .... مجموعة من المؤلفين
- طقوس الجنس المقدس
  ....س. كريمر
- آرام دمشق وإسرائيل في التاريخ و التاريخ التوراتي
  .... فراس السواح
- سويداء سوريا موسوعة شاملة عن جبل العرب
  .... مجموعة من المؤلفين
- جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة
  .... فراس السواح
- دين الإنسان. بحث في ماهية الدين و منشأ الدافع الديني
  .... فراس السواح
- لغز عشتار. الألوهية المؤنثة و أصل الدين و الأسطورة
  .... فراس السواح
- مغامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة في سوريا و بلاد الرافدين
  .... فراس السواح
- من هم الموحدون الدروز
  ....جميل أبو ترابي
- الأسطورة في بلاد الرافدين
  ....عبد الحميد محمد
- الاقتباس والجنس في التوراة
  .... خالص مسور
- الحدث التوراتي في الشرق الأدنى القديم
  .... فراس السواح
- دراسات حول الأكراد
  ....ليبرخ
- التاو تي تشينغ إنجيل الحكمة التاوية
  .... فراس السواح
- الفكر الإغريقي
  .... محمد الخطيب
- الأسطورة والمعنى. دراسة في الميثولوجيا و الديانات المشرقية
  .... فراس السواح
- السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين وسوريا الشمالية
  .... جان كلود مارغرون
- المصادر التاريخية العربية في الأندلس
  ....ك. بويكا
- المراحل التاريخية والسياسية لتطور النظام الإداري في سوريا
  ....دنحو داوود
- الرحمن والشيطان الثنوية الكونية و لاهوت التاريخ في الديانات
  .... فراس السواح
- صفحات منسية من نضال الجزيرة السورية
  .... صالح هواش المسلط
- صرح ومهد الحضارة السورية
  ....مفيد عرنوق
- الحضارات القديمة ٢.١
  ....ف. دياكوف / س. كوفاليف

من منشورات دار علاء الدين في التاريخ والميثولوجيا

- العادات والتقاليد في جبل العرب
  ....عطا الله الزاقوت
- القاهرة وبيت المقدس ودمشق
  ....ديفيد صموئيل مارجوليوت
- أميرات سوريات حكمن روما
  ....جودفري تورتون
- تاريخ اليابان
  .... أودين أولدفادر
- صراع بين الحرية والاستبداد
  ....فارس الحناوي
- كليوباترا وعصرها
  .... مجموعة من المؤلفين
- اليوم الآخر ونهاية الزمان
  ....خالد صناديقي
- مصر أيام الفراعنة
  ....محمد الخطيب
- تاريخ أورشليم
  .... فراس السواح
- بنو معروف في التاريخ
  ....سعيد الصغير
- ديانة مصر الفرعونية
  .... محمد الخطيب
- موسوعة تاريخ الأديان
  .... فراس السواح
- التاريخ السري
  ....بروكوبيوس
- أساطير في أصل النار
  .... جيمس فريزر
- أضواء على الثورة السورية الكبرى
  ....عطا الله الزاقوت
- الحضور اليماني
  ....فضل عبد الله الجنام
- الديانة الزرادشتية
  ....نوري إسماعيل
- السريان المسيحيون المسلمون
  .... سمير عبده
- السريانية العربية
  ....سمير عبده
- المسيحيون السوريون خلال ألفي عام
  .... سمير عبده
- المسيحيون السوريون قديماً وحديثاً
  .... سمير عبده
- بدايات الحضارة
  .... عبد الحكيم الذنون
- تاريخ القانون في العراق
  .... عبد الحكيم الذنون
- ستالينغراد ملحمة العصر
  .... ف. تشويكوف
- سلسلة الأساطير السورية
  ....رينيهن لابات
- فتح بلاد الغال يوليوس قيصر
  .... بيتي راديس
- معجم الأساطير
  .... ماكس شابيرو
- معركة المزرعة ملحمة السلاح الأبيض
  ....إسماعيل الملحم
- من أنساب العرب العاربة
  .... صالح هواش المسلط
- موسوعة تاريخ القفقاس والجركس
  .... محمد جمال صادق إبه زاو
- هل هبط آدم في القفقاس
  .... رحيم كاظم الهاشمي
- الاثنولوجيا . دراسة في المجتمعات البدائية
  ....محمد الخطيب

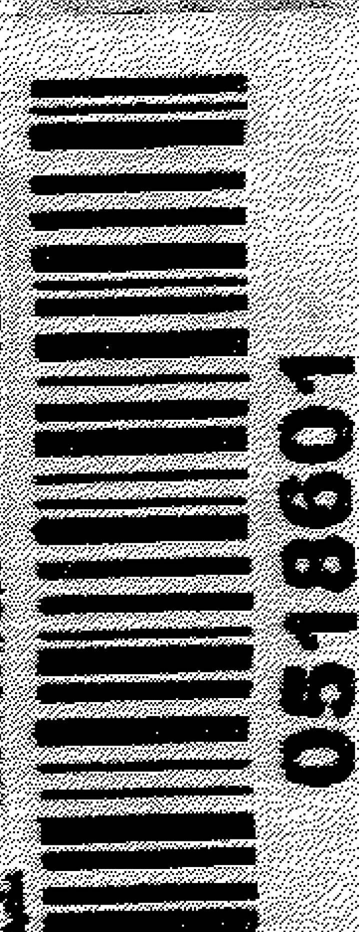
الحضارة والميثولوجيا في العراق القديم

حضارة تجذرت عريقة الأصول آلاف السنين، وأبدعت في عراء الأرض صروح التلاقي والإبداع، فانتشت على ضفاف الرافدين بذور الفكر والفلسفة والدين والأسطورة والعلم، وعرّشت في فضاءات المعرفة التقنيات وعلم الفلك والطب.

يقدم هذا الكتاب ملامح من وجوه حضارة بلاد الرافدين: الأسطورة بكونها المشروع والرؤية والحلم للإنسان في مرحلة من طفولته الفكرية، ويدرس أعياد الربيع وأصل النوروز في العراق القديم، وعلاقة هذه الأعياد بالمعتقدات والأسطورة وبعث الطبيعة.

ويلقي الضوء على العلاقات العراقية المصرية في العصرين: البابلي - الآشوري. والوسيط والإمبراطوري، والوضع السياسي العام في الشرق العربي القديم، وموضوعات رسائل عصر العمارنة ومحتوياتها.

كما يفرد فصلاً للبستنة بوصفها أحد عناصر الحضارة وشكلاً من أشكالها، فيدرس زراعة الفاكهة والمحاصيل والخضروات والزهور، وتخطيط الحدائق وتنسيقها.



يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع
سوريا - دمشق ص.ب. ٣٠٥٩٨ - هاتف ٥٦١٧٠٧١ - فاكس ٥٦١٣٢٤١